الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة

معهد الدعوة وأصول الدين
شعبة الدعوة والإعلام

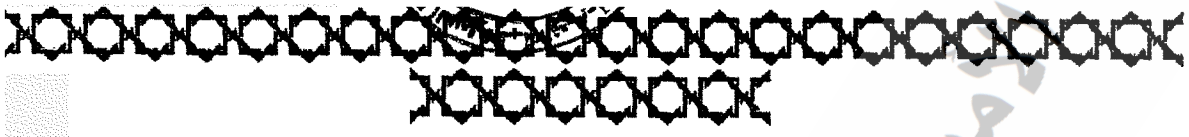

الإصلاح الاجتماعي عند أبي حامد الغزالي

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب:
نور الدين بولحية

إشراف الدكتور:
بشير بوجنانة

السنة الجامعية: 1419هـ الموافق لـ 1998 .1999م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر
العلوم الإسلامية
المكتبة الجامعية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ،والصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد.

فقد لقيت آراء الغزالي وتوجهاته الفكرية اهتمام الكثير من الدارسين منذ بداية هذا القرن ،ابتداءً من منصور فهمي وزكي مبارك و سليمان دنيا وغيرهم، بحيث شملت بحوثهم جوانبه العقدية والفلسفية والصوفية والأخلاقية وغيرها.

و من التساؤلات الهامة التي أفرزتها تلك الدراسات ما يتعلق بأثر الغزالي الاجتماعي،وهل كان ما رآه من آراء ،أو ما اختاره من اتجاهات، أو ما قام به من أعمال ترفا فكريا وبحثا نظريا لا صلة له بواقعه؛فهو يعيش بفكره في عصر غير عصره وبيئة غير بيئته؟ أم أنها نتيجة لبيئته،و أثر لها ؛ ولكن من جانبها السلبي ،فهي تمثل العصر الذي أنتجها،وما الغزالي بذلك إلا إسقاط لعصره، منطو فيه، منحط كانحطاطه؟أو أن الغزالي ـ كما اعتبر نفسه ـ مجدد ديني، ومصلح اجتماعي،اطلع على ما في واقعه من علل ،وعمل لإصلاحه،وكان له دور إيجابي في ذلك؟

وقد كانت الإجابة على هذه التساؤلات مختلفة لدى الباحثين ،فبينما نجد من يعتبره مجدد قرون لا قرن واحد ،ومصلح أجيال لا جيله فقط،نرى من يعتبره سلبيا منطويا غارقا في خلوته ،وإذا ما خرج إلى المجتمع فهو ينشر أفكاره عن الزهد وبغض الدنيا و الفقر مما يزيد في تخلف المجتمع وإفساده.

وقد رأينا أن الإجابة الموضوعية على هذه الأسئلة تتطلب البحث في علاقة فكر الغزالي بالإصلاح الاجتماعي ،لا في علاقة شخصه به ،وأن المرجع في ذلك كتبه، لا حياته، لأن الذين اتهموه بالسلبية انطلقوا من توجهه الصوفي ،وركونه إلى العزلة ،و لم ينظروا إلى صلة ما كتبه في عزلته بالمجتمع سلبا أو إيجابا ؛فقد كان موقفهم منه نابعا عن موقف مسبق من التصوف،وحكم مسبق على رجاله.

ولذلك اخترت « ***الإصلاح الاجتماعي عند الغزالي*** » عنوانا لهذا البحث،مدفوعا بما يلي:

1 ـ أن معظم الدراسات المتعلقة بالإصلاح الاجتماعي تكاد تقتصر على الفترة ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين ،وعلى أشخاص معينين أو حركات معينة ،بحيث أصبحت هذه الوظيفة الأساسية في الإسلام قصرا على مدارس محدودة،وهذا غمط لحق كثير من رجال الإصلاح السابقين من جهة ،وتوجيه لمسيرة الإصلاح في اتجاه معين من جهة أخرى .

و أكثر ما يأبى به هؤلاء من صحيح هو الواقعية التي يدعمها قرب الزمان، مع أن كثيرا من الأنظمة الحديثة ترجع منابعها إلى أسس نظرية أو فلسفية قديمة.

2 ـ أن مجتمعنا المعاصر، بما سلطت عليه من مؤامرات استهدفت أصالته، أو ما جرى من متناقضات شوهت خصائصه، يشبه في كثير من نواحيه مجتمع الغزالي، نلاحظ ذلك سواء في كتابات الغزالي أو كتابات المؤرخين لعصره، وهو مما يعطي هذا البحث بعدا واقعيا زيادة على البعد التاريخي.

3 ـ أن الغزالي يمثل في تاريخ الفكر الإسلامي مدرسة شملت الكثير من الأعلام، وحظي بشعبية قل من وصل إليها من العلماء والمصلحين، وبشكل منعرجا في التوجهات العلمية والتربوية امتد إلى أجيال كثيرة، فلذلك لازال ـ مع كثرة الدراسات المؤلفة حوله ـ يحتاج إلى مزيد بحث وتعمق خاصة في هذا الجانب.

4 ـ أن تأصيل العمل الإصلاحي في الميدان الاجتماعي يقتضي ربطه بمصادره الشرعية، وذلك يتطلب مراجعة ما كتبه العلماء والمصلحون الذين جمعوا بين العلم الشرعي كإطار مرجعي، والنظر في الواقع ومحاولة تغييره.

5 ـ أن أكثر الحركات الإسلامية المعاصرة انشغلت عن الإصلاح الاجتماعي بتفريغ جهودها في محاولة الوصول إلى الإصلاح السياسي، وقد أثبتت التجارب عقم هذا السبيل وعدم جدواه.

هذه بعض الدوافع لاختيار هذا الموضوع، والذي تكمن أهميته في محاولة معرفة موقف الغزالي من الإصلاح الاجتماعي، عن طريق عرض آرائه في ذلك، وبيان إمكانية الاستفادة منها في واقعنا.

وقد كان الاهتمام بهذه الناحية من فكر الغزالي ضئيلا من قبل الباحثين، حيث انصب التركيز على الجانب الفلسفي أو الصوفي أو العقدي فقط، دون محاولة ربط ذلك بغرضه الإصلاحي، بل انصب جهد بعضها ككتاب « **الأخلاق عند الغزالي** » لزكي مبارك على إظهار الغزالي في صورة المفكر السلبي المنطوي على نفسه، وقد طغى جانب النقد فيه على البحث، وتغلبت الذاتية على الموضوعية، وكان له أثر سلبي على الدراسات التي أتت بعده، وتأثرت بمواقفه، دون البحث في مدى صحتها.

وقد استفدنا من تلك الدراسات ـ بغض النظر عن مواقفها ـ مع ربطها بموضوع بحثنا، ولعل أهمها كتاب « **الحقيقة في نظر الغزالي** » لسليمان دنيا الذي وضع في حسابه عنصر الإصلاح الاجتماعي أثناء تحليله لآراء الغزالي

العقدية، و كتاب «**الفيلسوف الغزالي**» لعبد الأمير الأعسم الذي تحدث في الدراسات الغزالية مصنّفا لها،و كتاب « **الفلسفة النورانية القرآنية عند الغزالي**» لزكريا بشير إمام، الذي أعاد الاعتبار لأراء الغزالي الإشراقية مع ربطها بالنصوص الشرعية ،وغيرها من البحوث و الدراسات.

وقد حاولت أن ألتزم في هذا البحث بالمنهج التحليلي التركيبي ،حيث جمعت آراء الغزالي المتعلقة بموضوع الإصلاح الاجتماعي، ثم ردتها إلى عناصرها الأساسية، مع موازنتها بأراء غيره من المصلحين عند الضرورة ،ثم التعقيب عليها بعد ذلك.

وقد جاءت الرسالة في أربعة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة.

ففي **الفصل الأول** درست عصر الغزالي وحياته باعتبارهما مدخلا أساسيا لفهم آرائه ومواقفه ،وقد ركزت على ما يتعلق منها بالجوانب الاجتماعية .

وفي **الفصل الثاني** بينت تصور الغزالي العام لمفهوم الإصلاح الاجتماعي محاولا استنباط تعريف جامع لأركانه ،ومن خلاله تناولت ضوابط الإصلاح الاجتماعي الشرعية حسب اجتهادات الغزالي و اختياراته الفقهية .

وفي **الفصل الثالث** تناولت الأصول التي اعتمد عليها منهج الغزالي في الإصلاح الاجتماعي،وهي القرآن والسنة والتصوف والعقل والثقافات الأجنبية.فقد اهتم الكثير ببيان مصادر فكر الغزالي ،وكان تصنيفهم له باعتبارها،فلذلك حاولت أن أبين استمداد الغزالي من كل تلك المصادر ،وأنه لا تنافر بينها ،وأن الإصلاح الشامل يستدعي الجمع بينها.

وفي **الفصل الرابع** عرضت أسس بناء المجتمع عند الغزالي باعتبارها الميدان الأول لعمل المصلح الاجتماعي ،وقد بينت أنها تنطلق من الفرد فتربيه على الإيمان،وتزوده بالعلوم والمعارف،وتزكيه بالتربية الروحية العالية،ثم تربط بينه وبين أفراد المجتمع بالأخوة الإيمانية ،وما يصدر عنها من سلوكيات اجتماعية .

وقد رجعت لإنجاز البحث إلى جملة من المصادر والمراجع منها:

أولا- المصادر:وهي معظم كتب الغزالي ورسائله ،وخاصة :

1 - إحياء علوم الدين ،وهو أهم كتبه ،وأجمعها لآرائه ،وخاصة ما يتعلق منها بالإصلاح الاجتماعي ،فلذلك جعلناه مصدرنا الأساسي.

2 - المنقذ من الضلال ،وفيه التأريخ لتفكير الغزالي وتطوره ،وبيان موقفه من بعض القضايا المتعلقة بالإصلاح الاجتماعي.

3 - جواهر القرآن،وفيه بيان موقفه من طريقة التعامل مع المصادر الشرعية.

4 ــ المستصفى من علم الأصول،وهو وإن كان كتابا في أصول الفقه إلا أنه يوصل كثيرا من آرائه الفقهية

وغيرها من كتب الغزالي الكثيرة، أما بعض كتبه المشكوك في نسبتها إليه كـ « مشكاة الأنوار » و « الرسالة اللدنية» و « روضة الطالبين » و « منهاج العابدين » و« معارج القدس » وغيرها ،فقد استندت إليها،واقتبست منها ما رأيته متناسبا مع تفكير الغزالي العام ،والمصرح به في كتبه الصحيحة،وخاصة « إحياء علوم الدين »،ومع ذلك فإن هناك من يرجح صحة نسبة الكثير من تلك الكتب إليه بأدلة لايمكن رفضها ،ومنهم عبد الرحمن بدوي ،و أبو العلا العفيفي، و سليمان دنيا ،وغيرهم،وكلهم باحثون مختصون في دراسة الغزالي.

ثانيا ـ المراجع :وهي الكتب التي رجعت إليها للتأريخ ،أو التعريف، أو الموازنة ،كالكتب التاريخية والاجتماعية والتربوية والفلسفية بالإضافة للموسوعات والقواميس و الدراسات المتعلقة بالغزالي.

وقد لاقيت بعض الصعوبات عند إنجاز هذا البحث، أهمها ما امتاز به أسلوب الغزالي من إطناب ،واستطرادات،وكثرة استشهاد وتمثيل ،وهو ما جعلنا نميل إلى التلخيص أكثر من اعتمادنا على الاقتباس .

وفي الأخير أرجو أن تكون هذه الرسالة في مستوى الأهداف التي وضعت من أجلها، ولا أنسى أن أتقدم بالشكر لكل من أعانني على إنجازها ،وخاصة أستاذي الفاضل المشرف على البحث الدكتور بشير بوحنانة الذي استفدت كثيرا من توجيهاته ونصائحه و تشجيعاته ،والتي لولاها ما كان لهذا البحث أن ينجز أو يكتمل ،وفقه الله لما يحبه و يرضاه.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

عصر الغزالي وحياته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا ــ عصر الغـــزالي

1 ــ الحالة السياســـية :

عاش الغزالي بين سنتي 450 ــ 505 هـ ،فيكـــون بذلـــك قـــد شـــهد نصـــف القرن الأول من العصر العباسي الرابع (1) الـــذي يمتـــد بـــين ســـنة 447 هـ ؛ وهـــي سنة دخول السلاجقة بغداد ، وسنة 656 هـ،وهي الســـنة الـــتي احتـــل فيـــها المغـــول بقيادة « هولاكو» (2) بغداد ودمروها و قضوا على الخلافـــة العباســـية فيـــها ،وقـــد ظهر المشرق الإسلامي ــ وهو البيئة التي عـــاش فيـــها الغـــزالي ــ في بدايـــة هـــذا العصر،وكأنه على حافة الهاوية ؛فالصراع على أشده بين الخلافـــة العباســـية الســـنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ،وهو الـــذي أتـــاح الفرصـــة للدولـــة البيزنطية للإغارة على الثغور الإسلامية المتاخمة لهـــا في شمـــال الشـــام والجزيـــرة ؛وفي طيلة العصر العباسي الرابـــع(3).

وللإلمام بأحداث عصر الغزالي السياسية جيـــدا نتعـــرض للدولتـــين الكبـــيرتين صاحبتي النفوذ في المشرق الإسلامي آنـــذاك،وهمـــا الدولـــة الســـلجوقية ،والدولـــة الفاطميـــة.

أ ــ الدولة الســـلجوقية :

السلاجقة قبائل تركية رعوية عاشت في آسيا الوسطى ،وقـــد توحـــدت علـــى يد « سلجوق بن نفـــاق » أحـــد رؤســـائهم ،وكـــانوا يســـكنون بـــلاد مـــا وراء

---

1 ــ اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة عصـــور بحســـب نفـــوذ الجنـــس المتسلط،ففي العصر العباسي الأول [132ــ232هـ]كان النفوذ فارسيا ،وفي الثاني [232 ــ334 هـ] تركيـــا ،وفي الثالث [334ــ 447هـ] بويهيا فارسيا ،وفي الرابع [447ــ656هـ] سلجوقيا تركيا ،وهـــو تقســـيم اصطلاحـــي فقط،لأن التاريخ تيار مستمر غير مقطع،انظر:د.أحمد مختار العبادي ،في التاريخ العباسي والأندلسي،بيروت:دار النهضة العربيّة،1972،ص32.

2 ــ إمبراطور مغولي،دمر بغداد وأطاح بالخلافة العباسية ، غـــزا ســـوريا واســـتولى علـــى حلـــب ودمشق،لكن السلطان بيبرس أنزل به هزيمة منكرة في عين جالوت بفلســـطين ،انظـــر:ابـــن كثـــير،البدايـــة والنهاية، بيروت:دار المعرفـــة ،1416هـــ،ج13،ص289

3 ــ أنور الجندي ، الإسلام وحركة التاريخ ،ط8،بـــيروت :دار الكتـــاب اللبنـــاني،ص235.

النهر،وكان عددهم ـ كما يذكر ابن خلكان ـ يجل عن الحصر ،لا يدينون بطاعة لسلطان ،وكانوا إذا قصدهم جمع لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال ،فلا يصل إليهم أحد (1).

وقد كان اعتناقهم الإسلام على المذهب السني هو الذي أتاح لهم فرصة الاستقرار في الأراضي الإسلامية بنواحي بخارى و سمرقند في أواخر القرن الرابع الهجري ،وبذلك حموا الثغور الشرقية ،ونشروا الإسلام فيما وراءها بين الأتراك الوثنيين .

ثم أخذت جموعهم تنتشر بشدة ،فلم يأت القرن الخامس الهجري حتى كانوا على استعداد للهجرة غربا نحو خراسان بقيادة « طغرلبك »» (2) حفيد « سلجوق » ،وقد كان ـ على ما وصفه ابن الأثير ـ عاقلا حليما من أشد الناس احتمالا وأكثرهم كتمانا لسره وأكثرهم عبادة(3)، وزيادة على ذلك كان ذا حنكة سياسية وشجاعة مكنته من الاستيلاء على مرو و نيسابور و خوارزم سنة 429 هـ ،ثم الجبال و همذان و دينور والري و أصفهان بين سنتي 433 ـ 437 هـ،وقد حرصوا خلال زحفهم على إظهار تمسكهم بالمذهب السني ومحاربتهم للمذاهب الشيعية المتطرفة .

وفي ذلك الحين كانت الخلافة العباسية تعاني من سيطرة « البويهيين» الشيعة(4) ومؤامرات الدولة الفاطمية ،ولهذا لم يجد الخليفة العباسي«القائم بأمر الله » (5) إلا أن

---

1 ـ ابن خلكان ،وفيات الأعيان ،تحقيق إحسان عباس ،بيروت:دار الثقافة (د.ت)،ج5،ص63ـ68.

2 ـ هو طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق ،يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية ،توفي سنة 465 هـ ،انظر:ابن كثير ، البداية والنهاية،،ج12،ص549،550.

3 ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ط4 ،بيروت: دار الكتاب العربي ،1403ـ1983م،ج8،ص94.

4 ـ أسرة فارسية شيعية حكمت بغداد من 334هـ إلى447هـ وبالرغم من بعض عيوبها فقد قامت بإصلاحات اقتصادية هامة،كما خففت الضرائب على الرعية،فاكتسبت بذلك ودهم وتعاطفهم،ويعزى الفضل كذلك إليهم في تشجيع العلماء والأدباء من أمثال الخوارزمي والفارابي وابن سينا وابن العميد وغيرهم،انظر:ابن كثير ،البداية والنهاية،ج 11،ص 206وما بعدها.

5 ـ هو الخليفة القائم بأمر الله ،كان من خيار بني العباس دينا واعتقادا ودولة توفي سنة 467 هـ انظر:ابن كثير،البداية والنهاية،،ج12،ص576 ،577.

يستنجد بزعيم الأتراك السلاجقة «طغرلبك» للقضاء على ما تعانيه الخلافة في بغداد .فأمر أن يخطب باسم «طغرلبك» في مساجد بغداد في رمضان سنة 447هـ ، ثم أذن له في دخول بغداد . فدخلها وقد خرج لاستقباله الأمراء و الرؤساء والقضاة و النقباء والأشراف (1) .

وقد ذكر العماد الأصفهاني استجابة السلاجقة لدعوة «القائم العباسي» مبينا مدى ولائهم للخلافة العباسية ، فقال : « إنهم لما وجدوا «ابن يمين الدولة» [وهو آخر حكام البويهيين] مائلا عن الخير والسمو ، مشتغلا بالشر والعتو ، غاروا لمسلمين والبلاد ،وهم عبيد أمير المؤمنين في حفظ البلاد و العباد ، وقد سنوا سنّة العدل، وأسّسوا سنا الفضل ، وأبطلوا مراسم العسف ، وعطلوا مواسم الحيف » (2).

وقد كان تمسكهم بالمذهب السني العامل الأول في معاملتهم الحسنة للخلفاء العباسيين عكس من سبقهم من البويهيين ،ولعل هذا هو السبب في عدم تلقبهم بألقاب الخلافة ،ولو أن ابن خلدون يذكر سببا آخر جديرا، وهو « تعطل رسم الخلافة » ،يقول في العبر عنهم: «فلم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا عن مشاركة الوزراء اللقب لأنهم حول لهم ، فتسموا بالإمارة والسلطان ، وكان المستبد على الدولة يسمى « أمير الأمراء » أو « السلطان »(3).

وهذا الولاء لبخلافة العباسية مكّن للسلاجقة عند العلماء والعامة على السواء لأن العلماء يريدون إماما قرشيا ،والعامة ير يدون إماما له علاقة ببيت النبوة حتى يردوا على الفاطميين الذين يستغلون الدعاية بالانتساب للبيت النبوي في بث سلطانهم على العالم الإسلامي .

وقد كانت الخلافة العباسية تمثل في ذلك الحين الرمز السلطوي لأهل السنة.فنصرتها نصرة له، ولذلك نجد العلماء يحاولون بشتى الطرق إظهار قيمة العباسيين وفضلهم ، و من بينهم الغزالي ،الذي ألف كتابا في الرد على الباطنية سماه : «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ،ويقصد بـ «المستظهرية »

---

1 ــ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج12ص66.

2 ــ العماد الأصفهاني ، دولة آل سلجوق ، بيروت : منشورات دار الآفاق الجديدة 1978،ص35.

3 ــ ابن خلدون ،العبر وديوان المبتدأ والخبر ،بيروت : دار الكتاب اللبناني،ج1، ص423.

الخليفة العباسي «المستظهر بالله » (1)، يقول في كتابه هـذا : « فـإن الإمامـة الـتي تدعيها أجمع عليها أئمة العصر وعلماء الدهر ،بـل جماهـير الخلـق وأقـاليم الأرض في أقصى المشرق وفي أقصى المغرب حتى تطوق الطاعـة لـه (للخليفـة)و الانقيـاد لأمره كل من على بسيط الأرض إلا شـرذمة الباطنيـة » (2).

ولكن الأوساط الفاطمية في القاهرة استاءت من سقوط دولة « بني بويه » وحلـول السلاجقة مكانهم، ولذلك حرضوا على قيام «البساسيري » (3) بفتنته،وذلك في نفـس السنة التي ولد فيها الغزالي [450 هـ]،وقد كانت فتنة عظيمة، حيث استولى على بغداد ـ مستغلا غياب «طغرلبك » ـ وخطب للفاطميين ،ورفع ألويتهم ، وانتقم من أعيـان بغداد انتقاما عظيما وكادت بغـداد تسـقط في يـد الفـاطميين لـولا رجـوع « طغرلبك»وإعادته الخليفة « القائم » إلى عرشه .(4) فتخلصت بذلك الخلافة العباسية من هذه الفتنة الخطيرة ،وهي ترينا المدى الذي وصل إليه الصراع الذي كان قائما بين السنة والشيعة على المستوى السياسي في ذلك الوقت ، وسنرى هذا الصراع نفسه قائما علـى المستوى الفكري .

وبعد وفاة « طغرلبك » سنة455 هـ تولى السلطنة ابن أخيـه«ألـب أرسـلان » (5) الذي امتد حكمه من سنة 455 هـ إلى سـنة 465 هـ ، ثم خلفـه«ملكشـاد » (6)

---

1 ـ هو أبو العباس أحمد بن المقتدي ،كان خيرا فاضلا ،[470 ـ 512هـ]كـان خـيرا فـاضلا، ،في عهده تدهور سلطان السلجوقيين،وظـهرت الحمـلات الصليبيـة،وظـهر الحشاشـون،انظـر:ابـن كثير،البداية والنهاية ،ج12 ص684 ،وانظر: السـيوطي ،تـاريخ الخلفـاء،ص423.

2 ـ أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية وفضـائل المسـتظهرية ،تحـ : عبـد الرحمـان بـدوي، القاهرة :الدار القوميـة ،1964 ،ص173 .

3 ـ هو أرسلان بن عبد الله[ت451 هـ]قائد تركي الأصل،كان مـن مماليك بـني بويـه،خـدم القائم العباسي ،ثم خرج عليه،انظر :ابن كثير، البدايـة والنهايـة ج12 ،ص534.وابـن خلكـان،وفيـات الأعيـان،ج1،ص192ـ193.

4 ـ ابن كثير ،البدايـة والنهايـة ، ج12، 542..

5 ـ الملقب بسلطان عالم [ت 464هـ]كان عـادلا رحيمـا شـفوقا علـى الرعيـة ،انظـر : ابـن كثير،البداية والنهايـة ج12،ص571.

6 ـ هو جلال الدين والدولة بن ألب أرسلان [ت485هـ]امتـدت مملكتـه مـن أقصـى بـلاد الترك إلى أقصى اليمن ،ترك الأمر لوزيره نظـام الملـك ،فبلغـت الدولـة أوج ازدهارهـا،انظـر : ابـن كثير، البداية والنهاية ج12 ،ص620،وابـن الجـوزي،المنتظـم،ج9،ص69 ـ 74.

الذي امتد حكمه من سنة 465 هـ إلى سنة485 هـ .

وبالرغم مما لهما من امتيازات كمقاومة الروم الذين لم يتعرضوا لأيّ صدّ ذي بال منذ «وقعة عمورية » (1) حتى جاء السلاجقة ، إلا أن المزايا الكبرى لهذا العصر الذهبي للسلاجقة كانت في وزارة « نظام الملك »(2) الذي سنرى علاقته بالغزالي فيما بعد ، وقد أجمع المؤرخون وعلماء الإسلام على الثناء عليه وعلى مآثره،يقول عنه ابن الأثير: «كان عالما دينا جوادا عادلا حليما كثير الصفح على المذنبين طويل الصمت ،وكان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح » (3)وأخباره الكثيرة تدل على ذلك .

وقد وصف العماد الأصفهاني سياسة « نظام الملك »في قوله : « إنه كان يرشح كل أحد للمنصب الذي يصلح له بقدر ما يرى فيه من الرشد والفضل ،ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ،و وقف عليها وقفا ،وجعل فيها دار كتب...وكان نافذا بصيرا ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته ،فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ،و من رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جدواه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره » (4) ومما قيل في رثائه :

كان الوزير « نظام الملك »لؤلؤة نفيسة صاغها الرحمان من شرف

عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منة إلى الصدف(5)

وبعد وفاته ،انتهى العصر السلجوقي الأول ،أو عصر نظام الملك.

---

1 ـ وقعت في عهد المعتصم بقيادة قائده التركي[لافشين] سنة223هـ،وانتصر فيها المسلمون على الروم انتصارا عظيما،انظر:ابن كثير،البداية والنهاية،ج7،ص35.

2 ـ هو الحسن بن علي بن إسحاق وزير الملك ألب أرسلان[ت485هـ]،من كبار وزراء السلاجقة ،أنشأ المدارس النظامية ،أقر الأمن في العراق وفارس ،استوزر 29سنة، انظر: ابن الأثير،الكامل في التاريخ،ج8،ص192،وابن كثير ،البداية والنهاية،ج12،ص617،وابن خلدون،العبر،ج5،ص11ـ13،وابن خلكان،وفيات الأعيان،ج2،ص128ـ131.

3 ـ ابن الأثير ،الكامل في التاريخ، ج8 ،ص192.

4 ـ العماد الأصفهاني ، دولة آل سلجوق ، ص59.

5 ـ ابن كثير، البداية والنهاية،ج12،ص619.

وقد تولى الحكم « بركياروق »(1) الذي توفي والده « ملكشاه » بعد مقتل وزيره « نظام الملك » بشهر واحد ،وفي عهده بدأت المنازعات والحروب الداخلية مع إخوته وأعمامه مما أدى إلى تفكك الدولة فيما بينهم .

وفي ظل ذلك الصراع وقع الدور الأول من الحروب الصليبية حيث تلاحقت موجات الإفرنج إلى الشام ومصر ،فحاصرت إنطاكية سنة 491هـ.وقد حاول المسلمون نجدتها ولكن دون جدوى ،فقد دخلها الصليبيون وعاثوا فيها فسادا، وأباحوها أياما يتهيئوا بعدها لاحتلال بيت المقدس وتكوين إمارتهم الصليبية فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الفاطميين ،في الوقت الذي حوصرت فيه إنطاكية جعلوا هذا الحصار فرصة لافتكاك بيت المقدس من أيدي السلاجقة،بل بعث الخليفة الفاطمي « المستعلي بالله »(2)وفدا إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة وتأمين أماكنهم المقدسة. لكن الصليبيين لم يستجيبوا لذلك ، بل بمجرد احتلالهم إنطاكية اتجهوا إلى بيت المقدس فدخلوها بعد حصار دام شهرا واحدا في شعبان492 هـ مرتكبين أبشع الأعمال و أفضعها،وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبعين ألفا .

ومما قيل في وقوع القدس من المراثي مرثية « أبي المظفر الأبيوردي »(3)التي يقول فيها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فإيها بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم (4)

---

1 ــ هو ابن ملكشاه ،ركن الدولة السلجوقي [ت498 هـ]حاولت زوجته أن تحتفظ بالحكم لابنها،فحاربه.انظر:ابن كثير ، البداية والنهاية ج12،ص650،والعماد الأصفهاني،دولة آل سلجوق،ص75.

2 ــ هو أحمد بن المستنصر ،تاسع الخلفاء الفاطميين ،استعاد أفامية وصور من الصليبيين ،توفي سنة 495هـ ،انظر: ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ،ج10، ص53.

3 ــ هو محمد أبو المظفر،شاعر وكاتب،من كتبه:ديوان شعر،وأنساب العرب،مات مسموما في أصفهان سنة507هـ. انظر:د.عمر فروخ،تاريخ الأدب العربي،ط1،بيروت:دار العلم للملايين،1983،ج3،ص216.

4 ــ محمد العمروسي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب.بيروت:دار الغرب الإسلامي،1982،ص54.

وبعد « بركياروق » تولى ابنه « ملكشاه الثاني » الذي لم يكن قد بلغ الخامسة من عمره. ولكنه لم يكد يستقر على العرش حتى عزل وسملت عينه على ما جرت به العادة في ذلك العصر.

وهنا صفا الجو لـ « محمد بن ملكشاه »(1)الذي قلده الخليفة « المستظهر » ولقبه « غياث الدين »، و عظمت هيبته، ولم يبق له منازع، وبذل جهدا كبيرا في القضاء على الباطنية . وقد دام حكمه زهاء ثلاث عشرة سنة (498هـ ـ 511هـ) ،وفي عهده توفي الغزالي.

ب ـ الدولة الفاطمية :

يقسم تاريخ الدولة الفاطمية إلى قسمين كبيرين :

ـ العهد المغربي :ويمتد من تأسيس ا لدولة في تونس على يد « المهدي » (2) سنة296 هـ ،حتى انتقال « المعز لدين الله »(3) إلى القاهرة في حدود سنة 358هـ.

ـ العهد المصري :ويبدأ من انتقال « المعز لدين الله» إلى القاهرة، ويستمر حتى نهاية الدولة الفاطمية(4).

ولا يهمنا هنا إلا العهد الثاني الذي تميز بمحاولة الفاطميين التغلغل في قلب العالم الإسلامي ،ومحاولة قلب النظام السني واستبداله بالعقائد و المظاهر الشيعية و الباطنية.وقد ذكر ابن كثير ما فعود عند دخولهم دمشق ،فقال: « وأذن فيها [أي دمشق]وفي نواحيها بـ «حي على خير العمل » أكثر من مائة سنة ،وكتب لعنة الشيخين على أبواب الجوامع بها وأبواب المساجد ،فإنا لله وإنا إليه راجعون . ولم يزل ذلك

---

1 ـ هو غياث الدين [ت511 هـ]كان عادلا رحيما بالرعية، انظر: ابن كثير ،البداية والنهاية، ج12،ص672.

2 ـ هو أبو محمد عبد الله،أول خلفاء الفاطميين،دام حكمه من 297هـ إلى وفاته سنة322هـ،بنى المهدية وجعلها عاصمة لدولته،انظر:ابن خلدون،العبر،ج4،ص31ـ40.

3 ـ هو أبو تميم معد بن منصور[319 ـ 365هـ]رابع الخلفاء الفاطميين،مؤسس القاهرة والأزهر الشريف.انظر:ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج5،ص224ـ228.

4 ـ محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأيوبية ،بيروت مؤسسة الرسالة ،ص27.

كذلك حتى أزالت ذلك دولة الأتراك و الأكراد نور الدين الشهيد(1) وصلاح الدين الأيوبي(2) ،(3).

وقد كان لظهور القرامطة في بلاد العراق السفلي و التشابه بين دعوتهم ودعوة الفاطميين أكبر الأثر في جذب كثير من أهالي الولايات العباسية إلى مذهب الفاطميين،فصارت بلاد السواد (4) تموج بأتباع أئمة الفاطمية ،كما صار لهم أنصار في بغداد نفسها (5) .

ولم يكتفوا بذلك ،بل كانوا يطمعون في مكة والمدينة ـ قلب الإسلام ـ أن يطبعوها بطابعهم ،لعلمهم أنه من يسيطر على الحرمين الشريفين يتبوأ عرش الزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله ،وقد تم لهم بعض ذلك ؛ إذ أقيمت الخطبة لمعز الفاطمي في مكة المكرمة والمدينة المنورة أحيانا كثيرة (6)، وزيادة على ذلك فقد كان أغلب القائمين على الدولة الفاطمية من اليهود والنصارى ؛ وهذا يفسر لنا انحيازهم في الشام إلى الإفرنج والصليبيين عند الغارة الصليبية بعاطفتهم ،بل بسلاحهم في بعض الأحيان.

هذه خلاصة موجزة للواقع السياسي الذي عاشه الغزالي،وهو ـ كما رأينا ـ مليء بالأحداث مشحون بالصراع سواء بين السنيين والشيعة ،أو بين المسيحيين

---

1 ـ هو نور الدين بن عماد الدين زنكي،اتابك حلب، حارب الصليبيين وانتزع منهم الرها وبيبرس،ضم الموصل إلى ممتلكاته بعد حصار شاق ،انظر:ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج5،ص184ـ189.

2 ـ هو يوسف بن أيوب [532 ـ 589هـ] مؤسس الدولة الأيوبية،من كبار حكام المسلمين أبان الصليبيين،عزل الخليفة الفاطمي،واعترف بسلطة الخليفة العباسي،فتح بيت المقدس.انظر:ابن كثير،البداية والنهاية،ج13،ص5.

3 ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج12 ،ص367.

4 ـ يراد بها ضياع العراق التي افتتحها المسلمون في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ وقد سمي بذلك لسواده بالزرع والنخيل والأشجار ، انظر: ياقوت الحموي،معجم البلدان،بيروت :دار صادر ،ج3،ص159.

5 ـ د. محمد جمال الدين سرور ،سياسة الفاطميين الخارجية ،بيروت :دار الفكر العربي ،1386هـ ـ 1967م،ص163.

6 ـ ابن خلدون ، العبر ،ج4 ، ص101.

والعلميين.ومثل هذا العصر لا بد أن تكون له إفرازات في جميع المستويات خاصة الناحيتين :الاجتماعية والفكرية .

2 ــ الحالة الاجتماعية :

الحديث عن الحالة الاجتماعية لعصر الغزالي يستدعي الإلمام بالبنية الاجتماعية وخصائصها.و الظواهر الاجتماعية .

أ ــ البنية الاجتماعية وخصائصها:

انطلاقا من استقراء المصادر. يمكن تحديد فئات المجتمع الإسلامي في ذلك العصر في الأصناف التالية :

1 ــ الخاصة : وهم الخلفاء والوزراء والقواد إلى جانب أهل الخلفاء ورجال الحاشية .وكانوا يتميزون عن غيرهم من الفئات بمظاهر من التبجيل .منها أن لهم مرافق خاصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم كالإسطبلات والمطابخ والأبواب(1)،وكانت لهم ملابس رسمية تميزهم في غاية الترف (2)،وكانت لهم وللجنود إقطاعيات ضخمة يستخدمون فيها الزراع والفلاحين وغيرهم من فئات الشعب.وأول من فرق هذه الإقطاعيات:ولم يكن ذلك عادة الخلفاء والسلاطين،هو نظام المشت (3) وقد كان لذلك جملة من الآثار السلبية على الناحية الاجتماعية منها:

ــ أن هذه السلطة جعلت كثيرا من أصحاب الإقطاعيات يغتصبون أملاك غيرهم التي تقع داخل إقطاعياتهم،وكمثال على ذلك ما ذكره العماد الأصفهاني في حوادث سنة 498هـ حينما آلت وزارة « بركياروق » إلى« عبد الجليل الدهستاني» من تغاقم شره إلى أن أحرج أملاك الناس في الإقطاع ، « وكان في الظلم مستطيل اليد.طويل الباع » (4).

---

1 ــ حسن إبراهيم حسن .تاريخ الإسلام الديني والسياسي والثقافي والاجتماعي.ط1.بيروت:دار الأندلس.1967.ج4.ص625.

2 ــ انظر أمثلة على ذلك في :العماد الأصفهاني .دولة آل سلجوق.ص34.

3 ــ تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى .مصر:المطبعة الحسينية.ج4،ص317.

4 ــ العماد الأصفهاني .دولة آل سلجوق ،ص87.

ولعل خوف وقوع مثل هذا هو الذي دفع نظام الملك إلى الإشارة في رسالته التي سماها « سياسة نامة » إلى ضرورة تحديد الأراضي التي يقطعها السلطان تحديدا دقيقا، وقال بإقطاعها إلى أجل مسمى(1).

ـ تفاقم الهوة بين هذه الفئة وعامة الناس .فكان الترف والبذخ في الأولى والفقر المدقع في الثانية .

ولكنه مع هذه الآثار السلبية كان ضروريا لإصلاح ما أفسدته الحروب الكثيرة بين السلاجقة و البويهيين،(2) ولو أنه قيد بما وضعه « نظام الملك » من حدود لما كانت له تلك الآثار السلبية.

2 ـ **العلماء**:وقد تبوؤوا مكانة مرموقة في المجتمع العباسي سواء لدى الخلفاء ورجال الدولة أو لدى التجار والعامة .فقد تميز العصر العباسي بتشجيع العلم والعلماء والنهوض بالعلوم والآداب.فعاش غالبية العلماء في رغد،وتميزوا بزيهم ومظهرهم الخاص. وكان لهم تأثير كبير في المجتمع بما بثوه من مثل أخلاقية ودينية كتصديهم للمنكر،ومقاومتهم للانحرافات الاجتماعية. بل و انتقاد تصرفات الحكام (3).

3 ـ **التجار**: وكانوا يشكلون المرتبة الثالثة في هرم البناء الاجتماعي.وكانوا على طبقتين: كبار التجار،وهم ذوو الثروات الكبيرة.وقد ارتبطوا بقصور الخلفاء والوزراء و القادة. وصغار التجار .وكان اتصالهم بعامة الشعب.وقد كانت ثروة بعض التجار الكبيرة سببا في نزوع أصحابها إلى التحلل من آداب المجتمع وتقاليده(4).

4 ـ **العامة** :وهم السواد الأعظم من الناس ،ويتكونون من أهل الحرف والصنائع، والفلاحين، ويقال لهم : « العامة » ،و « الدهماء » و« الغوغاء »،وقد كانت لهم مرافق خاصة بهم كباب العامة ،ومطابخ العامة(5).

---

1 ـ كارل بروكلمان ،تاريخ الشعوب الإسلامية،تر :نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط10 ، بيروت :دار العلم للملايين ،1984 ،ص281.

2 ـ العماد الأصفهاني ،دولة آل سلجوق ،ص60.

3 ،4 ـ د. إبراهيم أيوب،التاريخ العباسي السياسي والحضاري،ط1،بيروت :الشركة العالمية للكتاب ،254.

5 ـ المصدر نفسه ، ج4 ،ص627.

5 ــ **الرقيق**:وكانوا يشكلون طبقة كبيرة من أسرى الحرب ،ومنهم الرقيق الصقلبي،والرومي والزنجي والتركي،وقد ببغداد شارع خاص يقال له : « شارع دار الرقيق » .وكانوا يؤلفون الغالبية الساحقة من طبقة الخدم وهم الجواري والرقيق ولم يكن ينظر إليهم نظرة امتهان ،فإن أغلب الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد (1).

6 ــ **أهل الذمة** :وهم اليهود والنصارى ،وكانوا يتمتعون بكثير من سياسة التسامح الديني ، ويقيمون شعائرهم في طمأنينة وأمان . وكان كثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون في الاحتفال بأعيادهم ، ويزورون أديرتهم في مناسباتهم ،و يغدقون عليهم الهبات و العطايا(2).

وقد كانت أديرتهم منتشرة في أنحاء الدولة الإسلامية ،وكانت غنية ببساتينها وحمورها . وكان أكثر الصباغين والصيارفة والدباغين يهودا بينما كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى(3).

وقد أشار الغزالي إلى كون معظم الأطباء من أهل الذمة ،ناقدا ذلك بقوله: « فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحدا يشتغل به ، ويتهاترون على الفقه ... والبلد متسحون من الفقهاء »(4).

ب ــ الظواهر الاجتماعية :

يمكننا انطلاقا من معرفتنا لبنية الاجتماعية وخصائصها استخلاص الظواهر الاجتماعية التالية :

1 ــ **انعدام الأمن** :وذلك بسبب الحروب الكثيرة التي اشتعل أوارها سواء بين السلاجقة والبويهيين،أو بين السلاجقة فيما بينهم،أو بين الفاطميين والعباسيين،زيادة على ظهور فرقة الحشاشين (5) في عهد ملكشاه تنشر الذعر

---

1 ــ ابن الجوزي،المنتظم،دار المعارف العثمانية،1359هـ،ج8،ص4

2 ــ حسن إبراهيم حسن،تاريخ الإسلام،ج4،ص627.

3 ــ أحمد أمين،ظهر الإسلام،ج1،ص82.

4 ــ أبو حامد الغزالي،إحياء علوم الدين،بيروت:دار المعرفة،1403هـ،ج1،ص21.

5 ــ لقب أطلق على الإسماعيليين أتباع الحسن بن الصباح وخلفائه وذلك لاشتهارهم بالفتك بخصومهم،واشتد نفوذهم بعد اغتيال نظام الملك ،قضى عليهم المغول وبعده الظاهر بيبرس ،انظر:كارل بروكلمان،تاريخ الشعوب الإسلامية،ص281.

في العالم الإسلامي سببا خطيرا(1).

وقد كان لهم دور كبير في اغتيال خصومهم من أهل السنة، سواء كانوا علماء أو سياسيين، بعد أن اعتصموا بقلعة ألموت الجبلية منجا لهم(2).

زيادة على ذلك الغارات الصليبية الكثيرة، والتشار قطاع الطرق في أكثر طرق التجارة براحج وغيرها، وقد أشار الغزالي إلى كل هذه الاضطرابات في قوله: "إن الزمان زمان فترة والدنيا طافحة بالمحن، لا يسكن فيها أوار حرب، لا تنفك عن الطعن والضرب(3).

2 ـ فقر العامة:

وقد كان يقضي على أعداد هائلة منهم، يذكر ابن كثير في حوادث سنة 440هـ أنه زاد الغلاء في بغداد والعراق حتى أكل الناس الميتة والكلاب وغيرها، وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانوا يجعلون الجماعة في حفرة الواحدة(4).

وكان ذلك سببا في ظهور العيارين وهم قوم من اللصوص كانوا يتخذون هم خاصا، وقد وصفهم الشاعر بقوله:

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطان ولا لنزار(5)

وقد ظهروا في أغلب المدن الإسلامية، وعظم شأنهم، وكثير ما كان لوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يتقاسمونهم ويسكتون عنهم(6)، وإلى جانب ذلك كان كثير من الخاصة يبالغون في الترف ويتنافسون فيه، فكان ـ وكمثال على ذلك ـ لسلطان السلجوقي ألب أرسلان ثلاثمائة وستون كسوة مكسبة ومنصة موزعة على عدد أيام السنة من الملابس الفاخرة، فيلبس لكل يوم ما يناسبه(7).

---

1 ـ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص281، 282.

2 ـ انظر تفاصيل ذلك في: د. مصطفى غلاب، الحسن بن الصباح شيخ الحشيشية، ط3، بيروت: دار الأندلس، 1970.

3 ـ أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، تحقيق عبد الرحمان بدوي، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1383هـ ـ 1964م، ص186.

4 ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص81.

5، 6 ـ نقلا عن: أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط5، بيروت: دار الكتاب العربي، ج2، ص32.

7 ـ العماد الأصفهاني، دولة آل سلجوق، ص34.

2 ــ **الخصومات المذهبية**:ولم تكن هذه الخصومات قاصرة على التنازع الديني كان قائما بين الشيعة وأهل السنة فحسب ،بل شمل ـ أيضا ـ أتباع المذاهب السنية أنفسهم ،فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة 447هـ فتنة وقعت بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد،وتبعهم من العامة الجم الفقير ،فقد أنكروا الجهر بـ « **بسم الله الرحمن الرحيم** »،ومنعوا من الترجيع في الآذان والقنوت في الفجر(1).

3 ــ **تفشي الجهل** :وخاصة عند أهل السواد والساكنين في الضواحي وبلاد العجم مما أوجد مرتعا خصبا للباطنية والزنادقة وغيرهم ،مما ساهم في نشر البدع والخرافة ،ومكن للمشعوذين ومن ذلك ما ذكر ابن كثير في حوادث سنة 400هـ أن رجلا ادعى النبوة بنواحي « هماوند » وسمى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الأربعة فاتبعه على ضلالته خلق من الجهلة والرعاع وباعوا أملاكهم ودفعوا أثمانها إليه ،ثم قتل بتلك الناحية (2).

ومصادفة مثل هذه الحوادث الدالة على غلبة الجهل وتفشيه بين العامة في كتب التاريخ لتلك الفترة كثيرة ،ولعل هذا ما يبرز لنا تلك الدعوة التي كثيرا ما يوجهها أبو حامد الغزالي إلى السلاطين في كتبه مثل قوله في « الإحياء »: « وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم ،فإن الخلق لا يولدون علماء، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع » (3).وهو ما يبرز لنا ـ أيضا ـ بروز « العلم » كركن أساسي في خطة الغزالي الإصلاحية.

4 ــ **المجون والخلاعة**:وقد تفشى المجون كثيرا،وأصبح عادة تذكر في مجالس الأدب والقضاء ذكرا عاديا ، وكأنه لا يتصل بجانب مستور في حياة المسلم (4) .

وإذا نحن اكتفينا بتصفح كتاب مثل « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهاني (ت502 هـ) ــ وهو كتاب يكاد يمثل ذلك العصر ــ برزت لنا هذه الظاهرة جلية واضحة.

و إلى جانب المجون كانت تنتشر جملة من التقاليد والظواهر الغريبة عن

---

1 ــ ابن الأثير ،الكامل في التاريخ ،ج8 ،ص72.

2 ــ ابن كثير ،البداية والنهاية،ج12 ،ص165.

3 ــ أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين ،ج4 ،ص51.

4 ــ د.عمر فروخ ،تاريخ الأدب العربي ،ج4،ص42.

الدين.ومعنها ـ كما تبين المصادر ـ نزوع الكثير من الناس إلى التدين و الزهد.فقد كان ذلك العصر مليئا بالمتناقضات عاجا بمظاهر ترقى إلى الذروة العليا من القيم الدينية والإنسانية ،ومنها ما يتدنى إلى أسفل سافلين كحال أكثر عصور البشرية ،تلك سنة الله في خلقه ﴿ **فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا** ﴾ (فاطر:43، 44).

3 ـ الحالة الفكرية:

أ ـ المؤسسات العلمية :

لقد اهتم السلاجقة والعباسيون بإنشاء المؤسسات العلمية ونشرها في ربوع ممالكهم الواسعة لصد التيارات السياسية الفكرية المعادية لهم ،ومن أهم تلك المؤسسات :

1 ـ **المساجد**: وكانت أعظم معاهد الثقافة ،يدرس فيها القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها ،وكانت المساجد قد انتشرت انتشارا واسعا ،وامتلأت بحلقات العلم حتى أنه أحصي في جامع القاهرة مائة وعشرون مجلسا للعلم وقت العشاء(1).

2 ـ **الرباطات** :وتسمى كذلك « الخوانق » ،وكانت تعنى بالعلم زيادة على العبادة ،وقد اتفق مترجمو الغزالي على أنه بنى في آخر حياته « خانقاها للصوفية»..كما بنى مدرسة للعلم.وقد كان لها دور كبير في نشر العلم زيادة على ما تنشره من قيم روحية ومعان إيمانية،وقد قال في ذلك الإمام السهروردي(2): « اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية ... وما يرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا والتخلف عن طريق سلفهم لا يقدح في أصل أمرهم وصحة طريقهم » (3).

ومن أشهر الرباطات رباط « أبي سعيد النيسابوري » (ت 477هـ) الذي باع جميع أملاكه وجاء إلى بغداد وكتب إلى الخليفة العباسي « القائم بأمر الله » يلتمس منه خرجة يبني فيه رباطا (4).

---

1 ـ نقلا عن :أحمد أمين ،ظهر الإسلام ،ج2،ص244.

2 ـ هو عمر بن محمد (ت632) ،فقيه شافعي ،شيخ الصوفية ببغداد ،عرف بتقواه ونسكه، انظر :الزركلي ، الأعلام ،ط7،بيروت:دار العلم للملايين ،1983،ج5 ،ص62.

3 ـ شهاب الدين السهروردي ،عوارف المعارف« ملحق الإحياء »،بيروت:دار المعرفة، ج5،ص84.

4 ـ ابن الجوزي ، المنتظم ،ج9،ص11.

3 ــ **المدارس** : وكانت كثيرة ،وأشهر من اهتم بها ،وبذل في إصلاحها وسعه الوزير « نظام الملك » الذي وقف عليها الأوقاف ،وأعطى المنح لطلبة الدارسين فيها ،وأغنى أساتذتها والمدرسين فيها ،وزودها بالمكتبات حتى ازدهرت،وكان لها دور كبير في نشر مذاهب أهل السنة وقمع البدع ،ولذلك نسبت إليه .

وأول مدرسة أسسها هي « نظامية بغداد » التي تم بناؤها سنة 458هـ،وقد وصف ذلك الحدث « العماد الأصفهاني » بقوله : « في هذه السنة استتم بناء المدرسة النظامية ببغداد ،وانتظمت أحوالها ،وسكنها من حمية الشريعة رجالها،ودرس فيها الشيخ « أبو اسحق الشيرازي » (1) ــ رحمه الله ــ فأحيا من العلم ما درس ،وكشف من الحق ما التبس » (2).

وهذه المدارس يرجع الفضل الكبير في تخريج كثير من العلماء ، وتأليف كثير من الكتب كمصنفات « أبي اسحق الشيرازي » و« الجويني »(3) و«الغزالي »،وغيرهم ... وذلك ما دعا جولد تسيهر إلى قوله : « و العصر الذي ازدهرت فيه هذه المؤسسات هو إذا عصر هام لا في تاريخ العلم فحسب ،بل أيضا في تاريخ العقيدة الإسلامية » (4) .

4 ــ **المكتبات** : وقد كانت كثيرة ملحقة بالمراكز العلمية كالمساجد والرباطات والمدارس وحتى المستشفيات .

ومن أشهر تلك المكتبات خزانة الكتب الملحقة بالمدرسة النظامية التي أنشأها الوزير « نظام الملك » في بغداد سنة 458هـ (5) ،وقد ذكر « ياقوت » بعض المكتبات « مرو » ووفرتها بالكتب ،فقال : « فإني فارقتها،وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة .. وكانت سهلة التناول لا

---

1 ــ أبو اسحق إبراهيم الفيروزأبادي الشيرازي،من كبارفقهاء الشافعية،ومن المجتهدين في المذهب،من كتبه:المهذب في الفروع،واللمع في الأصول ،وطبقات الفقهاء،توفي سنة 476هـ . انظر:ابن كثير،البداية والنهاية،ج12،ص597.

2 ــ العماد الأصفهاني ،دولة آل سلجوق ،ص35.

3 ــ هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (ت478هـ)،فقيه ومتكلم ، هاجر إلى الحجاز فعلم وأفتى فلذا دعي إمام الحرمين ، انظر : السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج1،ص164.

4 ــ جولدتسيهر ،العقيدة والشريعة ،تر :محمد يوسف موسى وآخرون،مصر : دار الكتب الحديثة ،ص121.

5 ــ العماد الأصفهاني،دولة آل سلجوق،ص35.

يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن ،تكون قيمة مائتي دينار،فكنت أرتع فيها،وأقتبس من فوائدها ،وأنسا لي حبها كل بلد ،وأغناني عن الأهل والولد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته ،فهو من تلك الخزائن » (1).

وقد ذكر العماد الأصفهاني أنه كان بالمستشفى العضدي ثلاثة خزائن من الكتب وثمانية وعشرين طبيبا (2).

هذه المؤسسات الأربعة كانت نواة أفكار كثيرة لا نزال إلى الآن نجني فوائدها. ونستنشق أريجها ، وكان لها دور كذلك في الرد على المبتدعة والمحرفين وتخليص المجتمع الإسلامي من كل ما يمكن أن يسيء إليه.

ب ــ التيارات الفكرية :

لقد بلغ الصراع الفكري في هذا العصر بين التيارات الإسلامية السنية وغيرها من التيارات أوجه،وقد أشار الغزالي إلى ذلك في قوله ــ عند الحديث عن بدء نشوئه ــ :« لا أغادر باطنيا إلا و أحب أن أطلع على بطانته ،ولا ظاهريا إلا و أريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فسفته ،ولا متكلما إلا و أجتهد في الإطلاع على كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ،ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته وتعطيله وزندقته » (3).

وهذا النص يبين مدى انتشار تلك الأفكار وتغلغلها في حياة العامة،وذلك يؤدي بالضرورة إلى أخطار عظيمة تهدد المجتمع الإسلامي.

وقد كان أخطر تلك الفرق وأكثرها انتشارا : « الباطنية »،وهم ــ كما يدل عليهم اسمهم ــ من يأخذون بالمعنى الباطن من الكتاب . ويجعلون لكل تنزيل تأويلا ،وقد أطلق المؤرخون اسم الباطنية على فرق عدة متباينة كان لها شأن سياسي هام ،وأهمها : الخرامية(4)، والقرامطة والإسماعيلية (5). وفي نفس

---

1 ــ ياقوت الحموي ،معجم البلدان ،ج5 ،ص11.

2 ــ العماد الأصفهاني ،دولة آل سلجوق ،ص35.

3 ــ الغزالي ،المنقذ من الضلال،ص25.

4 ــ الخرامية :اتباع بابك الخرمي الذي ظهر بنواحي أذربيجان ،واستباحوا المحرمات وقتلوا الكثير من المسلمين ،انظر :البغدادي ،الفرق بين الفرق ،ط1،بيروت:دار الآفاق الجديدة،1973،ص251 ــ 252.

5 ــ الإسماعيلية :هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ،انتحلوا مذاهب الباطنية،انظر :الشهرستاني ،الملل والنحل ، تحقيق:محمد سيد كيلاني،ط2،بيروت:دار المعرفة،1975،ج1 ،ص73.

الوقت أطلقت هذه التسمية على فرق غير إسلامية كـ « المزدكية » (1).

وقد كانت الباطنية بفرقها المختلفة خلاصة فلسفات مجوسية ويونانية ووثنية مصاغة في قالب ظاهره إسلامي (2)،وقد ذكر الغزالي الأساليب التي يمارسها الباطنية في نشر أفكارهم وشبههم،وهي مراتب يؤدي بعضها إلى بعض،ومن تلك المراتب:

ـ التفرس :ويعنون به قدرة الداعي على التلبيس ورد الظواهر إلى البواطن،وخبرته بالنفوس التي يريد تشكيكها.

ـ التأنيس:وهو تزيين ما عليه الإنسان من مذهبه في عينه ،ثم سؤاله بعد ذلك عن تأويل ما هو عليه.فإن استفسر المدعو عن ذلك أجابه الداعي بالرجوع إلى الإمام المعصوم.

ـ التشكيك:وهو أن يصل المدعو إلى اعتقاد أن المراد بالظواهر والسنن غير مقتضاها اللغوي الشرعي،ويهون عليه بذلك ارتكاب المحظورات وترك العبادات .

ـ الربط :وهو تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة ،فإما إن يقبل منهم تأويلها على وجه يؤول إلى رفعها ،وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها .

ـ التدليس :وهو قولهم للغر الجاهل بأصول النظر :إن الظواهر عذاب،وباطنها فيه الرحمة،ثم يذكرون له من تأويل ظواهرها ما يؤدي إلى رفعها(3).

ولعل هذا المنهج التشكيكي هو الذي ساهم في تنشيط التأليف والتدريس لعلم الكلام مما أبرز كثيرا من كبار المتكلمين.

وكان إلى جانب الباطنية «الفلاسفة»، والذي يبدو أن الفلسفة المنتشرة في ذلك الوقت هي فلسفة « المشائين » (4)قال الشهرستاني : « إن المتأخرين من

---

1 ـ هي نزعة إيرانية دعا لها مزدك ،اتبع في تعاليمه مانى .وأيد النزعة الثنوية.انظر:البغدادي الفرق بين الفرق ،ص251.

2 ـ أنور الجندي ،الإسلام وحركة التاريخ ،ص268.

3 ـ الغزالي، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، ص21 ـ 32.

4 ـ لقب أطلق على أصحاب أرسطو ،انظر:مراد وهبة ،المعجم الفلسفي،ط2،القاهرة:دار الثقافة الجديدة،1971،ص241.

من فلاسفة الإسلام قد سلكوا طريقة « أرسطوطاليس » (1) في جميع ما ذهب إليه، والتفرد به، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي « أفلاطون » (2) والمتقدمين » (3).

وهذا ما يبرر لنا ـ أيضا ـ المحاولات التي قام بها متكلمو الإسلام في الرد على الفلاسفة، كالباقلاني (4) في « التمهيد »، والجويني في « الإرشاد »، والبغدادي (5) في « أصول الدين »، والتي توجت بكتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة ».

وقد كان سلوك الخلافة العباسية والدولة السلجوقية في مقاومة هذه التيارات التي تهدد الإسلام يتمثل في إنشاء المراكز العلمية، واستعمال القوة، وقد ذكر ابن كثير المتبع التاريخي لذلك، فقال ـ في حوادث سنة 408 هـ ـ : « إن الخليفة القادر بالله (6) استتاب فقهاء المعتزلة، فأظهروا الرجوع، وتبرؤوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم بذلك »، ثم ذكر ما حصل في بلاد خراسان من قتل الرافضة (7) والقرامطة وصلبهم وحبسهم ونفيهم ولعنهم على المنابر، ثم قال : « وصار ذلك سنة في الإسلام » (8).

---

1 ـ أرسطو [384 ـ 322 ق.م] من كبار فلاسفة اليونان، تلميذ أفلاطون، جرت فلسفته في اتجاه مغاير لمثالية أفلاطون، من آثاره: الأرغانون، وكتاب السياسة، انظر منير البعلبكي، موسوعة المورد العربي، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1990، ج1، ص67 .

2 ـ أفلاطون [427ـ347 ق.م] من مشاهير فلاسفة اليونان، تلميذ سقراط، أساس فلسفته أن الحقيقة ليست في الظواهر العابرة وإنما في الأفكار السابقة لوجود الكائن، والتي هي مثال له، من مؤلفاته: الجمهورية، والمحاورات، والشرائع، انظر: المصدر السابق، ج1، ص107.

3 ـ أبو الفتح الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص50.

4 ـ هو أبو بكر محمد بن الطيب [ت403]، من كبار المتكلمين والأصوليين، كان مشهورا بمناظراته، ولذا أوفده عضد الدولة سفيرا إلى إمبراطور القسطنطينية، من مؤلفاته: إعجاز القرآن، والتمهيد، والملل، والنحل، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص269، 270.

5 ـ هو عبد القاهر بن طاهر البغدادي، فقيه شافعي له مشاركة في علوم كثيرة، من مؤلفاته: الفرق بين الفرق، والتكملة، والملل والنحل، توفي سنة 429هـ، انظر: السبكي، الطبقات الكبرى، ج5، ص136ـ148.

6 ـ هو أبو العباس أحمد بن إسحاق [336ـ422 هـ] من خلفاء بني العباس الذين عرفوا بالتدين والصلاح، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص473.

7، 8 ـ المصدر نفسه، ج12، ص6.

وإلى جانب ذلك دعمت الدولة السلجوقية ،وخاصة في عهد نظام الملك،تيارا من أنشط التيارات السنية في تلك الفترة وهو تيار الأشاعرة الذين كان لهم نشاط كبير في نصرة العقيدة الإسلامية والرد على المبتدعة والفرق الضالة .ومن أشهر متكلمي ذلك العصر « أبو علي الدقاق »(1) و« القشيري» (2) و« إمام الحرمين » و « المازري »(3).

وقد حصلت فتنة بينهم وبين الحنابلة في مفتتح سنة 445 هـ في نيسابور زمن تولي « طغرلبك » ،كان لها دور كبير في نشر مذهبهم .وذلك أن « طغرلبك »أراد أن يستظهر بأهل السنة المتشددين وتأييد ملكه ،فحدث أن بعض أهل السنة نسب إلى الأشعري(4) مذاهب ذميمة ،فرفع القشيري شكوى سماها « شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة » ،ثم أيدها ببيان وقع عليه جملة من العلماء .ومما ورد فيه . « ...اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ﷺ كان إماما من أئمة أصحاب الحديث تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ،ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدع،وكان على المعتزلة والروافض والمتبعين من أهل القبلة والخارجين على الملة سيفا مسلولا ومن طعن فيه ،أو قدح ،أو لعنه ،أو سبه ،فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة » (5).

هذه نبذة مختصرة عن التيارات الفكرية المتصارعة في ذلك العصر ،وقد تبين لنا من خلالها ،كما تبين لنا من الحالة السياسية والاجتماعية أن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر كان أحوج ما يكون إلى شخصيات تعيد له توازنه وتحفظ له أصالته .وكان من أبرز تلك الشخصيات شخصية أبي حامد الغزالي .

---

1 ــ هو الحسن بن محمد بن علي الدقاق ،المتكلم الصوفي ،أستاذ أبي القاسم القشيري .توفي سنة 406هـ .انظر:ابن العماد الحنبلي .شذرات الذهب .ج3 .ص180.

2 ــ هو أبو القاسم عبد الكريم القشيري،متكلم وصوفي مشهور ،توفي سنة 465هـ .انظر :إبراهيم بسيوني .الإمام القشيري .بيروت :المكتبة المصرية 1972،ص29 ــ43.

3 ــ هو أبو عبد الله محمد بن علي التميمي ،محدث ،من فقهاء المالكية ،توفي سنة536 هـ .انظر: زركلي .الأعلام .ط7 .بيروت : دار العلم للملايين1990،ج6 ،ص277.

4 ــ هو أبو الحسن علي الأشعري البصري [260 ــ 324 هـ] من كبار المتكلمين،مؤسس المذهب الأشعري كان معتزليا ،ثم جاهر بخلافهم.انظر: السبكي.الطبقات الكبرى.ج3،ص347ــ349.

5 ــ نقلا عن :د. عبد الرحمان بدوي ،مذاهب الإسلامي .ط3 .بيروت :دار العلم للملايين.1983.ج1.ص666.

ثانيا ــ حياة الغزالي

1 ــ مولــده :

اتفق المترجمون للغزالي على أن مولـــده كـــان ســـنة 450هـــ ،أمـــا مكـــان ولادتـــه، فـــهو مدينـــة «طـــوس »،وكـــانت ثـــاني مدينـــة في خراســـان بعـــد نيسابور،وكانت تتألف من مدينتـــين ،يقـــال لإحداهمـــا « الطـــابران » وبهـــا قـــبر الغزالي. والثانية « نوقان » وبها قبر« الإمام الرضـــا». و قـــبر «هـــارون الرشـــيد » إلى جواره .وقد كانت طوس في ذلك العـــهد مدينـــة كبـــيرة حســـنة المبـــاني كثـــيرة الأسواق شاملة الأرزاق عامرة الأمكنـــة رائعـــة الجـــهات بهـــا منـــابر (1). ولكـــن جحافل المغول دمرتها سنة 607هـــ تدميرا شنيعا . ولم يبـــق منـــها إلا بعـــض الآثـــار تشهد على ما كان فيها من حضارة وعمران ،وقد كان لطـــوس أكـــثر مـــن ألـــف قرية . ومنها قرية الغزالي المسماة بـــ « الغزالة »،وقد تخرج من هـــذه القـــرى مـــا لا يحصى من أئمة العلم والفقـــه (2).

2 ــ أســـرته :

لا تذكر لنا المصادر شيئا ذا بال عن أسرة الغزالي ،وجـــل مـــا هنـــاك أن أبـــاه كان فقيرا صالحا لا يأكل إلا من كسب يده في عمـــل غـــزل الصـــوف .ويطـــوف على المتفقهة.و يجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ،ويجـــدّ في الإحســـان إليـــهم .وأنـــه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرّع وســـأل اللّـــه تعـــالى أن يرزقـــه ابنـــا ،ويجعلـــه فقيها.ويحضر مجالس الوعظ .فإذا طاب وقته بكـــى ، وســـأل اللّـــه أن يرزقـــه ابنـــا واعظا.قال السبكي : « فاستجاب الله دعوتيـــه ،فأمّـــا أبـــو حـــامد فكـــان أفقـــه أقرانه... وأما أحمد فكان واعظا تلين الصخور الصمّ عنـــد ســـماع تحذيـــره .وترعـــد فرائص الحاضرين في مجالس تذكـــيره » (3).

---

1 ــ محمـــد الخســـيري ،الـــروض المعطـــار ،تحـــقيق إحســـان عبـــاس ،لبنـــان:دار القلـــم 1975،ص398.وتسمى اليوم مشهد ،وهي مدينـــة في أقصـــى الشـــمال الشـــرقي مـــن إيـــران ،عاصمـــة مقاطعة خراسان .تعد مركزا سياسيا ودينيا مرموقامشهد الإمام الرضا بها والذي يفـــد إليـــه الشـــيعة مـــن كل مكان.نقلا عن: د.محمد إبراهيم الفيومي،الإمام الغزالي وعلاقـــة اليقـــين بـــالعقل،القـــاهرة:دار الفكـــر العربي،ص215.

2 ــ ياقوت ،معجـــم البلـــدان ،ج4، ص49.

3 ــ السبكي ،الطبقـــات الكـــبرى ،ج4،ص102.

أما أصل أسرته، فالظاهر أنها فارسية ،إذ لو كانت عربية لانتسبت إلى القبيلة التي تنتمي إليها كعادة أهل ذلك العصر ،وخاصة من يقطنون بلاد العجم. ومع ذلك فقد كانت عربية اللسان كشأن معظم أهل خراسان في ذلك الوقت (1).

3 ــ مراحل حياته :

يمكن تقسيم حياة الغزالي إلى أربع مراحل هي :

أ ــ مرحلة الدراسة:

وتمتد هذه المرحلة إلى سنة 478هـ ، أي حتى توليه التدريس بنظامية بغداد، وقد بدأ تلقي العلم في بلده . والظاهر أنه كان ما يبدأ به المسلمون جميعا . في ذلك الوقت ،من حفظ القرآن الكريم . وتعلم للقراءة والكتابة ، وما يتبع ذلك من نحو وصرف ولغة.

وقد ذكر السبكي قصة بداية تلقيه العلم ،وهي أنه لما حضرت والده الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير ،وقال له: « إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط ،وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين.فعلمهما ،ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما خلفته لهما » .فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك التراث اليسير الذي خلفه لهما أبوهما.وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما ،فقال لهما : « اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ،وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي.فأواسيكما به .وأصبح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة ،فإنكما من طلبة العلم .فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما » .

قال السبكي : « وكان الغزالي يحكي هذا ، ويقول : « طلبنا العلم لغير الله.فأبى أن يكون إلا لله» (2).

ثم قرأ، وهو في صباه ،طرفا من الفقه ببلده على « أحمد بن محمد الراذكاني » (3).بعدها انتقل إلى « جرجان » (4).وقد تلقى الغزالي العلم فيها عن الشيخ « أبي نصر الإسماعيلي » (5).وعلق عنه « التعليقة »،ثم رجع إلى طوس.

---

1 ــ شمس الدين المقدسي.أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .(د.ط)(د.ت).ص334.

2،3 ــ السبكي .الطبقات الكبرى ،ج4،ص102.

4 ــ تقع بين طبرستان وخراسان.يقول عنها ياقوت:«...ليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان على مقدارها» ،انظر:ياقوت ،معجم البلدان .ج4،ص49.

5 ــ هو إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي الجرجاني ،ولد سنة407هـ .وتوفي سنة477هـ.انظر:السبكي. الطبقات الكبرى ، ج4 ،ص294.

ومن طوس انتقل إلى نيسابور(1) . وفيها التقى الغزالي بالشخصية التي كان لها تأثير كبير في حياته العقلية ،وهي شخصية إمام الحرمين، أبي المعالي الجويني، الذي قال عنه معاصروه: « إن ما يوجد في مصنفاته من العبارات قطرة من سيل كان يجريه لسانه على شفتيه عند المذاكرة ،وغرفة من بحر كان يفيض من فمه في مجلس المناظرة» (2).

وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة،وكان من بين هؤلاء ،بل أشدهم ملازمة « أبو حامد الغزالي » وقد بدت حينذاك ينابيع عبقريته تتفجر عن ذكاء شديد ،وفطرة عجيبة ، وإدراك مفرط،وحافظة قوية ،وغوص على المعاني الدقيقة، مما جعل إمام الحرمين يقول عنه: « الغزالي بحر مغدق »(3).

وقد جد واجتهد حتى برع في المذهب و الخلاف والجدل والأصلين والمنطق ،وشرع يصنف فيها ،ويقال : «إن الجويني لما رأى كتابه المسمى بـ « المنخول »،قال له : « دفنتني،وأنا حي ، هلا صبرت حتى أموت » (4).

وقد بقي الغزالي ملازما لشيخه إلى أن توفي سنة 478هـ ،وبذلك انتهى ما يمكن تسميته بمرحلة الدراسة ،ولو أن حياة الغزالي كانت كلها تعلما وتعليما.

ب ــ مرحلة المناظرة والتدريس :

وتبدأ من سنة 478هـ حين ارتحل الغزالي إلى المعسكر ــ وقد كان ميدانا فسيحا بجوار نيسابور أقام فيه « نظام الملك » عسكره ــ قاصدا « نظام الملك»،وقد كان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم ،وهناك ،وبحضرته ناظر الغزالي الأئمة والعلماء ،فظهر كلامه عليهم ؛ فاعترفوا بفضله ،وأقروا بنبوغه ، وكأن « نظام الملك » قد وجد فيه الشخصية التي يمكنها أن تسد الفراغ الذي تشكو منه مدرسته في بغداد ،فأمره بالتوجه إليها،وفوضه شؤونها ، فباشر إلقاء الدرس بها في جمادى الأولى سنة 484هـ (5).

---

1 ــ كانت من أشهر مدن خراسان وأجملها وأكثرها علماء حتى لقبت بعروس خراسان.انظر:الحميري،الروض المعطار،ص588.

2 ــ السبكي ، الطبقات الكبرى،ج5،ص103.

3 ــ المصدر نفسه،،ج5 ،ص103.

4 ــ ابن الجوزي ،المنتظم ،ج9،ص103.

4 ــ ابن خلكان ،وفيات الأعيان ،ج4 ،ص218.

5 ــ السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج4، ص107.

قال « عبد الغافر الفارسي » (1) ــ معاصر الغزالي ــ : « وهناك أعجب الكل تدريسه ومناظرته ،وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق » (2).

وقد عمت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة. وظل مقيما على التدريس ونشر العلم والفتيا والتصنيف أربع سنوات « تضرب به الأمثال ، وتشد إليه الرحال »(3).

و كان يحضر مجلسه الجلة من العلماء كابن عقيل(4) وأبي الخطاب (5) ،وينقلون كلامه في مصنفا تهم.(6)

واهتم في هذه المرحلة ــ زيادة على التدريس ــ بدراسة الفلسفة،فحصلها في أقل من سنتين ــ مع انشغاله بتدريس ما ينوف عن ثلاثمائة من طلبة العلم (7) ــ وكتب فيها،ثم رد عليها ،ورد على الباطنية ،وكتب في ذلك وغيره كتبا جمة .

ج ــ مرحلة العزلة :

وهي أدق مراحل حياته وأغناها وأهمها ،ولولاها ما كان لأبي حامد ذلك الدور الكبير الذي قام به في الإصلاح ،وقد بلغت مدتها إحدى عشرة سنة ابتداء من ذي القعدة سنة488 هـ إلى ذي القعدة سنة 499هـ ،كما نص على ذلك في « المنقذ من الضلال »(8).

---

1 ــ تعتبر ترجمة عبد الغافر الفارسي التي أودعها كتابه«السياق في تاريخ نيسابور » أول ترجمة للغزالي ،وهذا الكتاب ضائع ، والمنتقى منه نقله ابن عساكر في« تاريخ دمشق»،وعنه نقل السبكي وكل المترجمين (انظر: د.عبد الأمير الأعسم ،الفيلسوف الغزالي إعادة تقويم لنحتى تطوره الروحي ،ط2 ،بيروت :الأندلس ،1981،ص12).وتمتاز ترجمته ببيان موقف المعاصرين للغزالي منه،سواء المادحين أو القاعنين.

2،3 ــ السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج4،ص107.

4 ــ هو أبو الوفا علي بن عقيل بن محمد [431 ــ513هـ]،كان شيخ الحنابلة في بغداد،وكان واعظا عظيم التدين يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب ،انظر:ابن كثير،البداية والنهاية،ج11،ص677.

5 ــ هو محفوظ بن أحمد الكلوذاني،أحد أئمة الحنابلة في الأصول والفروع ،توفي سنة510هـ،انظر :الذهبي،تذكرة الحفاظ،ج4،ص69.

6 ــ ابن الجوزي ،المنتظم ،ج9 ،ص69.

7 ــ الغزالي ،المنقذ من الضلال ،ص93.

8 ــ المصدر نفسه ،ص140.

أما سببها فقد ذكره الغزالي ،في كتابه القيم « المنقذ من الضلال » وهو من أهم الوثائق المبينة لحياته الفكرية والروحية ،ولذلك سنتخذه المصدر الوحيد لمعرفة سبب هذه العزلة:

لقد مر الغزالي نتيجة لعقله الوقاد من جهة ،وللبيئة والعصر الذي عاش فيه من جهة أخرى إلى مرحلة شك استغرقت فترة ذات بال من حياته.

قال الغزالي — بعد أن ذكر اختلاف الفرق والملل — : « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ،وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة البحر العميق ،وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور »(1). وكان لذلك يتفحص عقيدة كل فرقة ،ويستكشف أسرار كل طائفة حتى انحلت عنه رابطة التقليد ،وانكسرت عليه العقائد الموروثة.وهنا بدأت مرحلة شك زجت به إلى السفسطة(2) بحكم الحال لا بحكم اللسان و المقال ،ولكن الله خلصه منها بنور الإيمان الذي قذفه في قلبه. لتبدأ مرحلة الشك الثانية.

قال الغزالي : «ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية »(3).

وقد بدأ بعلم الكلام فحصله ،وصنف فيه ،ولكنه وجده علما وافيا بمقصودهم غير واف بمقصوده ،فانتقل إلى الفلسفة فبحث فيها ،وسرعان ما بان له عوارها ،وظهر له أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ،ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات ،فرد عليها(4)،وانتقل إلى مذهب « الباطنية ،فوجدهم لا حاصل عندهم ،ولا طائل لكلامهم ،فرد عليهم(5).ثم أقبل بهمته على طريق « الصوفية » وقد بدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل

---

1 — الغزالي ، المنقذ من الضلال ،ص81.

2 — مأخوذة من اللفظ اليوناني[سفزما]،وتعني التمييز بالمهارة والحذق.ثم أخذت بعد ذلك تدل على القول المموه والقياس الخادع الذي يلتمس منه التلبيس على الناس والتغرير بهم.انظر:مراد وهبة،المعجم الفلسفي،ص11.

3 — الغزالي ،المنقذ من الضلال ،ص86.

4 — المصدر نفسه ،ص87.

5 — المصدر نفسه ،ص92.

« قوت القلوب » لأبي طالب المكي(1)،وكتب « الحارث المحاسبي» (2)،والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » (3)،و« الشبلي » (4)،و« البسطامي » (5) ،فظهر له أن أخص خصائصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ،بل بالذوق و الحال ،وتبدل الصفات (6) ثم قارن ما علمه بما هو فيه من جاه ،قال معبرا عن حاله في تلك الفترة: « وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى،وكف النفس عن الهوى ،وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ،وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل واللواحق » (7).

ولكنه يلاحظ أحواله فيجدها منغمسة في العلائق ،وقد أحدقت به من الجوانب ويلاحظ أعماله ،فإذا هو مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة . ويبحث في نيته فيجدها غير خالصة لوجه الله تعالى ،بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت.

ويصور لنا حاله في ذلك الحين بقوله :« فتيقنت أني على شفا جرف هار،وأني أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال » (8).

وبقي يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر

---

1 ــ هو محمد بن عطية الحارثي العجمي (ت386هـ) ،رجع الغزالي إلى كتابه«قوت القلوب »كثيرا في« الإحياء» انظر :ابن العماد ،شذرات الذهب ،ج3 ،ص210.

2 ــ هو الحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ) ،رجع الغزالي إلى كتبه ،وخاصة« الرعاية لحقوق الله » كثيرا في « الإحياء »،انظر :أبو نعيم ،حلية الأولياء ،ط1 ،القاهرة :مطبعة السعادة،ج10 ،ص74.

3 ــ هو أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت298هـ) أصله من نهاوند ،لقبه المتأخرون[سيد الطائفة].و[شيخ المشايخ].و[طاووس الفقراء]،انظر : أبو نعيم ،حلية الأولياء ،ج10 ،ص255.

4 ــ هو أبو بكر الشبلي (ت334هـ) صحب الجنيد ،وكان شيخ وقته علما وحالا وظرفا.وكانمالكي المذهب ،شديد التعظيم للشريعة،انظر :أبو نعيم ،حلية الأولياء ،ج10 ،ص366.

5 ــ هو طيفور بن عيسى (ت261هـ) من كبار الصوفية أصحاب الأحوال،انظر :أبو نعيم،حلية الأولياء ،ج10 ،ص33.

6 ــ الغزالي ،المنقذ من الضلال ،ص123.

7 ،8 ــ المصدر نفسه ،ص124.

وهو حينذاك يقدم رجلا ويؤخر أخرى إلى أن أقفل على لسانه وضعف عن التدريس.

لقد كان منادي الإيمان يناديه : « الرحيل الرحيل ،فلم يبق من العمر إلا القليل ،وبين يديك السفر الطويل ،وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ،فإن لم تستعد للآخرة الآن فمتى تستعد ؟وإن لم تقطع هذه العلائق،فمتى تقطع ؟ » (1).

وهنا ،ولما أحس بعجزه،وسقط بالكلية اختياره التجأ إلى الله تعالى ،فسهل عليه قبة العزلة.

هذا هو السبب الذي ذكره الغزالي ،ولا نرى فيه أي غرابة تجعلنا ننكره أو نحيد عنه ، فاعتزال أهل العلم أو السلطان عن الجاه و أسبابه طلبا للآخرة شيء عادي ،ونماذجه في تاريخنا كثيرة .

وقد ذكر الزبيدي سببا يؤيد ما ذكره الغزالي ،فقال : « رأيت في بعض المجامع أن سبب سياحته وزهده أنه كان يوما يعظ الناس ،فدخل عليه أحمد الأسود ،فأنشده:

أخذت بأعضادهم إذا ونوا	وخلفك الجهد إذا أسرعوا
وأصبحت تهدي ،ولا تهتدي	وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر الشحّ حتى متى	تسن الحديد ولا تقطع

قال : « فكان ذلك سببا في تركه علائق الدنيا » »(2).

ومع ذلك فقد اختلفت آراء الباحثين في سبب عزلته ،فمنهم من أعاد ذلك إلى مرض أصيب به، وقد فسره « ديورانت » على أنه إنهيار في قواد العقبية (3)،وفسره « د.عمر فروخ » على أنه « الكنط »(4)،ومنهم من أرجع ذلك إلى خطر الباطنية ،يقول صلاح الدين عبد اللطيف : « ولعل الباطنية أحرجت

---

1 ــ الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص124.

2 ــ الزبيدي ،إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين ،(د.ت .د.ط)،ج1 ،ص8.

3 ــ وول ديورنت ،قصة الحضارة ،ترجمة :د.زكي نجيب محمود ،القاهرة، 1950،مج4 ج2،ص363.

4 ــ هو مرض وراثي من أعراضه هبوط في القوى الجسمانية والعقلية ،ينتج اضطرابا نفسيا (انظر :د.عمر فروخ،رجوع الغزالي إلى اليقين [ضمن كتاب :مهرجان الغزالي،اشراف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب و العلوم الاجتماعية ،القاهرة: مطابع كوستاتومارس وشركاه] ص307ــ330.

موقفه فهددته ،ولوحت له بالحساب على ما فرط في حقهم في الثورة على الخلافة العباسية،وتفويض دعائمها ،فضاق به المقام في بغداد » (1).

وقد أشار الغزالي إلى أن معاصريه ــ أيضا ــ قد احتاروا في سبب عزلته « وارتبكوا في الاستنباطات ،وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب علي ، و إعراضي عنهم ،وعن الالتفات إلى قولهم ،فيقولون: « هذا أمر سماوي ،وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم »(2).

هذا عن سبب عزلته ، أما حاله فيها فيمكننا تقسيم عزلته بحسبه إلى مرحلتين :

ــ **العزلة الأولى** :ودامت ما يقرب السنتين لا شغل له فيها إلا العزلة والخلوة والرياضة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق (3) ،وكان يكثر الجلوس في زاوية الشيخ « نصر المقدسي » بالجامع الأموي ،والتي صارت تعرف بـ « الغزالية » (4) ،وكان يصعد أحيانا منارة المسجد الأموي،ويعتكف فيها ،ثم رحل منها إلى « بيت المقدس » يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه .(5)

وقد ذكر عبد الغافر الفارسي ــ حكاية عن الغزالي ــ حاله في تلك الخلوات ،فقال : « وحكى لنا في ليال كيفية أحواله ،وابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله » (6) . وكان من جملة ذلك :أنه ابتدأ بصحبة « الفارمذي » (7)،وامتثل ما كان يشير عليه من القيام بوظائف العبادات ،والإمعان في النوافل،واستدامة الأذكار ؛ثم ذكر أنه راجع العلوم وخاض في الفنون وعاود الجد في كتب العلوم الدقيقة ،واقتفى تأويلها حتى انفتحت له

---

1 ــ د.صلاح الدين عبد اللطيف الناهي ،الخوالد من آراء حجة الإسلام الغزالي . ط1 ،بيروت :دار الجيل، عمان :دار عمار 1407ه ، 1987م ،ص45.

2 ،3 ــ الغزالي ، المنقذ من الضلال ،ص126.

4 ــ السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص104.

5 ــ الغزالي ، المنقذ من الضلال ،ص126.

6 ــ السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص108.

7 ــ هو أبو علي الفارمذي الطوسي ،من أعيان تلامذة أبي القاسم القشيري ،توفي بطوس سنة 497هـ ،انظر :الزبيدي ،إتحاف السادة المتقين ،ج1 ،ص19.

أبوابها .ثم ذكر أنه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء . وحمله على الإعراض عما سواه حتى ارتاض كل الرياضة (1) . وقد ذكر الزبيدي للغزالي شيخا آخر في التربية ــ زيادة على ما ذكره عبد الغافر ــ هو يوسف النساج »(2) .

ــ **العزلة الثانية** :ودامت ما يقارب عشر سنوات .وتتميز عن الأولى بأنه لم يكن معتكفا فيها اعتكافا كليا ،وإنما هو يدرس أحيانا ويعظ .ويسيح في الأرض .ويخالط الناس ، ويسعى في مهمات أهله .ولكنه مع ذلك ينقطع أحيانا لخلوة(3) .

ولمترجمين له في هذه المرحلة زيادات على ما ذكره الغزالي . منها سفره إلى الإسكندرية .وعزمه على ركوب البحر للقاء « يوسف بن تاشفين » (4) لما بلغه من عدله، ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه موته (5) ،وهي رواية منحولة للأدلة التالية :

ــ أن الغزالي بعد أن ذكر رحيله إلى بيت المقدس ،ذكر بعده خروجه إلى الحجاز لزيارة مكة والمدينة .

ــ أن عبد الغافر الفارسي ،معاصر الغزالي ،لم يذكرها في ترجمته ،مع اهتمامه برحلاته وتفاصيلها .

ــ أن « يوسف بن تاشفين » توفي سنة500 هـ ،والرواية المذكورة تفترض أن الغزالي كان في الإسكندرية سنة500هـ ،مع أن جميع الروايات تؤكد أنه كان في تلك السنة في خراسان.

يقول الغزالي ــ بعد ما ذكر عزلته الأولى ــ : «ثم تحركت بي داعية فريضة الحج ،والاستمداد من بركات « مكة » و« المدينة » ،وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة « الخليل » ــ صلوات الله عليه ــ فسرت إلى الحجاز » (6).

---

1 ــ السبكي ،الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص108.

2 ــ الزبيدي ،إتحاف السادة المتقين ،ج1 ،ص19.

3 ــ الغزالي ،المنقذ من الضلال ،ص126.

4 ــ هو يوسف بن تاشفين المتوفى[410 ــ500هـ] أكبر ملثمين المرابطين،أسس مدينة مراكش ،أول من تلقب بأمير المسلمين،صاحب وقعة الزلاقة المشهورة.انظر:الزركلي، الأعلام،ج8،ص222.

5 ــ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج12 ،ص142.

6 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص126.

وبعدها سار عائدا إلى وطنه،وفي طريقه مر على بغداد ،ونزل برباط « أبي سعيد » إزاء « المدرسة النظامية »،وقد لقيه فيها « أبو بكر بن العربي » (1) الذي وصف حاله حينذاك بقوله: « ورد علينا الشمنمد [يعني الغزالي] فنزل برباط أبي سعيد بإزاء المدرسة النظامية معرضا عن الدنيا مقبلا على الله تعالى،فمشينا إليه ،وعرضنا أمنيتنا عليه ،وقلت له : « أنت ضالتنا التي كنا ننشد وإمامنا الذي به نسترشد،فلقينا لقاء المعرفة ،وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة » (2).

وقد ذكر ابن العربي أنه سمع منه في هذا اللقاء « إحياء علوم الدين » وهو يؤيد ما ذكره المترجمون من أن الغزالي صنف كتابه هذا ،وهو في الخلوة (3).

ومما روي عنه في هذه الفترة ،وجزم به المترجمون ،ما نقله ابن العماد عن أبي بكر بن العربي ،قال : « رأيت الغزالي في البرية ،وبيده عكازة ،وعليه مرقعة،وعلى عاتقه ركوة ،وقد كنت رأيته ببغداد يحضر دروسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم ،فدنوت منه ،فسلمت عليه،وقلت له : « يا إمام ،أليس التدريس ببغداد خيرا من هذا ؟ » ،فنظر إلي شزرا وقال :« لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة ،وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول:

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادتني الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى ،رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا دقيقا فلم أجد ... لغزلي نساجا ،فكسرت مغزلي(4)

وهي مع جمالها وشاعريتها لا يمكن قبولها ،فابن العربي لم يلق الغزالي إلا في سنة 490هـ ،كما نص على ذلك في « العواصم من القواصم » بقوله:« ولقد فاوضت فيها أبا حامد حين لقائي له بمدينة السلام في جمادى الآخرة سنة تسعين وأربعمائة » (5) ونص لقائه له يدل على أنه كان أول لقاء ،فكيف

---

1 ــ هو العلامة الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله الأشبيلي ،من كبار علماء المالكية، توفي سنة543هـ ،انظر :الذهبي ،تذكرة الحفاظ ،ج4 ،ص1294.

2 ــ نقلا عن :د. عمار طالبي ،آراء ابن بكر العربي الكلامية ،الجزائر: الشركةالوطنية للنشر والتوزيع ،ج1 ،ص53.

3 ــ ابن العربي ،العواصم من القواصم ،الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،ص30.

4 ــ ابن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة:مكتبة القدسي،1350هـ ،ج4 ،ص13.

5 ــ ابن العربي ،العواصم من القواصم ،ص30.

يكون قد رآه ببغداد قبل عزلتـــه؟

د ـــ مرحلة الدعوة والإفادة :

بعد إحدى عشر من العزلة قـــرر الغـــزالي أن يخـــرج منـــها ليتفـــرغ للعمـــل الإصلاحي ، وهو في تبريره لترك عزلته يكاد يصدر من نفـــس المنبـــع الـــذي دعـــاه قبل ذلك إليها ، وهو « الإيمان » .يقول عن ذلـــك: «فلمـــا رأيـــت أصنـــاف الخلـــق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ،و رأيت نفسي ملبـــة بكشـــف هـــذه الشبهة حتى كان فضح هؤلاء أيسر عنـــدي مـــن شـــربة مـــاء لكـــثرة خوضـــي في علومهم وطرقهم القدح في نفسي أن ذلك متعين في هـــذا الوقـــت محتـــوم » (1) .

وكما حصل له عند عزمه على العزلة من حيرته بـــين تلبيـــة دواعـــي إيمانـــه أو دواعي نفسه حتى اعتقل لسانه عن التدريس ،حصل له ـ هنا ـ عنـــد عزمـــه علـــى العودة بين دواعي إصلاح الخلق ،وهو متعين محتوم ،وبين بقائـــه علـــى عزلتـــه .

يقول ـــ مخاطبا نفسه،معبرا عن حاله في تلك الفترة ـــ : «فما تغنيك الخلـــوة و العزلة ،وقد عم الداء ،ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك » (2).

ولكنه يعود ،فيقول لنفسه : « مـــتى تشـــتغل أنـــت بكشـــف هـــذه الغمـــة ، ومصادفة هذه الظلمة ،والزمان زمان فـــترة ،والـــدور دور البـــاطل؟ولـــو اشـــتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاداك أهل الزمـــان بأجمعـــهم ،وأنى تقاومـــهم ؟، فكيف تعايشـــهم ؟ » (3).

ولكن خاطر الإيمان يجيبه ،فيقول :« لا ينبغـــي أن يكـــون بـــاعثك علـــى ملازمـــة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عـــن أذى الخلـــق ،والله تعـــالى يقول : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** ﴾ (العنكبوت :1، 2)(4).هذا هو المحرك الأصلي للغزالي لـــترك عزلتـــه ،وقـــد ذكـــره عبد الغافر الفارسي في ترجمته لـــه في قولـــه : « ثم ســـألناه عـــن كيفيـــة رغبتـــه في الخروج من بيته ،والرجوع إلى ما دعي إليه من أمـــر نيســـابور »،فقـــال ـــ معتـــذرا عنه ـــ : «ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعـــوة ومنفعـــة الطـــالبين بالإفـــادة ،وقد حق علي أن أبوح بالحق،وأنطق به ،وأدعـــو إليـــه .»(5) ،وأضيـــف إلى هـــذا أسباب أخرى كانت مساعدة على رجوعه للتدريس ذكرهـــا الغـــزالي منـــها :

---

1 ـــ الغزالي ، المنقذ مـــن الضـــلال ،ص138.

2،3،4 ـــ المصدر نفســـــه ،ص139.

5 ـــ السبكي ،الطبقـــات الكـــبرى ،ج4،ص109.

— ورود أمر إلزامي له من السلطان بالتدريس في المدرسة النظامية بنيسابور.

— مشاورته جماعة من « أرباب القلوب »،فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية .

— رؤى كثيرة متواترة من الصالحين تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس المائة الخامسة.(1)

وأهم أعمال الغزالي في هذه الفترة :

— تدريسه في المدرسة النظامية ،و لم تحدد لنا المصادر مدتها ،ولكن ذلك ربما يكون قد امتد من سنة 499هـ إلى سنة500هـ ،وبذلك تكون فترة تدريسه قصيرة قد لا تتجاوز بضعة أشهر.(2)

وقد قارن الغزالي بين تدريسه من قبل في نظامية بغداد ،وبين تدريسه في نظامية نيسابورقائلا : « وأنا أعلم أني إن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت،لأن الرجوع عود إلى ما كان ،وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ،وأدعو إليه بقولي وعملي ،وكان ذلك قصدي ونيتي ،وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ،ويعرف به سقوط رتبة الجاه » (3)،ويضيف: « هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي يعلم الله ذلك مني ».

— تأسيسه مدرسة للعلم وخانقاه للصوفية ،بعد ما لاحظ أن السياسة كانت تلقي بأوزارها على التعليم ،فبتغير الحاكم يتغير الأستاذ ،ويتغير البرنامج ،وتتغير مذاهب نفسها ،فهذه مصر كانت سنية إبان الحكم العباسي ،ولكنها في زمانه فاطمية تدين بالمذهب الإسماعيلي ،وتنشر في جميع أروقة مدارسها بدءا من الأزهر الشريف؛ فأراد أن يؤسس مدرسة لا يكون للحكام عليها سلطة ،فأسس مدرسته ،وأسس بجوارها الخانقاه ليجمع بين العلم والتربية .وقد ذكر ابن كثير أنه اتخذ في بلده طوس دارا حسنة،وغرس فيها بستانا أنيقا(4)،وقد كان لطلبته نعم القدوة ،فهو « موزع

---

1 — الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص140.

2 — ابن كثير، البداية والنهاية ،ج12،ص663.

3 — الغزالي ،المنقذ من الضلال ،ص141.

4 — ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج12 ،ص663.

أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم للقرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس ،بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه من الفائدة » (1).

وكانت خاتمة أمره ــ كما يذكر عبد الغافر الفارسي ــ: « إقباله على حديث المصطفى ﷺ ،ومجالسة أهله ،ومطالعة الصحيحين،وذلك لا يعني أنه لم يسمع الأحاديث قبل ذلك ،وإنما اشتغل بها في آخر عمره.وتفرغ لها » ،ويضيف عبد الغافر : «ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله » (2) .

4 ــ وفاته :

في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة 505هـ مضى إلى رحمة الله تعالى ،وقد نقل السبكي قصة وفاته قائلا : «قال أحمد أخو الإمام الغزالي :لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد ،وصلى وقال:علي بالكفن » ، فأخذه وقبله و وضعه على عينيه ،وقال : « سمعا وطاعة للدخول على الملك » ،ثم مد رجليه واستقبل القبلة ،ومات قبل الإسفار ــ قدس الله روحه ــ (3).

وروى ابن كثير أن سائلا سأله،وهو في حال الاحتضار،فقال:أوصني،فأجابه الغزالي:عليك بالإخلاص،ولم يزل يكررها حتى مات ــ رحمه الله ــ(4).

وقد رثاه الشعراء ،ومن أفضل المراثي مرثية « أبي المظفر الأبيوردي » التي يقول فيها :

بكى على حجة الإسلام حين ثوى ... من كل حي عظيم القدر أشرفه.

ومنها :

مضى ،وأعظم مفقود فجعت به ... من لا نظير له في الخلق يخلفه.(5)

رحم الله أبا حامد حجة الإسلام.

---

1 ،2ــ ابن خلكان ،وفيات الأعيان ،ج4 ،ص219.

3 ــ السبكي ، الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص105.

4 ــ ابن كثير،البداية والنهاية،ج12،ص663.

5 ــ السبكي ، الطبقات الكبرى ،ج4 ،ص105

الفصل الثاني

مفهوم الإصلاح الاجتماعي وضوابطه الشرعية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا ــ مفهوم الإصـــلاح الاجتمـــاعي

1 ــ تعريفـــه :

أ ــ **لغة** : الصلاح ،ضد الفساد،وأصلح الشيء بعـــد فســـاده أقامـــه،وأصلـــح الدابة أحسن إليها فصلحت،والصلح :السلم وتصالح القـــوم بينـــهم (1).

ب ــ اصطلاحا:انطلاقا من المفـــهوم اللغـــوي ،فـــإن الإصـــلاح الاجتمـــاعي يعني مناقضة الفساد الاجتماعي ،وإقامة مجتمع بديل عنه يبـــنى علـــى أســـس فكريـــة وعقدية ســـليمة ،تنشـــأ عنـــها ســـلوكيات صحيحـــة، تشـــمل جميـــع المظـــاهر الاجتماعيـــة(2).

ويختلف هذا المفهوم بين المصحـــين نتيجـــة للاختـــلاف في تحديـــد العنـــاصر الأساسية المكونة للإصلاح الاجتماعي ،وهي كمـــا يلـــي :

1 ــ الجـــهد الإصلاحـــي : هـــو الركـــن الأساســـي في كـــل عمـــل إصلاحي،ويرى الغزالي شموليته للنواحـــي التاليـــة:

أ ــ التعريـــف بالأحكـــام الشـــرعية :وهـــو تبيـــين تفـــاصيل الأحكـــام الشرعية،وكيفية التعامل معها ،والاستدلال لهـــا،والحكـــم والمقـــاصد المناطـــة بهـــا،و لذلك،فإن العلماء باختلاف مراتبهم من مفتـــين ووعـــاظ ومعلمـــين هـــم أول مـــن يتعلق بهم هذا النوع من الجهد الإصلاحي ،ولكنه مع ذلـــك يـــرى تعلقـــه بالعامـــة من الناس بحسب معارفهم الممكنة .يقول الغـــزالي : «كـــل عـــامي عـــرف شـــروط الصلاة فعليه أن يعرف غـــيره،وإلا فـــهو شـــريك في الإثم .ومعلـــوم أن الإنســـان لا يولد عالما بالشرع، وإنما يجب التبليغ علـــى أهـــل العلـــم » (3)،ثم يعطـــي قـــاعدة لذلك هي:« أن كل من تعلم مسألة واحدة ،فهو من أهل العلـــم بهـــا » (4).

ويبرر الغزالي ما ذكر من اختصاص هذا التكليف بالعلمـــاء بـــأن الإثم عليـــهم أشد ،والتبعة عليهم أعظم،وذلك لســـببين :

ــ أن قدرة العلماء في ذلك أظهر ،وهو بصناعتهم ألـــيق، فـــإن مـــن شـــروط التعريـــف العلـــم بتفـــاصيل المعـــرف ، وفي ذلـــك دقـــائق لا يقـــدر عليـــها إلا

1ــ ابن منظور ،لسان العرب ،بـــيروت : دار صـــادر، 1995 ،ج2، ص516 ،رقـــم:1758.

2 ــ انظـــر علـــى ســـبيل المثـــال: د.عبـــد الكـــريم زيـــدان،أصـــول الدعـــوة، البليـــدة:قصـــر الكتـــاب،1990،ص138.

3،4 ــ الغزالي، الإحيـــاء، ج2، ص342.

العلماء.وهذا فـ « العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجنيات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة .وأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يضيف به من الأفعال .ويفتقر إلى اجتهاد .فالعامي إذا خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه » (1). ولأجل هذا يدعو الغزالي إلى نشر العلوم المعلومة من الدين بالضرورة بين العامة .وتكوينهم فيها حتى تشتهر وتنتشر. باعتبارها لاعذر لأحد بجهلها.

ـ أن شأن الفقيه والعالم وحرفتهما تبليغ ما بلغهما عن رسول الله ﷺ.باعتبارهم ورثة الأنبياء .ويعبر الغزالي عن هذه الوظيفة بكونها **حرفة** .وشأن المحترف أن يبحث عن مظان اشتغاله بحرفته .يقول ـ معبرا عن دور الفقيه نحو هذه الحرفة ـ : « وليس للإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة .بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي .وكذا كل ما تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه .وهو قادر على تغييره . فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت .بل يلزمه الخروج .فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع ويقدر على البعض لزمه الخروج . وأما العامة والمحترفون فلو تركوا حرفهم واشتغلوا بالحسبة لبطلت المعايش » (2).

وهذا .فإن الغزالي يعتبر المدارس أهم المؤسسات الإصلاحية لكونها مراكز التعريف بالدين وأحكامه وتربية المصلحين عليه .فمن الإصلاح التعليمي ينطلق الإصلاح الاجتماعي في رأي الغزالي.

ب ـ استعمال الوسائل التأثيرية: كالوعظ والترغيب والترهيب والقصص ونحوها .والغزالي يعتبر كل ذلك من الجهد الإصلاحي .ولكنه يشتد على القصاصين الذين اتخذوا القص في النوادي والمساجد حرفة .ويعتبره بدعة.فقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاصين .وينقل في ذلك عن « الأعمش »(3) أنه دخل جامع البصرة .فرأى قاصا يقول: حدثنا الأعمش. فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه .فقال القاص :يا شيخ .ألا

---

1 ـ الغزالي، الإحياء ، ج2، ص320.

2 ـ المصدر نفسه،ج2،ص342.

3 ـ هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي ، من علماء التابعين ، حافظ ثقة . توفي سنة 148هـ.انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ،بيروت :دار الكتب العلمية،ج1، ص154.

تستح؟فقال: لم؟أنا في سنة .وأنت في كذب . أنا الأعمش وما حدثتك(1).

ويعلل النهي عن ذلك بأن من القصص ما ينفع سماعه ،ومنها ما يضر وإن كان صدقا.ومن فتح هذا الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار .ولذلك لا يرى بأسا إن كان القاص صادقا صحيح الرواية مبتعدا عن الحكايات التي تومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن إدراكها. فإن العامي يتمسك بذلك في مساهلاته وهفواته،ويمهد لنفسه عذرا فيه.ويحتج بأنه حكي فيه كذا وكذا .

ويذكر الغزالي بأن من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات.ويزعم أن قصده منها دعوة الخلق إلى الحق.وذلك من نزغات الشيطان .فإن في الصدق مندوحة عن الكذب،وفيما ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع في الوعظ (2).

وكذلك الأمر بالنسبة للوعاظ،فالغزالي ينفي عن معظم وعاظ زمانه وصف الإصلاح، باعتبارهم عدلوا عن الأسلوب الأمثل في الوعظ .فاشتغلوا بالطامات(3)والشطح(4)وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ضبا للإغراب.أو شغفوا بتسجيع الألفاظ وتلفيقها ،مع أن همة الواعظ ينبغي أن تكون مصروفة إلى « أن يدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الحرص إلى الزهد ، ومن البخل إلى السخاء ،ومن الغرور إلى التقوى »(5).

فالتأثير عند الغزالي يرتبط بمدى علمية وسيلة ذلك، فالحق وحده مهما كان ظاهره قاسيا أو جافا أو غير محبب إلى النفس هو الوسيلة الوحيدة

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج1،ص34.

2 ــ المصدر نفسه، ج1،ص35.

3 ــ عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى ، وهي من زلات المحققين ، انظر: الجرجاني، التعريفات،تحقيق محمد بن عبد الحكيم القاضي ،ط1،القاهرة:دار الكتاب المصري،بيروت:دار الكتاب اللبناني ،1411ه ــ 1991م ،ص139 ،رقم:952.

4 ــ يريد بها الغزالي معنى الشطح زيادة على صرف الألفاظ الشرعية عن معانيها المفهومة بغير دليل ولغير حاجة،انظر :الغزالي، الإحياء،ج1،ص37.

5 ــ الغزالي، رسالة أيها الولد [ضمن القصور العوالي] ،القاهرة: مكتبة الجندي ، ص140.

لتأثير.وهو يرينا مدى الخطأ الذي وقعت فيه كتب المواعظ والرقائق من اعتماد الأحاديث الموضوعة والقصص الطويلة الغريبة ،والكلمات المسمقة المسجوعة،ولم تسلم من ذلك بعض كتب الغزالي المنسوبة إليه أو المشكوك في نسبتها كالدرة الفاخرة ومنهاج العابدين وغيرهما،وهي من دلائل دسها عليه.

ولكن الغزالي مع ذلك يذكر أحيانا بعض القصص المستغربة التي أنكرها عليه بعض العلماء كابن الجوزي وابن القيم وغيرهما، وهي قليلة جدا مقارنة بما كانت تعج به كتب الرقائق ،ولعل ما دعا الغزالي إلى ذكرها هو محاولته اجتذاب العامة والبسطاء إلى كتبه،وهو معنى مقصود في كل كتبه.فلذلك نراه يكثر من الأمثلة والتكرار والإطناب.بل ويؤلف رسائل وكتبا يمكن اعتبارها بحسب مستواها مؤلفات شعبية.

وهو لأجل ذلك قد يروي أحيانا،وخاصة في غمرة تحقيقاته قصصا تدعو إلى الإنكار عليه ،ولكنه لا يلبث أن يعقب عليها بما يبين موضع الاستشهاد منها،ويحذر من عواقب الفهم السيئ لها.فقد حكى ـ مثلا ـ أن من الصالحين من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ،ثم عقب على ذلك بقوله:«فقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ،فلاينبغي أن يغرك ذلك المقام؛فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير ،بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ،وليس ذلك شرطا في التوكل»(1).

ومما يلفت النظر هنا أن الغزالي تجنب كثيرا ذكر قصص الكرامات وغيرها مما اهتم به المتأخرون وأفردوا له التصانيف ،وذلك باعتبار الكرامات قضايا فردية ليس لها حكم العموم ،وموضع الشاهد منها لا يعدو كونها دلائل على عناية الله بعباده،وتدبيره لأمر خلقه ،ولذلك اقتصر الغزالي على ذكرها في كتاب التوكل من الإحياء لاقتضاء المقام لذلك .

ومع ذلك كله فإن القصص لا تعبر بالضرورة عن رأي أوفكرة .فيتوجه النقد إلى الفكر من خلالها .كما فعل د.زكي مبارك في نقده للغزالي من خلال قصصه. لأن في كل قصة موضع استشهاد أواستئناس ،وقد يكون فيها ما يرفض،ومن هذا الباب روى ابن عباس وغيره من الصحابة الكثير من الإسرائيليات مع احتوائها أحيانا على مواضع استهجان ودلائل تحريف.

ج ـ **استعمال الشدة** :ويراد الغزالي جهدا إصلاحيا معتبرا إذا ما روعيت المراتب السابقة،يقول عن طريقة معالجته لأهل الشغب والمجادلين بعد تعريفهم

---

1 ـ الغزالي ،الإحياء،ج4،ص279ـ280.

الحق ودلالتهم عليه:« فإن لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه وجاجه وعناده عالجته بالحديد .فإن الله ﷻ جعل الحديد والميزان قريني الكتاب »(1).و يستدل لذلك بما عمله السلف الصالح.فقد سأل رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آيتين متشابهتين في القرآن الكريم.فعلاه بالدرة ،قال الغزالي : « وكذلك فعل السلف كلهم » (2).

ومع قول الغزالي بجواز استعمال الشدة لكل المكلفين إلا أنه يرى أن السلاطين أولى بذلك ،يقول عند بيانه لعلاقة العلماء بالسلاطين:« العلماء أطباء،والسلاطين قوام دار المرضى.فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليتصرف فيه كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ،ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس »(3).

وهذا النص يبين المقصد الذي يراد الغزالي من استعمال الشدة .فهي علاج للداء،لاعقاب لمريض؛وهو يرجح بذلك كون الحدود الشرعية زواجر عن الاثم وتطبيب للآثم،لاانتقام منه أو تشديد عليه.

هذه هي النواحي الثلاثة المكونة للجهد المثمر في نظر الغزالي.وهي بذلك تجمع كل الوسائل الإصلاحية الممكنة ،من كل أصناف الناس بدءا بالعامة وانتهاء بالعلماء والحكام.

2 ـ الأسس الفكرية والعقدية المكونة للمجتمع البديل: إن كل مجتمع لابد أن يقوم على أسس فكرية وعقدية تنبثق منها سلوكياته ومواقفه الاجتماعية ،وبحسب تلك الأسس يكون تصنيفه .فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع القائم على أساس العقيدة الإسلامية المنطلقة من المصادر الشرعية. والمتغلغلة في جميع الكيان الإنساني والاجتماعي.

و قد أصاب هذه العقيدة في نظر الغزالي الكثير من الانحرافات تحت تأثير الفرق الضالة ،وما نشأ في الرد عليها من جدل أبعد المجتمع عن الفهم الحقيقي لها ولمقاصدها .فأصبحت علما يدرس أو جدلا تعقد له المناظرات وتؤلف فيه المصنفات بدل أن تكون روحا تقلب الفرد والمجتمع وتبعث فيهما الحياة،ولذلك يرى الغزالي ضرورة جعل الإيمان أو العقيدة أو المعرفة منطلقا وغاية لكل عمل

2،1 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم ، تحقيق فيكتور شلحت ، ط2، بيروت:دار المشرق،ص90،91.

3 ـ الغزالي، الإحياء ، ج4،ص51.

إصلاحي .وإلا كان مجرد هدر لمجهد لا طائل من ورائه.

وقد اختار الغزالي التصوف بديلا لنطروحات العقدية القائمة في عصره.وذلك بعد حولا نه في الطوائف وبحثه في أسرار الفرق ومقاصدها (1)، لأن التصوف اهتم بالجانب التحققي والذوقي من العقيدة،وهو تصوف ـ كما سنرى ـ سني النزعة .يعتمد في طريق التصوف أو ثماره على المصادر الشرعية من الكتاب والسنة .وما كان عليه السلف الصالح معتبرا ذلك هو الركن الغائب الذي بسببه حل الفساد الاجتماعي .

فتصور الغزالي للأسس الفكرية سلفي من حيث رجوعه الدائم إلى المصادر الشرعية. وصوفي من حيث اهتمامه بالحياة الروحية، وعقلي من حيث تحكيمه الدائم للعقل واعتماده عليه في الاستنباط والبرهنة ونصرة الشريعة.وسنرى ذلك ببعض التفصيل في الفصل الثالث من هذا البحث.

3 ـ الظواهر السلوكية : وهي منبثقة من الأسس العقدية التي يبنى عليها المجتمع .وتختلف نظرات المصلحين في توجيه تلك الظواهر أو الاهتماء بها.وإن اتفقت في الأساس الفكري .والغزالي بنزعته الصوفية يرى وجوب الاهتمام بالأخلاق الباطنة باعتبارها ممدة للسلوكيات الظاهرة .فالخلق عنده « هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية »(2)،فلا يكفي تطهير ظاهر المجتمع دون الولوج إلى بواطن أفراده ونزع الصفات المهلكة التي قد تسبب خراب المجتمعات .كما وصف رسول الله ﷺ الشح .وهو مرض واحد من أمراض القلوب بأنه قد تسبب في هلاك أمم من الناس.يقول الرسول ﷺ:« **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.واتقوا الشح .فإن الشح أهلك من كان قبلكم .حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم** »(3).

ومع اهتماء الغزالي بالباطن تطهيرا أو تحقيقا دعا إلى إصلاح الظاهر كثمرة طيبة لقلب السليم أو طريقا للتحقق .أما إن كان مجردا عن الأخلاق الباطنية فهو رياء أو غرور.ولذلك ينتقد الغزالي الكثير من الظواهر الاجتماعية التي قد تبدو إيجابية .باعتبار أصحابها لا ينطلقون من نيات سليمة ، فـ « من المغترين من أرباب الأموال من يحرص

---

1 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص 81.

2 ـ الغزالي، الإحياء،ج3،ص53.

3 ـ مسلم ،الجامع الصحيح ،القاهرة:دار الكتاب المصري،بيروت:دار الكتاب اللبناني.[كتاب البر والصلة والآداب]،ج4،ص1996،رقم:4675.

على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ،ويكتبون أسامينهم بالآجر عليها ليخلد ذكرهم،ويبقى بعد الموت أثرهم » (1).ومن المغترين من ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه،وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة. وإذا باشر منكرا رد عليه غاضبا (2).

وهكذا يدخل الغزالي في صميم الظواهر الاجتماعية محللا نفسيات الناس مبينا منابع سلوكياتهم.فالإصلاح عنده هو البحث في الأعماق وتطهيرها وزرع الخصال الطيبة فيها.

انطلاقا من هذا فإن الإصلاح الاجتماعي يعني عند الغزالي: **بذل جميع الجهود الممكنة من كل أصناف الناس ،كل حسب طاقته وعلمه للقضاء على الفساد الاجتماعي ظاهره وباطنه.وإقامة مجتمع صالح قائم على عقيدة صحيحة وإيمان متين تنبثق عنه سلوكيات إيمانية طيبة كتلك السلوكيات التي كان عليه السلف الصالح الذين هم النموذج المثالي للمجتمع الإسلامي .**

وقد استعمل الغزالي مصطلح « **الإصلاح** » كثيرا في كتبه (3).وإلى جانبه استعمل مصطلحي « **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** » و « **الحسبة**».وسنرى ــ فيما يلي ــ علاقتهما بالإصلاح الاجتماعي.

2 ــ علاقته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و « الحسبة »:

أ ــ تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ــ لغة :

ــ **المعروف**: ضد النكر.وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه.وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس.ويعني كذلك النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس.ويأتي بمعنى الجود .وعرفه :طيبه وزينه.والتعريف التطيب من العرف،وقوله ﷻ: « **وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** » (محمد:6)أي زينها .وعرف طعامه :أكثر إدامه.والعرفان العلم،ورجل عروف وعروفة:عارف يعرف الأمور ولا ينكر أحدا رآه (1).

ــ **المنكر**:النكر والنكراء،الدهاء والفطنة.ورجل نكر من قوم مناكير :داه فطن.والإنكار:الجحود.والمناكرة:المحاربة.وناكره:قاتله،لأن كل واحد من

---

1 ــ الغزالي، الإحياء،ج3،ص407.

2 ــ المصدر نفسه،ج3،ص42.

3 ــ انظر :على سبيل المثال:الغزالي،الإحياء،ج3،ص396

4 ــ ابن منظور، لسان العرب ،ج9،ص236،رقم:5774

المتحاربين يناكر الآخر:أي يداهيه ويخادعه.ويقال فلان يناكر فلانا وبينهما مناكرة :أي معاداة.وأنكر الأصوات أقبح الأصوات .والنكرة:إنكارك الشيء وهو نقيض المعرفة.وأنكره:جهله.والمنكر من الأمر خلاف المعروف .وهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه .والتنكر:التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها منه .والنكير والإنكار :تغيير المنكر.(1)

_ **اصطلاحا** :المعروف والمنكر عامان كما هو متبادر،يتناول أولهما كل ما هو صلاح وخير ونفع من أخلاق وعادات وأعمال تعود فائدتها على الأفراد والمجموع معا .ليس فيها جنف ولا بغي ولا إفراط ولا تفريط،ويتناول الثاني كل ما هو متعارف على أنه شر وضار من أخلاق وعادات وأعمال يعود ضررها على الأفراد والمجموع معا.وهما بهذا يتناولان جميع مظاهر الحياة ما يتعلق منها بالدين .وما يتعلق منها بالدنيا.فهما من الكثرة كما يقول الغزالي: « بحيث لا مطمع في حصرها واستقصائها » (2).

ونشير إلى أن الجزء الذي خصه الغزالي في الإحياء و « الأربعين في أصول الدين » لدراسة النواحي الفقهية للإصلاح الاجتماعي أطلق عليه هذا الاصطلاح (3)،فالنواحي الفقهية عند الغزالي تمتزج بغيرها من النواحي النفسية أو الفلسفية أو الاجتماعية،ولذلك يمكن استنتاج الكثير من النظرات الإصلاحية في ثنايا تلك الدراسات .

2 _ **تعريف الحسبة:**

_ **لغة** : الحِسبة :مصدر احتسابك الأجر على الله ،تقول :فعلته حسبة.واحتسبت فيه احتسابا ؛والاحتساب :طلب الأجر ،والاسم الحسبة ،وهو الأجر. وتأتي مادة [حسب] بمعنى الكرم والشرف الثابت في الآباء أو في الفعل. والحَسَب:الفعل الصالح ،والحِسْب العد والإحصاء ،وقدر كل شيء كقولك :الأجر بحسْب ماعملت ،وحسْبك ذلك أي كفاك ذلك(4).

---

1 ــ ابن منظور، لسان العرب ،ج5،ص232 ،رقم:3288.

2 ــ الغزالي، الإحياء،ج2،ص335.

3 ــ انظر:الغزالي، الإحياء،ج2،ص306ــ357، والأربعين في أصول الدين،الجزائر:شركة الشهاب،65ــ68.

4 ــ ابن منظور، لسان العرب،ج1،ص310،رقم:341.

ـ **اصطلاحا** :هي نظام من أنظمة الدولة الإسلامية غرضه تخصيص دعاة لمهمتهم الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ،والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله (1)،وقد كان المحتسب عاملا من عمال الدولة له ولاية تسمى ولاية الحسبة،فما من السلطات ما ليس للقاضي نفسه .

فمحتسب من السلطة فيما يتعلق بالمنكرات الظاهرة ما ليس للقاضي،لأن الحسبة تقوم على الرهبة،فلا تجافيها الغلظة واتخاذ الأعوان ،أما القضاء فموضوع لإنصاف الناس ،واستماع البينات حتى يتبين المحق من المبطل ، فكان الملائم له الأناة والوقار والبعد عن الغلظة والخشونة والرهبة (2)،وقد امتدت واجبات المحتسب لتشمل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ لضعفاء والمحتاجين ،بالإضافة إلى منع المنكر الظاهر كتعاطي المسكرات والتجسس والغيبة وترك الصلاة والفطر في رمضان.

وللمحتسب الإشراف على أهل الحرف و التجار ليراقب التقصير والخيانة،وكذلك أصحاب الحرف كالأطباء والمعلمين ومنع أئمة المساجد من إطالة الصلاة ،ويمنع والي الحسبة وضع المقاعد في الأسواق على نحو يضر بالمارة(3).

بل إن للمحتسب أحيانا التدخل في التصرفات الشخصية البحتة والاستعانة بالقضاء لتنفيذ الأحكام الصالحة لذلك ، ويضرب الغزالي مثالا على ذلك بمن لا يملك إلا مائة دينار وله عيال ولا منفق عليهم سواه ،ومع ذلك يبالغ بالإنفاق في الولائم وغيرها ،فإن للمحتسب منعه ،وللقاضي الحجر عليه (4). وهنا نرى مدى التكامل القائم بين السلطتين الشرعيتين سلطة الحسبة وسلطة القضاء ،وهو ما يمنح المصلح سندا ماديا، زيادة على السند المعنوي المتمثل في الأجر الأخروي الذي يحتسبه عند الله ،والاحترام الذي يلقاه في المجتمع الإسلامي لشخصه ولوظيفته .

والغزالي يمنح هذه السلطة لكل من توفرت فيه الأهلية حتى ولو لم يكن معينا من طرف الولاة (5)،كما سنرى عند الحديث عن شروط القائم بالإصلاح.

---

1 ـ عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة ،ص174

2 ـ المصدر نفسه،ص120.

3ـ الغزالي، الإحياء،ج2،ص339.

4ـ المصدر نفسه،ج2،ص341.

5 ـ المصدر نفسه،ج2،ص315.

ج ـ العلاقة بين المصطلحات الثلاثـــة:

من خلال هذا العرض المختصر لكل مـــن هـــذه المصطلحـــات الثلاثـــة الـــتي استعملها الغزالي نرى تطابقها جميعا من حيث الهدف العام لكـــل منـــها(1)،خاصـــة إذا علمنا أن الغزالي لا يقصر ولاية المحتسب على إذن الســـلطة ،بـــل يجعلـــها حقـــا لكل مكلف (2)،ولو أن الغزالي يستعمل عـــادة **الأمـــر بـــالمعروف والنـــهي عـــن المنكر** والحسبة في الأمر بالمعروفات الظاهرة والنهي عن المنكـــرات الظـــاهرة ،أمـــا مصطلـــح الإصـــلاح فـــلا يســـتعمله إلا في الإصـــلاح الجـــذري التدريجـــي العميق،ولذلك اخترنا هذا الاصطـــلاح.

---

1 ـــ إذ جاز أن يكون هناك خلاف بين المصطلحات الثلاثة فـــهو لا يتعـــدى المعـــاني اللفظيـــة فـــا دون أن يكون له أثر في المصطلح عليه ،وذلك لأن لفظ « الإصـــلاح الاجتمـــاعي» يـــدل علـــى الغايـــة من العمل الإصلاحي ،وهو حصول الصلاح في المجتمع ، أما مصطلـــح « الأمـــر بـــالمعروف والنـــهي عـــن منكر» فيتعرض إلى تفاصيل الإصلاح المراد تنفيذه في المجتمع ،وأمـــا مصطلـــح « احتســـبة» فيتعـــرض إلى الغاية الشخصية للمحتسب من وراء عملـــه الإصلاحـــي.

2 ـــ الغزالي،الإحيـــاء ،ج2،ص315.

ثانيا :ضوابط الإصـــلاح الاجتمـــاعي .

إن أي إصلاح اجتماعي يستدعي بالضرورة توفر أربعة أركـــان هـــي: **القـــائم به وموضوعه والمخاطبون به ومراتبه المكونة لحقيقته**،وقـــد تحـــدث الغـــزالي عـــن هذه الأركان الأربعة محددا ضوابطها الشرعية .فأصالـــة الإصـــلاح عنـــده تقتضـــي ربـــط فروعـــه ومســـائله بالأحكـــام الفقهيـــة المســـتندة للأدلـــة الشـــرعية التفصيلية،ونلاحظ مسبقا كثرة تفريعات الغزالي في هذا الميدان .فـــهو كمـــا يقـــول أبو زهرة: « لو لم يشتهر بالحكمة والتصوف وعلم الكـــلام لاشـــتهر بالفقـــه .فـــإن الفقه كان الأمر الذي اتجه إليه في صدر حياته العلميـــة،ولم يتركـــه حـــتى في حيـــاة التصوف التي عاشها من بعد »(1).كما نلاحظ أيضـــا ربطـــها بـــالنواحي النفســـية والاجتماعية .وهذا ما يخرجها عن كونها مجرد فروع فقهية اتفـــق أو اختلـــف فيـــها الفقهاء.

1 ـ القائم بـــالإصلاح:

يفرق الغزالي بين الإصلاح العميق الجـــذري الـــذي يحتـــاج إلى علـــوم كثـــيرة وخبرة واسعة وإيمان عظيم ويعبر عن القائم به بـــ « **الشـــيخ المـــربي** » (2).ويشـــتد في شروطه. ويرى أنه أندر وأعز من الكبريت الأحمـــر (3)،وبـــين الإصـــلاح العـــام الذي يتناول الأمر بالمعروف الظاهر والنهي عـــن المنكـــر الظـــاهر،وهنـــا نلاحـــظ الغزالي يقول **بعموم الإصلاح** (4).وشموله لكل المكلفين به ،وهـــو ينطلـــق في رأيـــه ذلك من النصوص الشرعية الدالة علـــى التكليـــف بـــه ، كقولـــه ﷺ : « **مـــن رأى منكم منكـــرا فليغـــيره بيـــده ، فـــإن لم يســـتطع فبلســـانه ، فـــإن لم يســـتطع فبقلبه،وذلك أضعف الإيمان** » (5).فإن لفظ «مـــن » ـ كما يقـــرر الأصوليـــون ـ

---

1 ـــ محمد أبو زهرة ، الغزالي الفقيه [ضمـــن : مـــهرجان الغـــزالي]،ص 527 .

2 ـــ الغزالي ، الإحيـــاء ، ج3، ص64.

3ـــ الغزالي، رسالة أيها الولد [ضمن القصـــور العـــوالي] ، ص192.

4 ـــ العموم في أصول الفقه هو: شمول الحكم لكل فرد من أفـــراد الحقيقـــة ، والعـــام هـــو اللفـــظ الموضوع لمعنى كلي بشرط شمول الحكم لكل فرد من أفراد ه ، انظـــر : الغـــزالي، المستصفى مـــن علـــم الأصول ، ط2، بيروت: دار الكتـــب العلميـــة ، ج2،ص32ـــ34.

5 ـــ مسلم ، الجامع الصحيح ، [كتـــاب الإيمـــان] ، ج1،ص50، رقـــم:70.

من ألفاظ العموم (1).وذلك يقتضي الوجوب بكل حال،ولا يخصص العام إلا بدليل شرعي .يقول الغزالي: «وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال.ونحن إنما نستثني بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه» (2)

ولكن تلك المخصصات قد تجد مجالا رحبا للآراء المعطلة لذلك الوجوب.فلذلك لا يدخل في المخصصات عند الغزالي إلا ما ظهر ظهورا جليا.وكان دليله قويا .وذلك لا يكون إلا في أمرين :

_ **الإجماع**:وهو لقوته من المخصصات لكل العموميات باتفاق (3)، والغزالي ينقل الإجماع بالتخصيص لثلاثة شروط هي **الإسلام والعقل والبلوغ**.ولكنه مع ذلك يجيز للصبي المميز _ وإن لم يكن مكلفا _ إنكار المنكر ولو باليد .وإذا فعل ذلك نال به ثوابا .ولم يكن لأحد منعه من حيث أنه ليس بمكلف.وقد كان الغزالي في هذا الحكم مخيرا بين جعل الحسبة قربة محضة كالصلاة والإمامة.فلا يشترط فيها البلوغ لصحة الفعل .أو يجعلها ولاية كالقضاء والحكم بما للمحتسب من ولاية شرعية تخول له تغيير المنكر .فيشترط لها البلوغ .وقد اختار جعلها قربة لتغليبه المقصد الشرعي بعمومية الإصلاح . بل إنه يستحبها حتى ولو كانت ولاية، فإنها «تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته؛فإن للصبي أن يفعل ذلك حتى لا يستضر به» (4).ثم بين أصل قياسه بقوله:«فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر» .5

_ **القياس**:وذلك لأن الإصلاح حكم تعليلي مفهوم العلة؛والحكم _ كما يعبر الفقهاء _ يدور مع علته وجودا وعدما .ويعبر الغزالي عن علة الإصلاح

---

1 ــ الغزالي، المستصفى من علم الأصول ،ط2،بيروت:دار الكتب العلمية، ج2 ،ص61. وانظر : ابن جزي، تقريب الوصول إلى علم الأصول ، تحقيق محمد فركوس ، ط1 ،الجزائر : دار التراث الإسلامي ، 1410 ه ،ص75.

2 ــ الغزالي،الإحياء،ج2،ص320.

3 ــ يعتبر الغزالي الإجماع من أقوى الأدلة الشرعية ، فبه يعرف ثبوت النص وبه تحدد دلالته،ولذلك لا يجوز خلافه .انظر:الغزالي، المستصفى،ط2،ج1،ص198.

4 ،5ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص312.

بقوله:« إن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور ،فإذا علم اليأس عنه ،فلا فائدة فيه » (1).

انطلاقا من هذا ،يناقش الغزالي بعض الشروط التي انتشرت بين الناس وكان لها سهم في الحد من تعميم الإصلاح ،وتلك الشروط هي :

أ ـ العدالة:

وفي تعريفها خلاف بين الفقهاء ذكره الغزالي خلاصته أن الحنفية ذهبوا إلى أن العدالة عبارة عن إظهار الإسلام فقط مع سلامته عن كل فسق ظاهر ،فكل مسلم مجهول عندهم عدل ،أما الشافعية ،ومنهم الغزالي ،فقد ربطوا العدالة بخبرة باطنه ،ومعرفة سيرته وسريرته،والتأكد من سلامته من كل ما يحكم عليه بالفسق(2).

ولترجيح الغزالي قيمة كبرى من حيث التأكد من سلامة المعرفين بالدين من محدثين وفقهاء وغيرهم ،وعدم الانخداع بظاهر سلوكهم،يقول الغزالي: « إن المفتي المجهول الذي لايدرى أنه بلغ الاجتهاد أم لا،لايجوز للعامي قبول قوله،وكذلك إذا لم يدر أنه عالم أم لا » (3)

وهذا يدل على اشتراط الغزالي للعدالة في الجانب التعريفي من الإصلاح ،أما في غيره من الجوانب فإنه يرى جواز الإصلاح بل وجوبه، وينتقد توقف الكثير من الورعين أو ممن يتذرع بالورع عن الدعوة إلى الإصلاح بحجة عدم صلاح نفوسهم واستقامتها،مستدلين على ذلك كما يذكر الغزالي بما يلي:

ـ بعض النصوص الشرعية الدالة على قبح ذلك ،كقوله ﷻ: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ (البقرة:43)،وقوله تعالى: ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف:3)،ومما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:« **مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار،فقلت :ما هؤلاء؟قال:هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم** » (4).

ـ بقياس مفاده كما يذكر الغزالي: «أن هداية الغير فرع للاهتداء وكذلك

---

1 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص320.

2 ـ الغزالي،المستصفى،ج1ص157 .

3 ـ نفس المصدر،ج1،ص158.

4 ـ أحمد ، المسند ، بيروت : دار الفكر، ج3،ص313.

تقويم الغير فرع للاستقامة،والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح »(1).

_ استبشاع الطبع السليم لذلك وكراهيته له .

والغزالي يرد على هذه الاستدلالات معتبرا أنها مجرد توهمات ،ويرى أن للفاسق أن يحتسب.ويستدل لذلك بما يلي :

_ أن اشتراط العدالة حسم لباب الاحتساب،فلا عصمة للصحابة فضلا عمن دونهم ،ولا يخلو إنسان من ذنب إلا من عصمه الله،وقد تنبه السلف الصالح إلى خطورة اشتراط ذلك فقال سعيد بن جبير(2) : « إن لم يأمر بالمعروف،ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء »(3).

_ أن تلك النصوص التي استدلوا بها تنكر عليهم من حيث تركهم للعمل بالمعروف لا من حيث أمرهم به ،لأن أمرهم به يدل على قوة علمهم،وعقاب العالم أشد.لأنه لا عذر له مع قوة علمه (4).

_ أن القول بترتب إصلاح الغير على صلاح النفس تحكم ،وذلك لأن الشرع ،وهو المرجع في ذلك،لم يرتب أحدهما على الآخر كما رتب كثيرا من التكاليف على بعضها.

_ أن استنكار الطبع لذلك واستشناعه له غير معتبر،وذلك لأن الحق قد يكون شنيعا.وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطبع،والمتبع هو الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات ،يقول الغزالي مستغربا :« من الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر » (5).

_ أنه لا يبعد عقلا ولا عادة ،كما لم يبعد شرعا أن يفعل الإنسان منكرا ثم ينهى غيره عنه حرصا عليه ،واحتسابا لله في ذلك ؛وينقل الغزالي هنا صورة عن حال هذا النوع من الناس بقوله:« بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشرب؛ويقول يجب علي الانتهاء والنهي ،فمن أين يلزمني من العصيان بأحدهما أن أعصي الله تعالى بالثاني؟وإذا كان النهي واجبا علي فمن أين يسقط وجوبه بإقدامي ؟ »(6).

---

1 ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص320.

2 ــ هو أبو عبد الله ،من كبار علماء التابعين وصالحيهم ،له حكم ومواقف كثيرة ،منها موقفه البطولي مع الحجاج ،استشهد سنة94هـ،انظر:ابن الجوزي،صفة الصفوة،بيروت:دار الخير،ج2،ص50.

3 ــ الغزالي، الإحياء،ج2،314.

4،5،6 ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص320.

ومع ترجيح الغزالي لعدم اشتراط العدالة في الإصلاح إلا أنه يقر أن لها تأثيرا في بعض أنواعه ،ومن ثم يكون لاشتراطها وجه مقبول ،وذلك لأن النهي قد يكون بالموعظة أو بالقهر ،وبما أن الفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه وبالتالي عدم تأثير وعظه ،فليس عليه الحسبة في ذلك لعدم جدواها .

أما النهي بالقهر والتغيير باليد للقادر عليه فإن ذلك لا يسقط عنه وجوب الحسبة ،ويستدل الغزالي على ذلك بقياس الحسبة على الجهاد « إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ،ولم يمنعوا من الغزو لا في عصر رسول الله ﷺ ولا بعده »(1).ووجه قياسه هذا اعتباره الجهاد نفسه حسبة بالنهي عن الكفر.

وهذا من الغزالي غاية الإنصاف ،فإن تصدر الفاسق للوعظ والدعوة مهدر لقيمتها،ومضعف لأثرها ،ولكن ذلك لا يعني الاستغناء عنه فهو مسلم ،وفي استطاعته أن ينصر الدين بماله من إمكانيات ،وقد قال ﷺ : « **إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر** »(2).

ب _ إذن السلطة :

وقد كان هذا الشرط من أهم الأسباب التي جعلت فريضة الإصلاح قصرا على فئة معينة ،مع أن المحتسب المعين من طرف الوالي أثناء قيام الخلافة الإسلامية لم يكن إلا جزءا من أدوات الإصلاح ،وقد كان بجانب هذا المحتسب من أطلق عليه اسم « **المتطوع** »،وهو كل من يقوم بالإصلاح من غير إذن الوالي (3).

والغزالي يرد اعتبار هذا الشرط ويرى فساده لأنه ينافي قوله بعمومية الإصلاح،ويستدل على فساده بما يلي :

_ أن تخصيص العموم الوارد في النصوص الشرعية بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له ،فليس في النصوص ما يدل على ذلك،ولا تخصيص بدون مخصص .أما اعتقاد أن المخصص هنا هو كون الحسبة ولاية ،وهي لا تثبت لأحد داخل الدولة إلا بتعيين من حاكمها ،فيرى الغزالي فساده لأن « آحاد المسلمين يستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ،وما فيه من عز السلطنة

1ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص313.

2 ـ البخاري، الجامع الصحيح ،المطبعة السلطانية،[كتاب التفسير] ،ج6،ص179،رقم3062،و مسلم،[كتاب الإيمان]،ج1،ص105،رقم:178.

3 ـ عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ،ص180.

والاحتكام لا يخرج إلى تفويض كعز التعليم والتعريف » (1)،وذلك لأنه لا خلاف في أن تعريف الأحكام الشرعية لمن يجهلها لا يحتاج إلى إذن الوالي،مع أن في ذلك عز الإرشاد ،وعلى المعرف ذل التجهيل.

ـ أن الوالي نفسه يحتاج إلى الحسبة فكيف ينتظر تفويضه ؟،وذلك لأن موقف الحاكم من تلك الحسبة إما أن يكون رضا أو سخطا ،فإن كان راضيا فذاك، وإن كان ساخطا له، فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فيه.فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه؟(2).

ـ وورود الروايات الكثير عن السلف الصالح في الحسبة على الولاة مما يقطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض ،وقد جمع الغزالي الكثير من تلك الروايات ،وضمنها « كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من «إحياء علوم الدين» ،وله فيها مصنف آخر سماه « **مقامات العلماء بين أيدي الخلفاء والأمراء** » .

هذه بعض الأدلة التي يستند إليها الغزالي في قوله بعدم اشتراط إذن السلطة للإصلاح،ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا هو :ما دامت الحسبة ذات مراتب كثيرة،وفي بعضها ما قد يؤدي إلى الفتنة إن لم يكن هناك إذن من السلطة ، فهل يحتسب في ذلك أيضا من غير إذن ؟

وجواب الغزالي عن هذا السؤال دليل على سعة أفقه ، وتقديمه للمصلحة المنجرة عن الإصلاح على كل مصلحة،فهو يرى بأن المحتسب لا يحتاج إلى الإذن في جميع مراتب الإصلاح ،سواء كانت بالوعظ أو القهر أو التخويف والتهديد ،أو حتى بمباشرة الضرب له حتى يمتنع العاصي عما هو عليه (3)،ولكن كل ذلك مرتبط بمدى علمه بنجاعة حسبته وتأثيرها مع عدم حصول مفسدة أكبر من المفسدة التي يريد إزالتها، بل إن الغزالي يقرر اجتهادا رائدا بقوله بجواز الاستعانة على إزالة المنكر ،يقول في « الإحياء » :«لا يحتاج إلى الإذن ـ وهو الأقيس ـ لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف ،وأوائل درجاته تجر إلى ثوان ،والثواني إلى ثوالث،وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب،والتضارب يدعو إلى التعاون ،فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف،ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا

1،2 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص315.

3 ـ الغزالي، الإحياء،ج2،ص315.

الله ودفع معاصيه »(1)،ثم يعطي قاعدة تبين مذهبه في كل ذلك ،وهي : «كل من قدر على دفع منكر ،فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه»(2).

ج ـ القدرة:

لقد اعتبرت الشريعة القدرة أو الاستطاعة شرطا في أداء الكثير من الأحكام الشرعية إما بنصوص خاصة ،أو بحجج عامة كقوله تعالى : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا** ﴾ (البقرة:286)،وقوله تعالى:﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ (البقرة:195)،والغزالي يرى أن الناس قد حملوا هذه النصوص ما لا تحتمل وخاصة في مجال الحسبة ،حتى أن البعض قد يكره كلمة تسيء إليه .فيظن أن ذلك كاف لسكوته عن المنكر (3)،ولذلك يقسم العجز إلى ثلاثة أنواع:

1 ـ **العجز الحسي** : وهو أن تعتري المكلف آفة تمنعه عن الإصلاح باليد أو باللسان أو بالانتقال إلى محل الفساد لإصلاحه ،وذلك يسقط عنه وجوب الحسبة ،وعليه تفسر الآيات ، ولكنه يبقى مطالبا بحسبة القلب ، وهي تغيره عند رؤية المنكر ، وينقل الغزالي في ذلك عن ابن مسعود ﷺ قوله : « جاهدوا الكفار بأيديكم ، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا »(4).

2 ـ **خوف المكروه** :وله عند الغزالي ضابطان :

ـ طريق العلم به :وذلك إما أن يكون عن تحقق أو عن شك وتوهم ، و الغزالي يشترط أن يكون ناتجا عن علم أو ظن غالب ، ولا يكفي فيه مجرد الشك أو التوهم .

ـ تحديد المكروه :ويرى أن التعويل فيه على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج ، أما من فسد مزاجه ،وخرج عن حد الاعتدال ، فلا عبرة بتحديده ؛ فإن الجبان ضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ،ويرتاع منه ، والمتهور يبعد وقوع المكروه بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل وكلاهما نقصان ، « وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة »(5)، أما ما يعتبره الكثير من الناس أذية مثل الغيبة والسب ونحوها، فإن الغزالي يقول في

1،2 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص333.

3 ـ المصدر نفسه ،ج2،ص321.

4 ـ المصدر نفسه ، ج2، ص319.

5 ـ المصدر نفسه ،ج2،ص323.

ذلك:« لو تركت الحسبة بموم لاثم ، أو باغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا» (1). ثم يعقب على ذلك بقاعدته في عموم الحسبة ، وهي : « وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة ، وعظم الخطر في السكوت عنها ؛ فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره ؛ والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها . فأما مزايا الجاه ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له»(2).

وهذا كله إن كان المكروه متعلقا به ،أما إن كان عارضا لغيره فنهو دفع منكر يفضي إلى منكر آخر . وهو لا يجوز ، فيسقط عنه الوجوب لذلك .

3 ــ **العجز عن التأثير** : والغزالي يعتبره ،مستدلا بأن مقصد الشارع من الأمر بالصلاح هو حصول الصلاح ؛ فإن تيقن المصلح عدم جدوى إصلاحه رخص له في السكوت (3).

ويظهر أن مراد الغزالي بحصول المقاصد لا يعني حصولها في الحين . فإن ذلك لا يمكن كل حين ، وقد قص الله ﷻ علينا في القرآن الكريم دعوات الأنبياء ــ عليهم السلام ــ و إلحاحهم مع صدود أقوامهم و تكبرهم .

بعد هذا البيان لأقسام العجز ،وحكم كل قسم ؛فإنه يحصل من اعتبار القسمين الأخيرين أربعة أحوال:

ــ أن يجتمع كلا القسمين ،بأن يعلم أنه لا ينفع تغييره،ومع ذلك يناله مكروه.وهذا لا تجب عليه الحسبة عند الغزالي ، بل تحرم في بعض المواضع ،لأنه زج بنفسه إلى التهلكة في غير مصلحة شرعية.

ومع ذلك، فإن الغزالي يرى أنه يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ،لأن في ذلك تكثيرا لسواد العاصين وربما جره الحضور إلى الانغماس في المعصية،ويرى كذلك أنه لا تجب عليه الهجرة إلى موضع آخر إلا إذا كان يرهق إلى الفساد،أو يحمل على مساعدة الظلمة من الحكام وغيرهم،وحينذاك تلزمه الهجرة إن قدر عليها،فإن الإكراه لا يكون عذرا لحق من يقدر على الهروب منه (4).

ــ أن ينتفي كلا المعنيين ،بأن يعلم بأنه يمكن أن يؤثر في إزالة المنكر بقوله

1ــ المصدر نفسه ،ج2،ص323.

4،3،2 ــ المصدر نفسه ، ج2 ،ص319.

أو بفعله ،ومع ذلك لا يناله مكروه،وهذه هي « القدرة المطلقة » (1) كما يعبر الغزالي ،ولا عذر لصاحبها في ترك الحسبة .

ـ أن يعلم أنه لا يفيد بحسبته ولا يستطيع التأثير في المنكر بالإزالة ،ومع ذلك لا يخاف مكروها ، وهذا لا تجب عليه الحسبة لعدم جدواها ،ولكنها تستحب لـ « إظهار شعائر الإسلام،وتذكير الناس بأمر الدين » (2).

ـ أن يعلم أنه يصاب بمكروه نتيجة احتسابه ولكن المنكر يبطل بفعله،وهو بذلك متردد بين عدم الوجوب لأن المكلف هنا في حكم العاجز،وعدم الحرمة لأن حسبته قربة،والغزالي يرى نتيجة لذلك أنه مستحب بدليل ما ورد في فضل قول كلمة الحق عند السلطان الجائر(3)، فهي قد لا تؤثر في إصلاح السلطان،ومع ذلك قد ينتج عنها أذية كبيرة للداعية،فكيف إذا أيقن تأثير إصلاحه ،فإن الإستحباب حينئذ يشتد .

2 ـ المخاطبون بالإصلاح

يرى الغزالي هنا ـ أيضا ـ اتساع مجال الأفراد الذين يشملهم خطاب الإصلاح،فلا يشترط فيهم التكليف(4) ،بل يرى مجرد كونهم بشرا يكفي لأن يحتسب عليهم لأن المنكر أعم من المعصية،يقول الغزالي: « وقد عدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا [لفظ المنكر]لأن المنكر أعم من المعصية،إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق الخمر ويمنعه » (5).

وليس الغرض من ذلك هو صفاء صورة المجتمع الإسلامي الظاهرة فقط،وإنما تربية المجتمع الإسلامي بجميع أفراده على الغيرة من أن تنتهك محارم الله ﷻ فيه حتى ولو كان ذلك من صبي لم يكلف أو مجنون لا يعقل،يقول الغزالي: « وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس ،بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه » (6)،وفي هذا الإنكار احترام لإنسانية

2،1 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،319.

3 ـ الترمذي،السنن، ط1،بيروت:دار الكتب العلمية،[كتاب الفتن]،رقم 2100.

4 ـ شروط التكليف التي نص عليها الفقهاء هي:العقل والبلوغ وحضور الذهن وعدم الإكراه والإسلام أوبلوغ الدعوة ،انظر:الغزالي،المستصفى،ج1،ص83 وما بعدها.

5 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص327.

6 ـ المصدر نفسه، ج2، ص324.

الصبي والمجنون،وصيانة له من التدنس بالمعصية ،ولو لم يكن مكلفا (1).

وما دام الشرط الوحيد للمحتسب عليه هو « الإنسانية » فإن الإصلاح يشمل كل أفراد المجتمع بدءا بالأقارب وانتهاء بأعلى جهاز في الدولة.يقول الغزالي مبينا شمولية الإصلاح في هذا الجانب : « فتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد ،والعبد على المولى،والزوجة على الزوج ،والتلميذ على الأستاذ ،والرعية على الوالي ...كما تثبت للوالد على الولد،والسيد على العبد،والزوج على الزوجة ،والأستاذ على التلميذ،والسلطان على الرعية » (2).

والفرق الوحيد بين حسبة الأدنى على الأعلى،وحسبة الأعلى على الأدنى هو في مراعاة مراتب النهي حفظا للحرمات،وإعطاء للولايات الشرعية حقها من الاحترام .فللولد أن ينكر على والده،ولكن في المرتبتين الأوليين فقط:التعريف، ثم النصح باللطف،وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد أو بمباشرة الضرب،ونفس الأمر ينطبق على الزوجة مع زوجها أو العبد مع سيده،فهما قريبان من الولد في الولاية (3)،وذلك لأن مقصد الشارع هو حفظ قيام بناء المجتمع على ما هو عليه،فإذا ما أدى إنكار المنكر أو الأمر بالمعروف إلى هدم هذا البناء وجب السكوت ؛لأن المضرة المنجرة عن الإنكار أكبر من المصلحة المتوقعة منه.

والأمر بالنسبة للولاة أشد،فليس للرعية معهم في رأي الغزالي إلا التعريف والنصح ،ويبرر ذلك بقوله : « ...من حيث أن الهجوم على أخذ الأموال من خزانته وردها إلى الملاك،وكسر آنية الخمور في بيته ،يكاد يفضي إلى خرق هيبته،وإسقاط حشمته،وذلك محظور ورد النهي عنه ،كما ورد النهي عن السكوت عن المنكر » (4)،زيادة على أن ذلك قد يفضي إلى أذية كبيرة للمنكر،والشرع قد جعله في حل حين يتعرض لذلك،أما الإنكار باللسان فواجب على العلماء لا مندوحة عنه،وقد روي من إنكار الغزالي على أمراء

---

1 ــ المصدر نفسه، ج2،ص328.

2 ــ المصدر نفسه، ج2، ص317 ،318 [بتصرف].

3 ــ المصدر نفسه،ج2،ص318.

4 ــ الغزالي،الإحياء،ج2،ص318، والغزالي يشير هنا إلى قوله ﷺ : « **من أهان سلطان الله في أرضه أهانه الله** » رواه الترمذي عن أبي بكرة ،وقال :حديث حسن غريب،انظر:الترمذي،السنن،[كتاب الفتن]،رقم:2150.و أحمد ،المسند، [مسند البصريين]،رقم:19538 ،و19591

عصره وحكامه الشيء الكثير ،ومن ذلك كتابه « التبر المسبوك في نصيحةالملوك »الذي ألفه بالفارسية للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي،ويعتبر من الكتب الرائدة في الفقه الدستوري مما يكسب الغزالي مع كتبه السياسية الأخرى لقب «الفيلسوف السياسي »(1)،وقد بين في هذا الكتاب عشرة من أصول العدل والإنصاف تتضمن كثيرا من النظريات في السياسة الشرعية(2).

ولا بد من التنبيه هنا إلى قضيتين يركز عليهما الغزالي كثيرا في كتبه هما:

أ ــ **وجوب التنقل للمخاطبين**: فالمصلح ليس مدرسا ينتظر مجيء تلاميذه،وإنما هو داعية يبحث عن مجال لدعوته وإصلاحه ،يقول الغزالي : «وليس للإنسان أن يقعد في بيته ،ولا يخرج للمسجد لأنه لا يرى الناس لا يحسنون الصلاة،بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي ،وكذا كل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام ،أو في وقت بعينه،وهو قادر على تغييره ،فلا يجوز أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت، بل يلزمه الخروج،فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع ويقدر على البعض لزمه الخروج » (3)،وذلك اقتداء بالأنبياء ــ عليهم السلام ــ، فإنهم ما تركوا الناس على جهلهم ،بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء،ويطلبون واحدا واحدا ويرشدونهم (4)،فقد كان ﷺ يأتي مجالس قريش ،ويدعوهم ويخرج إلى القبائل في منازلها ،ويدعوها ،ولو استدعى ذلك الرحلة أو السير لمسافات الطويلة(5).

ب ــ **انتهاج الأساليب المناسبة لكل صنف من الناس**: وذلك لأن البشر مختلفو المشارب والتصورات،و مختلفو الطبائع والعادات،ولذلك ،فإن « على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ،وتوسم الأحوال اللائقة ليكون انشغاله بالمهم،فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة ،والاشتغال بوعظه فيما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان » (6)،ولأجل هذا الاختلاف نجد الغزالي في جميع كتبه يهتم بالبحث عن طوائف

---

1 ــ د. محمد عبد المعز نصر ، فلسفة السياسة عند الغزالي،[ضمن مهرجان الغزالي]،ص 428.

2 ــ الغزالي،الإحياء، ج2،ص342.

3،4 ــ المصدر نفسه،ج3،ص45.

5 ــ انظر: ابن هشام ، السيرة النبوية،القاهرة:مطبعة بولاق، ج2 ،ص31،32.

6 ــ الغزالي،الإحياء، ج4،ص55.

الناس ومواقفهم حول كل قضية من القضايا ليعطي بعد ذلك العلاج الذي يراه مناسبا لكل طائفة.ففي « معراج السالكين »،مثلا يجعل عدد الناطقين بكلمة الشهادة سبع فرق ،ولكل فرقة ما تسامى به(1).وفي « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » يذكر مقامين للحديث عن المتشابهات ،ولكل مقام حكمه اللائق به(2).وفي « الاقتصاد في الاعتقاد » قسم الناس باعتبار اعتقادهم لبحق إلى أربعة فرق ،ولكل فرقة سياستها النافعة لها (3).وهكذا في جميع كتبه ورسائله.

والذي يهمنا هنا هو تبيين أصناف الناس بحسب أسلوب إصلاح المنارس لهم .وقد ذكر الغزالي ذلك ببعض التفصيل في « القسطاس المستقيم » حين سأله رفيق التعليم عن أصناف الخلق وكيفية علاجهم .فذكر أنهم ثلاثة : **عوام** ، وهم أهل السلامة ، **وخواص** هم أهل البصيرة وخواص الذكاء ، ويتولد بينهم طائفة هم « **أهل الجدل** والشغب »(4).وتكاد معظم التقسيمات الأخرى التي ذكرها الغزالي ترجع إلى هذه الأصناف ، وهو يستند في هذا التقسيم إلى قوله تعالى: « **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** » (النحل :125)قال الغزالي: « فأدعو هؤلاء [العوام] بالموعظة،وأهل البصيرة بالحكمة .وأدعو أهل الشغب بالمجادلة »(5).وسنرى هنا طريقة تعامل الغزالي مع هذه الأصناف:

ـ **العوام**:و يعرفهم الغزالي بأنهم أصحاب السلامة الذين ليست لهم فطنة لفهم الحقائق.ولو كانت لهم هذه الفطنة ليس لهم معها داعية الطلب لأن الحرف والصناعات شغلتهم عن ذلك.وليس فيهم أيضا داعية الجدل.

والأفضل لهم في رأيه هو الاشتغال بالحرف والصناعات عن البحث في المتشابه من أصول الدين أو المختلف فيه من فروعه،وذلك لأنهم بالسؤال متعرضون لما لا يطيقونه ،وخائضون فيما ليسوا أهلا له (6).ويبين علة هذا الوجوب بـ « أن العامي لا يخلو من سؤال عالم أو جاهل .فإن سأل جاهلا زاده جوابه جهلا ،بل ربما ورطه في الكفر من حيث لا يشعر ،وإن سأل عالما

---

1 ـ الغزالي، معراج السالكين [ضمن الرسائل الفرائد].ص222.

2 ـ الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة [ضمن القصور العوالي]، ص160.

3 ـ الغزالي، الإقتصاد في الاعتقاد ، تحقيق عادل العوا ،ط1،بيروت:دار الأمانة،1388هـ،ص75،76.

4،5 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص85.

6 ـ الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام ،ص63.

عجز عن تفهيمه .وذلك لأنه صرف عمره لغير العلم ،فكيف يكون أهلا للخوض فيه؟ .
(1) .و انطلاقا من هذا يعطي الغزالي قاعدة لا تزال تتردد وهي " كل كبيرة تجري على العامي أهون من أن يخوض في العلم، فيكفر من حيث لا يدري "(2).ومن خلالها يحدد إطارا لدعوة العوام وتعليمهم يقيهم غوائل الخوض فيما لا يطيقون،وذلك في أصول الدين وفروعه .

أما في **أصول الدين** ،فليس على العامي أن يعتقد إلا ما في القرآن الكريم من أن ثمة واحد حي عالم خبير سميع بصير غفار ليس كمثله شيء ،إلى جميع ما ورد في القرآن الكريم ،والسنة الشريفة،واتفقت عليه الأمة .فذلك كاف في صحة الدين ." وأما إن خطر له متشابه،فليس عليه إلا أن يقول : آمنا بالله،كل من عند ربنا" (3)، فإن أخذ هذا العامي يجادل في هذه الصفات ،أي يثير الشبه نحوها كأن يقول:علمت أن الله عالم ،ولكن لا أدري هل هو عالم بالذات،أم بعلم زائد عليه؟ .أو أخذ يتكلم في صفات الله تعالى ،فقد خرج عن كونه عاميا والتحق بأهل الجدل ،وفهم علاجهم الخاص بهم .

أما في **فروع الدين** ،فينهى الغزالي أن يخاض مع العامة في الخلاف الوارد فيها ،لأن في المتفق عليه غنية ،وقد اتفقت الأمة على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع ،وأن الكسب الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام ، وأن الفرائض كلها واجبة .فلذلك يقتصر معهم على تعليم العبادات و الأمانة في الصناعات التي هم بصددها.وتملأ قلوبهم بالرغبة والرهبة دون أن تحرك في نفوسهم شبهة(4)، فإن طالب بالمختلف فيه قبل أداء المتفق عليه فهو جدلي وليس بعامي .

وأما إن فرغ من حدود التقوى ،وأشكلت عليه بعض الخلافات الفقهية فإن الغزالي ينصحه بالأخذ بالأحوط ،لأن جميع المذاهب تشترك في القول به(5).فإن ثقل عليه ،أو لم يمكن الجمع،فإن الغزالي ينصحه أن يجتهد مع نفسه.فينظر أي الأئمة أفضل عنده ،أو صوابه أغلب على قلبه.فيلتزم مذهبه.كما يلتزم كل شخص الطبيب الذي يثق فيه أو يراه مناسبا له(6) .

وما ذكره الغزالي وغيره ،بل كاد يجمع عليه المتأخرون من ضرورة التزام العوام ومن هو في حكمهم المذاهب الفقهية المعتبرة حل لكل الإشكالات

3.2.1 ــ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص86.

4ــ الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام ،ص53.

6.5 ــ الغزالي،القسطاس المستقيم،ص87.

الفقهية التي تعترضهم وتنظيم لمجتمع الإسلامي وتوحيد له،فإنه لو فتح باب الاجتهاد للعوام،أو لكل من يشم في نفسه رائحة العلم من غير تمكن منه جر ذلك إلى خطر عظيم على الفقه الإسلامي ،بل الشريعة الإسلامية نفسها.

ـ **الخواص** :وهم عند الغزالي من اجتمعت فيهم القريحة النافذة والفطنة القوية،وحجر باطنهم عن التقليد والتعصب ،مع الثقة في المصلح فلا هداية إلا بعد إمام، ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكن أن يتعلم منك » (1).والغزالي يدعو إلى التعامل مع هؤلاء بالحكمة ،وهي عنده وصف للعلم اللدني (2)الذي هو هبة من الله تعالى ،قال ﷻ: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ،وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ (البقرة:269).يقول الغزالي: « وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني ،وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيما،لأن الحكمة من مواهب الله تعالى » (3).

ويحرم الغزالي أن توضع هذه الحكمة في غير أهلها،وذلك لعدم قدرتهم على فهمها.وقد سمى كتبه ورسائله الحاوية على ذلك بـ : «المضنون به على غير أهله »(4).وقد أشار إلى هذه الرسائل في كثير من كتبه وهي أن توضع بين أيدي العامة،فإنه « تكل عنه أكثر الأفهام ،ويستضر به الضعفاء،بل لا يصلح إظهاره إلا لمن أتقن علم الظاهر ،وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس وطرق المجاهدة.فاستقامت نفسه على سواء السبيل. فلم يبق له حظ في الدنيا.ولم يبق له طلب إلا الحق ،ورزق مع ذلك فطنة وقادة وقريحة

---

1 ـ الغزالي.القسطاس المستقيم.ص85.

2 ـ استعمل الصوفية ،ومن بينهم الغزالي هذا المصطلح من قوله عن الخضر ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا** ﴾ (الكهف : 65) ،فهم يعتبرون الخضر ـ عليه السلام ـ غير موحى إليه ،وإنما حصلت له تلك العلوم بالتعليم الرباني .انظر: الغزالي.الرسالة اللدنية ،ص117.

3 ـ الغزالي، الرسالة اللدنية [ضمن القصور العوالي].ص 118.

4 ـ بقيت مجموعة من هذه الرسائل ،ولكن الكثير من الباحثين يشككون في صحة نسبتها إلى الغزالي لاحتوائها على بعض المسائل التي أنكرها أو رد عليها كالقول بقدم العالم ،ونفي العلم القديم بالجزئيات.وقد أشار إلى ذلك ابن الصلاح وأيده السبكي[انظر:السبكي.الطبقات الكبرى.ج4،ص132] .ولكن الرسائل التي بين أيدينا والمسماة « المضنون به على غير أهله » لاتحتوي على أي إشارة لذلك. بل تتحدث عن الربوبية والملائكة والروح والمعجزات وغيرها.[انظر:الغزالي، المضنون به على غير أهله .[ضمن القصور العوالي].ص302 ـ362.]

منقادة وذكاء بليغا وفهما صافيا »(1)،ويضيف قائلا : « وحرام على من يقـــع ذلـــك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات »(2).

ويستند الغزالي لذلك بالأخبار والآثـــار الكثـــيرة ،كقـــول عيســـى ـــ عليـــه السلام ـــ :« لا تعلقوا الجواهـــر في أعنـــاق الخنـــازير ،فـــإن الحكمـــة خـــير مـــن الجوهر ،ومن كرهها فهو شر من الخنازير »(3)،وسئل بعـــض العلمـــاء عـــن شـــيء فلم يجب فقال السائل:أما سمعت رسول الله ﷺ قـــال :« **مـــن كتـــم علمـــا نافعـــا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار** »(4)،فقال : اتـــرك اللجـــام واذهـــب ،فـــإن جاء من يفقه وكتمتـــه فلينجمـــني ، فقـــد قـــال الله ﷻ :﴿ **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** ﴾ (النساء:5) تنبيها على أن حفـــظ العلـــم ممـــن يفســـده ويضـــره أولى » (5).وينبه الغزالي إلى أن هذه الحكمة أو الحقائق والأسرار الـــتي يحـــرم منـــها غـــير أهلها لا تناقض الظاهر « فمـــن قـــال:إن الحقيقـــة تخـــالف الشـــريعة ،أو الباطن يناقض الظاهر ،فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمـــان »(6)،ولكـــن ســـر إخفائـــه أو منعها غير مستحقيها يرجع عنده إلى ســـببين:

ـــ **سبب ذاتي** يرجع إلى دقة بعـــض العلـــوم الحكميـــة بحيـــث تكـــل أكـــثر الأفهام عن إدراكها ، ويســـتحيل مـــع ذلـــك تبســـيطها ،أو أن تبســـيطها يزيـــل نضارتها وبهاءها ،فيختـــص بإدراكـــها الخـــواص حديـــدو الذكـــاء ،شـــفافو الأرواح.وهذا لم يذكر رسول الله ﷺ مـــن صفـــات الله ﷻ إلا مـــا ظـــهر ظـــهورا جليا للأفهام،ولو ذكر ما ليس للخلق مما يناســـبه بعـــض المناســـبة لم يفـــهموه(7). وكان في مخاطبته يفرق بين مستويات النـــاس في ذلـــك.

ـــ **سبب مصلحي** وهو لا يعـــود إلى دقـــة المعلـــوم أو صعوبـــة فهمـــه ،فـــهو مفهوم في نفسه، لكن ذكره يضر بالعامة، ومن هو في حكمـــهم،كما يضـــر نـــور الشمس أبصار الخفافيش.ويضرب الغزالي مثلا لذلك بـــالحديث عـــن القـــدر فإنـــه لو أفشي لأوهم عند أكثر الخلق عجزا ،إذ تقصـــر أفهامـــهم عـــن إدراك مـــا يزيـــل

1،2 ـــ الغزالي، جواهر القـــرآن ،ص43.

3 ـــ الغزالي، الإحيـــاء،ج1،ص58.

4 ـــ ابـــن ماجـــة ،السنن،القـــاهرة:دار الكتـــاب المصـــري،بيـــروت:دار الكتـــاب لبناني،[مقدمة]،ج1،ص93 ،رقـــم:261.

5 ـــ الغزالي، الإحيـــاء،ج1،ص58.

6، 7 ـــ المصدر نفســـه،ج1،ص100.

ذلك أوهم عليهم(1).

ـ **المجادلون**:وهم عند الغزالي أحد اثنين: « إما من فيهم قطانة ظاهرة ترقوا بها عن العوام ولكنها ناقصة ،أو كانت في الفطرة كاملة ،ولكن باطنهم متشحون بالخبث والعناد والتعصب والتقليد »(2).

ووجود مثل هذا الصنف خطر على المجتمع باعتبارهم مصدر الشبهات والأباطيل المنتشرة فيه ،وهم أيضا مطلب لدعاة السوء ، يتخذونهم مطية لمحاربة الحق ،أو إشاعة الفساد ،ولذلك ينصح الغزالي معاملتهم بما يلي :

ـ **المجادلة الحسنة**:ويعني بها الغزالي أخذ الأصول التي يسلم بها المجادل ،واستنتاج الحق منها،مع الإبتعاد عن اللجاجة والمراء والجدال المنهي عنه(3) .

وفي هذا التعريف تفريق دقيق بين الجدل الذي نص عليه القرآن الكريم،وبين المراء المنهي عنه في النصوص الكثيرة،وقد ذكر الغزالي مستنده في هذا التعريف وهو إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع خصمه الكافر،يقول الغزالي: «وليته كانت له أسوة حسنة بإبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ حيث حاج خصمه،فقال : « **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** » (البقرة:257)،فلما رأى أن ذلك لا يناسبه ،وليس حسنا عنده عدل إلى الأوفق بطبعه والأقرب لفهمه،فقال: « **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** » (البقرة:257) » (4).

والمجادلة الحسنة تحتاج إلى مران طويل وصبر عظيم،وقد جعل الغزالي كتابه « القسطاس المستقيم »نموذجا لها ،فقد جاء على شكل حوار بينه وبين رجل من الباطنية ،وقد استهله بقوله : « إخواني،هل فيكم من يعيرني سمعه لأحدثه بشيء من أسراري ؟فقد استقبلني رفيق من رفقاء أهل التعليم **وغافصني** (5) بالسؤال والجدال مغافصة من يتحدى باليد البيضاء والحجة الغراء » (6)،ثم

---

1 ـ الغزالي، الإحياء، ج1،ص101.

2 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص90.

3 ـ المصدر نفسه،ص89،90.

4 ـ المصدر نفسه،ص42.

5 ـ المغافصة: هي الأخذ على غرة ،انظر:ابن منظور،لسان العرب،ج7،ص61،رقم:4424.

6 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم،ص41.

ذكر الحوار الذي دار بينهما ،والذي شمل الكتاب جميعا .

والذي يدل على أن قصد الغزالي ليس الرد على « التعليمية فحسب،وإنما ذكر نموذج للمجادلة الحسنة قوله في آخر الكتاب : « وهاكم ـ إخواني ـ قصتي مع رفيقي ،تلوتها **بعجرها وبجرها**(1)لتقضوا منها العجب،وتنتفعوا في تضاعيف هذه المحادثات بالتفطن لأمور هي أجل من تقويم مذهب أهل التعليم،فلم يكن ذلك من غرضي »(2).

وكتابه « تهافت الفلاسفة »نموذج جيد لها أيضا ،فقد كان يلزمهم بأقوالهم،وأقوال غيرهم التي لا يعتقدها حتى يبين تهافت ما ذهبوا إليه . لأن مقصد المجادلة لا ينحصر في دعوة المجادل إلى الحق،فتلك غاية عليا .وتعصب المجادل يحول ـ أحيانا كثيرة ـ دون تحقيقها ،ولكنها مع ذلك تقصد إلى رد الشبهات وتفنيدها وحماية المجتمع منها.

ولرد الشبهات التي تحاول الانحراف بالمجتمع الإسلامي عن مساره الصحيح يجعل الغزالي وجود المتكلمين الذين يتكفلون بمحاجة الكفار ورد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات فرضا كفائيا يجب أن لا يخلو منه المجتمع الإسلامي. يقول في « الاقتصاد في الاعتقاد »:« فوجب أن يكون في كل قطر من الأقطار أو صقع من الأصقاع مشتغل بهذا العلم يقاوم دعاة المبتدعة،ويستميل المائلين عن الحق ويصغي قلوب أهل السنة عن عوارض الشبهة .فلو خلا عنه القطر حرج به أهل القطر كافة ،كما لو خلا عن الطبيب و الفقيه » (3).

ـ **تعليمه الحق** وتعريفه به والبرهنة له عليه ،وتعليمه موازين ذلك ،وذلك كله إن كانت فيه فطنة ،وكان فيه نوع من القبول للحق (4).وهو بذلك يكاد يلتحق بقسم الخواص .

ـ **استعمال الشدة**،فإن أصر هذا المجادل على عناده ،وتعدى خطره إلى مجتمع فينبغي أن يشتد معه،يقول الغزالي :« فإن لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه وجاجه وعناده عالجته بالحديد ،فإن الله تعالى جعل الحديد والميزان قرينين بالكتاب »(5).

---

1 ـ تعبير شائع في اللغة العربية يقصد به : أفضيت بأمري كله. انظر: ابن منظور. لسان العرب. ج4،ص39 ،رقم:2637.

2 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص101.

3 ـ الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص77.

4 ـ 5 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم ، ص90.

هذا هو تقسيم الغزالي لأصناف المخاطبين بالإصلاح بحسب الأسلوب الممارس نحوهم .وهذا التقسيم قيمة كبيرة في تفهم آراء الغزالي ومواقفه،والتي قد تبدو متعارضة ظاهر الأمر ،وذلك أنه يتكلم في كل مسألة بحسب الصنف الذي يتوجه إليه.وقد أشار إلى هذا العامل ابن طفيل في قوله:« وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي ،فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل في آخر ،ويكفر بأشياء ثم ينتحلها » (1).

3 ــ موضوع الإصلاح .

يختلف موضوع الإصلاح في رأي الغزالي بحسب مستوى المخاطبين،فلكل صنف من الناس الموضوع الذي يناسبه،ولكن الغزالي مع ذلك يضع ضوابط للمنكر العام الذي تتعلق به الحسبة الشرعية،وسنذكر هنا تلك الضوابط، ثم نعقب عليها بنماذج لمواضيع طرقها الغزالي في نقده لواقعه الاجتماعي كتصوير لشمولية الإصلاح عنده.

أ ــ ضوابط المنكر :

يشترط الغزالي للمنكر الذي تجب إزالته أربعة شروط هي :

1 ــ **إنكار الشرع له** :لا العقل ولا العادة ولا الهوى . والمتكلمون والأصوليون تبع لهم يبحثون هنا مسألة « التحسين والتقبيح » (2).وهل هي بالعقل أم بالشرع ،والغزالي ينتصر فيها للمذهب الأشعري القائل بأن التحسين والتقبيح من الله ﷻ ،وأنه لا تكليف قبل ورود الشرع (3) ، ويهتدي أثناء تلك النصرة إلى نظرية « سبق الوهم إلى العكس الاقترانية الشرطية »(4). يقول فاتر

---

1 ــ ابن طفيل، حي بن يقظان ،تحقيق جميل صليبا وكامل عياد،دمشق: مطبعة جامعة دمشق،1962،ص14،وهو ما اختاره الكثير من الباحثين المتأخرين متأثرين في ذلك برأي د. سليمان دنيا في كتابه الحقيقة في نظر الغزالي ،حيث يقول: لقد فهمت الغزالي باحثا يشرف على الناس من عل ،فيراهم مختلفين في الاستعداد و المدارك ،ويرى أن ما يليق بواحد منهم أوبجماعة قد لا يليق بالآخرين ،فيقدم لكل منهم ما يليق به.انظر:د. سليمان دنيا،الحقيقة في نظر الغزالي،ص4. القاهرة: دار المعارف، ص89.

2 ــ ذكر الغزالي لهذا المصطلح ثلاث مدلولات هي: ــ الحسن ما وفق غرض الفاعل،والقبيح ما خالفه ــ الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما نهى عنه ــ الحسن ما أذن فيه الشرع والقبيح ما نهى عنه ،انظر:الغزالي، المستصفى ،ج1،ص56.

3 ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص325.

4 ــ يريد الغزالي بهذا المصطلح ماتجده النفس من اقتران بين الأشياء ،كنفرة من هشاشة حية عن الخيل المبرقش اللون لتذكره عند رؤيته الأذى الذي عرض له.انظر: الغزالي، المستصفى ،ج1،ص59.

الحاج ـ الباحث المتخصص في هذه النظرية ـ : « فالغزالي صاحب نظرية سبق الوهم إلى العكس الاقترانية الشرطية ،قد سبق بافلوف (1) وغيره من علماء الاشتراط بقرون طويلة »(2).

وليس هذا مجال البحث في التحسين والتقبيح وأدلة ذلك ،وإنما غرضنا بيان أن الشرع هو المحتكم إليه في التحسين والتقبيح ،والمفتي بذلك هم العلماء . وهذا يجعل من العلماء قادة للأمة وأهل التوجيه فيها ، وهو ينبهنا إلى خطورة تسارع الكثير من الدعاة إلى الفتوى بعلم أو بغير علم .

2 ـ **وجود المنكر في الحال** : فلا ينبغي الحسبة على منكر لم يحدث بعد إلا إذا علم عزم المنكر عليه على ارتكابه ، وحينذاك يكتفى بوعظه بين يدون تشدد ، بل إن الغزالي لا يرى جواز ذلك إن أنكر عزمه على فعل تلبس المعصية « فإن فيه إساءة ظن بالمسلم ، وربما صدق في قوله . وربما لا يقدم على من عزم عليه » (3)،وللمعصية عند الغزالي بهذا الاعتبار ثلاثة أحوال :

ـ أن تكون قد **مضت** ، فليس للمحتسب إلا أن يعظ مرتكبها بعدم العودة ، وليس له أن يقيم الحد أو التعزير لأن ذلك للولاة لا للآحاد (4). وهذه مسؤولية القضاء لا الحسبة .

ـ أن تكون تلك المعصية **راهنة** ،وصاحبها مباشر لها ، فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن، ما لم يؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها (5).

ـ أن يكون المنكر **متوقعا** ، فلا يجوز الإنكار ـ كما بينا ـ إلا إذا علمت منه تلك المعصية بالعادة ، ويضرب الغزالي لذلك مثالا بوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء « فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق بسعته . فتجوز الحسبة عليهم لإقامتهم من الموضع ، ومنعهم من الموقف »(6) . والغزالي يطلق الحكم في هذه المسألة قياسا على الخلوة بالأجنبية . فإنما في

---

1 ـ إيفان بافلوف [1849 ـ 1936] ،عالم بيولوجي روسي ،نال جائزة نوبل سنة 1904، لأبحاثه في الغدد الهضمية ،انظر: منير البعلبكي،معجم أعلام المورد،بيروت،دار العلم للملايين،ص91.

2 ـ د. فائز الحاج، نظرية سبق الوهم إلى العكس ، د.ت.د.ص ،ص355.

3،4،5،6 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص324.

نفسها معصية ، لأنها مظنة الوقوع في المعصية » وتحصيل مظنة المعصية معصيـــة»(1). وهذا ما يطلق عليه الأصوليون « **سد الذرائع** » (2).

3 ــ **ظهور المنكر للمحتسب**: وذلك من غـــير تجســس ،لأن المضـار الـتي قد تترتب على ذلك التجســس أكـبر مـن المنكـر نفسـه ، ففيـه إسـاءة ظـن بالمسلم،واقتحام لحرزه الذي جعله الله لـــه ، ولـو فتـح بـاب ذلـك لانتشـرت الفوضى وتسور كل واحد بيت من شاء متى شاء بحجـــة إزالـة المنكـر . ويـروي الغزالي في هذا قصة عمر ﷺ حين تسلق دار رجل فـرآه علـى حالـة مكروهـة . فأنكر عليه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت أنا قـد عصيـت الله مـن وجـه واحد ، فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه »،فقال : « وما هـي ؟ » .فقـال : « قـد قال الله تعالى :﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾ (الحجرات :12)،وقـد تجسسـت ، وقـال تعـالى ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا** ﴾ (البقرة:189)،وقد تسورت من السـطح . وقـال :« **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا** » (النور :27)، وما سلمت »، فتركه عمر، وشـرط عليـه التوبـة (3).وهـذا يدل على ما للآداب و الأخلاق من قيمة في الإصـلاح ، فـإصلاح الغايـة يسـتلزم إصلاح الوسيلة ،فالغاية في الإصلاح لاتـبرر الوسـيلة.

ولكن ما حد الظهور والاستتار الذي يناط به وجـوب الإزالـة ؟

يجيب الغزالي على ذلـك بإعطـاء قـاعدة عمليـة هـي « أن التجسـس ضرب الأمارات المعرفة ،فالأمارة المعرفة إن حصلت وأورثـت المعرفـة جـاز العمـل بمقتضاها ،فأما طلب الأمارة المعرفة فلا رخصة فيـه أصـلا»(4)، ولتوضيـح ذلـك يأتي ببعض الأمثلة ،منها أن من أغلـق بـاب داره،أو تسـتر بحيطانـه ،فـلا يجـوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصيـة إلا إذا ظهـرت ظهـورا يعرفـه مـن هـو خارج الدار،كارتفاع أصوات السـكارى بالكلمـات المألوفـة بينـهم ،أو فـاحت

---

1 ــ الغزالي، الإحيـاء، ج2،ص324.

2 ــ عرفه الأصوليون بأنه :حسم مادة الفساد بقطع وسائله ،والذرائـع هـي الوسـائل.وهـي إمـا معتبرة إجماعا كسب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله ،أو غـير معتـبرة إجماعـا كـالمنع مـن الشركة في سكنى الدار مخافة الزنا ،أومختلف فيه كبيوع الآجال،انظر:محمد بـن علـي الشـوكاني.إرشـاد الفحول في تحقيق الحق مـن علـم الأصـول ،بـيروت:دار المعرفـة ،1399ه،1979م،ص246 ــ247 .و ابن جزي،تقريب الوصول إلى علـم الأصـول،ص149.

4.3 ــ الغزالي، الإحيـاء، ج2،ص325.

رائحة الخمر، أو إذا رئي فاسق ،وتحت ثوبه شيء ،ولا يجوز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة؛ فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر(1).وهذا كله حذرا من اختلاط الإصلاح بأي إساءة للأدب ،أو تعرض لحريات المسلمين التي كفلها الله لهم في الحدود المشروعة.

4ـ **الإجماع على إنكاره** :فأما إن كان محل اجتهاد ،أو وقع فيه الخلاف بين العلماء،فلا يجوز الإنكار فيه،يقول الغزالي ضاربا بعض الأمثلة على ذلك: « ليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية.ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر ،وتناوله ميراث ذوي الأرحام »(2).

وقد اشتهر عن الغزالي في هذه المسألة القول بأن « كل مجتهد في الظنيات مصيب وأنها ليس فيها حكم معين من الله »(3).

وهنا يحتد الخلاف بين من يرى رأي الغزالي من أن جهود الإصلاح يسعى أن توجه إلى الأصول قبل الفروع ، وإلى القطعي قبل الظني . وإلى المجمع عليه قبل المختلف فيه ، بل إنه لا يحتسب في المختلف فيه أصلا ، وتدعوا إلى احترام الرأي الآخر مادام مؤسسا على أدلة ، أو قال به أحد علماء الأمة المعتد بهم . وبين المدرسة السلفية الحديثة التي تنطلق من أن الحق واحد . والمصيب بالتالي واحد ، ولذلك تدعو إلى الأرجح الذي تراه من المختلف فيه ،وتدعو إلى الاجتهاد العام،وتعتقد أن الانتماء المذهبي بدعة حادثة في الدين يجب إزالتها.

وهذه المسائل وجدت حقها من العناية عند الغزالي ،بل إن رأيه فيها ،مع اشتداد التعصب المذهبي في عصره،وقيام المناظرات بين العلماء لنصرة مذاهبهم،وانتقال ذلك إلى العامة،وتخاصمهم أحيانا في سبيل ذلك من غير ما بمكان ،بل لعله الرأي الأمثل الذي يرفع حدة الخلاف ويوجه عناية الأمة إلى الأجدى والأصلح،ويقضي على التعصب بجميع أشكاله.

وقد ذكر الغزالي الشبهات التي ينطلق منها الذين يرون الحسبة في المختلف فيه من الفروع ،ومن تلك الشبهات:

ـ أن القول بتصويب جميع المجتهدين محال.لأنه يؤدي إلى الجمع بين

2.1 ـ الغزالي، الإحياء، ج2 ،ص325.

3 ـ الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج2.ص364.

نقيضين،فيكون قليل النبيذ حلالا وحراما ،والنكاح بلا ولي صحيحا وباطلا(1).

ـ دلالة بعض النصوص الشرعية الدامة للاختلاف كقوله تعالى:« **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** » (آل عمران:103)،وقوله: « **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا** » (آل عمران:105)،وبإجماع الأمة على الحث على الألفة والموافقة،والنهي عن الفرقة والاختلاف (2).

ـ ما ورد عن الصحابة ﷺ من الحذر من الخطأ وإجماعهم على ذلك(3).

ومن أجوبة الغزالي عن تلك الشبهات:

ـ أن الحكم الشرعي يتعلق بأفعال المكلفين ،لا بأعيان الأشياء،وبذلك قد يحل لشخص ما يحرم على غيره،فالميتة ـ مثلا ـ تحل للمضطر دون المختار،والصلاة تجب على الطاهر وتحرم على الحائض.

وما دام الأمر كذلك ،فليس هناك تناقض.لأن التناقض يحصل عندما يجتمع التحليل والتحريم في حالة واحدة لشخص واحد في فعل واحد من وجه واحد،فإذا تطرق التعدد والانفصال إلى شيء من هذه الجملة انتفى التناقض(4)،وما أوهم التناقض هو اعتقاد تعلق التحليل والتحريم بأعيان الأشياء. وذلك غير ممكن ،لأنه لو كان الأمر كذلك لما حرم الشيء بعد تحليله.فأعيان الأشياء ثابتة،وما يعرض لها هو المتغير.

ويضرب الغزالي مثالا على ذلك بقوله : «لو صرح [الشرع].وقال :من غلب على ظنه أن النبيذ بالخمر أشبه فقد حرمته عليه،ومن غلب على ظنه أنه بالمباحات أشبه فقد حللته له لم يكن هذا التصريح متناقضا »(5).

ـ أن التفرق المنهي عنه هو التفرق في الأصول لا الفروع .بدليل تفرق الصحابة ﷺ واختلافهم ،وزيادة على ذلك « إجماع الأمة على أنه يجب على المختلفين في المسائل الاجتهادية أن يحكم كل واحد بما هداه إليه دليله.ولو كان مخالفا لغيره، والأمر باتباع المختلف أمر بالاختلاف » (6).

ـ أن ما ورد عن الصحابة من الحذر من الخطأ يرد إلى جملة اعتبارات كخوفهم من مخالفة دليل قطعي،أو عدم استفراغ تمام وسعهم في البحث.أو

---

1 ـ الغزالي،المستصفى من علم الأصول،ج2،ص367.

2 ـ المصدر نفسه،ج2،ص374.

3 ـ المصدر نفسه ،ج2،ص374،375.

4 .5 ـ المصدر نفسه،ج2،ص367.

6 ـ المصدر نفسه، ج2،ص374.

حوفيهم أن لا يكونوا أهلا للنظر...وغير ذلك من الاعتبارات(1).

ولعل رأي الغزالي بأن « **كل مجتهد مصيب** » ، فيما توحي إليه النقل، أو تطرق إليه احتمال الخطأ أقرب قول لرفع الخلاف بين الأمة في المختلف فيه، لأنه إذا قلنا بأن الحق واحد ،وأن الراجح أحد المذاهب دون غيره أدى ذلك إلى الشحناء والتعصب ،أو إلى تفريغ الجهود في غير مواضعها .

وقد قرر كل العلماء المنصفين أن الإنكار لا يكون إلا في المجمع عليه ،لا في المسائل المختلف فيها،يقول « عبد الوهاب الشعراني » (2):«... ووسع على الأمة كما وسع عليهم نبيهم ﷺ واعتقد أن الإنسان لو ترك العمل بكل ما لم تصرح به الشريعة المطهرة،فلا حرج عليه ولا لوم في الدنيا والآخرة إلا أن تجمع عليه الأمة فحينئذ يحرم خرقه »(3).

هذا فيما يتعلق بالخلاف في الظنيات والفروع ،أما الخلاف البدعي المتعلق بأصول الدين،فإن الغزالي يرى وجوب الإنكار فيه،يقول في ذلك : « والبدع كلها ينبغي أن تحسم أبوابها ،وتنكر على المبتدعين بدعهم ،وإن اعتقدوا أنها الحق،كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم،وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق،لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد » (4).

ولكن إنكار البدع مع أهميته ووجوبه وكون الحسبة فيه أهم من الحسبة في

---

1 ــ الغزالي، المستصفى، ج2،ص375.

2 ــ هو أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني،[ت973هـ] .فقيه شافعي،وقف جهده على التصوف ،له « الجواهر والدرر الكبرى» و« لوقح الأنوار» وغيرها من الكتب في الحديث و التصوف و الفقه، وقد تبع الشعراني الغزالي في قوله بأن كل مجتهد في الفروع مصيب. بل حاول أن يصنف على جميع الفروع الفقهية في كتابه العظيم « ميزان مذاهب الأئمة الأربعة » ، يقول عن هذا الميزان: « وصاحب الذوق هذا الميزان يرى جميع مذاهب الأئمة المجتهدين وأقوال مقلديهم كأنها شريعة واحدة لشخص واحد ، لكنها ذات مرتبتين كل من عمل بمرتبة منها بشرطها أصاب» [عبد الوهاب الشعراني ، ميزان مذاهب الأئمة الأربعة ، مخطوط بمكتبة الأستاذ عمر محمد عبد الكريم بأولاد جلال ،ص12.]

3 ــ عبد الوهاب الشعراني، كشف الغمة عن جميع الأمة ،ط1،مصر: مكتبة المشهد الحسيني، ج1،ص8.

4 ــ الغزالي، الإحياء ،ج2،ص327.

كل المنكرات ،فيه تفصيل من حيث عمومية الحسبة أو الاحتياج إلى إذن السلطان.فالغزالي يرى أن البدعة إن كانت غريبة،والناس كلهم على السنة.فيهم الحسبة عليها ،بغير إذن السلطان ،وأما إذا انقسم أهل البلد إلى متبدعة وسنيين،وكان الاعتراض مثيرا للفتن ،فالغزالي يرى حرمة الاعتراض إلا لمن توفرت فيهم الشروط اللازمة لإنكار البدع(1) .

ب ــ نماذج عن نقد الغزالي لواقعه الاجتماعي :

نظرا لحاجة المحتسب إلى معرفة المعروف الذي يتعين عليه الدعوة إليه والمنكرالذي يتعين عليه النهي عنه ،فقد اهتم الغزالي ببيان ذلك.فهو في معظم كتبه ينقد الظواهر السلبية في مجتمعه،وهو في نقده ذلك لا يكتفي بالظاهر ،وإنما يعبر منه إلى الباطن ،فيحلل نفسيات أصناف الناس،ويبين مكامن الخطأ في بواطنهم وما يظهر منها بعد ذلك على سلوكهم،وهو لا يكتفي كذلك بالجزئيات،بل يعبر منها إلى الدقائق ،فالكل عنده يجب إصلاحه .مع مراعاة المراتب في ذلك،وسننقل هنا نماذج عن نقده لواقعه الاجتماعي كأمثلة على شمولية موضوع الإصلاح عنده.

ــ **المنكرات الظاهرة** : اهتم الغزالي بنظافة محيط المجتمع الإسلامي وسريان النظام فيه ،فلذلك من المنكرات التي يجب تغييرها وضع الأسطوانات وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة ...ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق .فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة(2)،ويعلل ذلك بأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة.

ومن المنكرات ،طرح القمامة على الطرق ،وتبديد قشور البطيخ.أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر ،وإرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة،فإن ذلك ينجس الثياب ،أو يضيق الطرق (3)،وغيرها من الأمثلة التي عبر عنها الغزالي بأنها من «منكرات الشوارع»،وهي لا تختص بواقعه فقط ،بل إن الكثير منها موجود في مجتمعاتنا ومدننا .ويضيف الغزالي إلى ذلك «منكرات الضيافة »و منكرات الأسواق »و« منكرات الحمامات » وغيرها.

---

1 ــ الغزالي، الإحياء، ج2، ص327.

2 ،3 ــ المصدر نفسه، ج2،ص339.

وغرض الغزالي من التدقيق في هذه القضايا هو عدم اهتمام الناس بها أو عدم تنبههم لها من جهة ،ومن جهة ثانية اشتهار المنكرات الدينية الصرفة كترك الصلاة وترك الصيام وغير ذلك مما علم من الدين بالضرورة.

_ **المنكرات الباطنة:** خصص الغزالي الربع الثالث من « الإحياء » لعد وتحليل المنكرات الباطنة باعتبارها أعظم خطرا من المنكرات الظاهرة .ولقد وجب أن يكون في الأمة من يحتسب لهذا النوع من المنكرات ،فقد قال تعالى: ﴿ **وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ** ﴾(الأنعام:120) .

ومن أمثلة المنكرات الباطنة التي اهتم بها الغزالي « **الغرور** » .فمن الغرور مثلا غرور العصاة من المؤمنين بقولهم:إن الله كريم . و إنا نرجو عفوه.و تكالهم على ذلك ،وتسميتهم غرورهم وأمانيهم رجاء (1).مع أن الرجاء مقام محمود في الدين . ولكنه لا يصدق إلا على محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ،وهو فضل الله ويجوز بصرف القواطع والمفسدات (2).

ومن المغترين من العباد فرقة أهملوا الفرائض ،واشتغلوا بالنوافل .ورتما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف .وفرقة غلبت عليهم الوسوسة في نية الصلاة،فلا يدعهم الشيطان يعقدون نية صحيحة .بل يشوش عليهم حتى تفوتهم الجماعة وتخرج الصلاة عن وقتها .وفرقة تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها .وفرقة ترتضي بقراءة القرآن يهذونه هذا ،ورتما يختمونه في اليوم والليل مرة .ولسان أحدهم يجري به،وقلبه يتردد في أودية الأماني،وفرقة اغتروا بالصوم.ورتما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة ،وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وجوارحهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام،وفرقة اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وغيرهم من فرق المغترين(3).

4 _ مراتب الإصلاح:

يضع الغزالي للإصلاح ثماني مراتب .لابد من مراعاة التسلسل

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص384.

2 ــ المصدر نفسه،ج4،ص143.

3 ــ المصدر نفسه،ج3، ص400 ــ 402.

بينهما.وهي:

أ ـ **التعرف**:وهو البحث عن أدلة وجود المنكر،لأن الإنكار ـ كما علمنا ـ لا يكون إلا على منكر معلوم واقع،ولذلك البحث عند الغزالي طريقان:

ـ **شرعي**:وهو العلم اليقيني بوجود المنكر، وذلك إن اشتهر وجهر به أو دلت عليه الأدلة الظاهرة ، وفي هذه الحالة يجب التغيير بحسب مراتبه . يقول الغزالي : «... وكل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه ، وهو قادر على تغييره ، فلا يجوز أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت »(1).

ـ **غير شرعي** : وهو الظن أو الشك في جريان المنكر الذي لم يدل عليه دليل ظاهر، فليس للمصلح أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يستفسر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره ، فإن ذلك كله من التجسس المنهي عنه . وهو هتك حرمة المسلم بدليل ظني (2).

ب ـ التعريف :وهو دلالة المنكر عليه على حرمة ما يفعله . لأنه يقدم عليه بجهله ، وإذا عرف أنه منكر تركه (3)، ولما في التعريف من إيذاء للمعرف بنسبته إلى الجهل ، فإن الغزالي يدعو إلى نصحه باللطف من غير عنف . ويضرب مثالا على ذلك بتعريف جاهل بوجوب الطمأنينة في الصلاة . فيقول له :إن الإنسان لا يولد عالما . ولقد كنا ـ أيضا ـ جاهلين بأمر الصلاة . ولعل فريقك خالية من أهل العلم ... وهكذا يترفق به ليحصل التعريف من غير إيذاء ، ويشبه الغزالي من يعرف غيره بغير أدب بمن يغسل الدم بالبول . يقول في ذلك :« ومن اجتنب محظور السكوت على المنكر ، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه ،فقد غسل الدم بالبول على التحقيق »(4).

وينصح الغزالي بأن يعتمد المصلح كل الوسائل التوضيحية لتعريف الناس الحق وأمرهم به ،فإن كان الخضاب مع نجار لا يحسن إلا النجر ،وكيفية استعمال الآلة وجب على مرشده أن لا يضرب له المثل إلا بصناعة النجارة ليكون ذلك أسبق إلى فهمه ،وأقرب إلى مناسبة عقله (5).

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص 342.

3،2 ـ المصدر نفسه،ج2،ص329.

4 ـ مصدر نفسه،ج2 ،ص 330.

5 ـ الغزالي، معيار العلم ،ط2،بيروت:دار الأندلس،1978،ص25.

ج ــ **الموعظة** :وذلك فيمن يقدم على المنكر مع علمه بكونه منكرا . أو من أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا . وقد ذكر الغزالي الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ مع الخلق منتقدا ما صار إليه الوعظ في عصره . ومن تلك الطرق :

ــ الاعتماد على ما ورد في القرآن الكريم والأخبار والآثار من مواعظ . فالقرآن الكريم مليء بالمواعظ كقوله تعالى عن لقمان ــ عليه السلام ــ : « **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** » (لقمان:12)، وكذا الأخبار والآثار . « فعلى الواعظ أن يستكثر منها إن كان وارث الرسول ﷺ ، فإنه ما خلف دينارا فأدرهما . وإنما خلف العلم والحكمة. ووراثة كل عالم بقدر ما أصابه » (1).

ــ الموعظة بالقصة ، فإن لها تأثيرا كبيرا على النفوس . ولذلك أولاها القرآن الكريم قيمة كبيرة ، بل أمر بها . يقول ﷻ : « **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** » (الأعراف:176)،وكذلك في السنة ، فقد وردت قصص كثيرة في أحاديث الرسول ﷺ ،وعلى ضوء هذا الهدي القرآني والنبوي أولى الغزالي اهتماما كبيرا بالقص ،مع انتقاده للقصاصين الذين اتخذوا القص حرفة . ويعلل ذلك بأن من القصص ما ينفع سماعه ،و منها ما يضر ولو كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار.ولذلك لا يرى بأسا إن كان القاص صادقا صحيح الرواية (2).

ــ ذكر تأثير المعاصي الدنيوي ،وذلك لأن تعجيل العقوبات في الدنيا متوقع على الذنوب،فما يصيب العبد من المصائب هو بسبب جناياته ،وهذا من الغزالي فقه للواقع وإدراك لنفسيات الناس ، « فإن منهم من يتساهل في أمر الآخرة،ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر مما ينبغي » (3) .ولذلك ورد عن السلف الصالح الآثار الكثيرة في بيان تعجيل الله العقوبة في الدنيا على المعاصي(4).

ــ ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا وغيرها مع من يراد متصفا بها مستدلا على ذلك بقرائن الأحوال.فمن ذلك

2.1 ــ الغزالي، الإحياء،ج1،ص35 .

3 ــ المصدر نفسه،ج4،ص53.

4 ــ جمع الكثير من تلك الآثار مصنفا إياها ابن قيم الجوزية في كتابه « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » .

كالطبيب الحاذق يستدل بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العضو الباطنة. (1).وذلك اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان يعامل وينصح كل فرد بحسب ما يصلح له،ولهذا اختلفت الآثار ــ حتى أنها قد تبدو متعارضة ــ في بيان فضائل الأعمال و مراتبها .

أما إن كان الواعظ يتكلم في جمع ، أو من لا يعلم حاله. فإن عليه « أن يعظهم بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه ،إما على العموم،أو على الأكثر،لأن في الشرع أغذية وأدوية . فالأغذية للكافة،والأدوية لأرباب العلل » (2).

وفي الأخير يحذر الغزالي أن يكون هم الواعظ أن يتأثر الناس تأثرا عاطفيا محدودا ،بل ينبغي أن تكون همته « أن يدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة ،ومن المعصية إلى الطاعة،ومن الحرص إلى الزهد ،ومن البخل إلى السخاء،ومن الغرور إلى التقوى » (3).

د ــ القول الغليظ: ولا يعدل إليه إلا عند العجز عن المنع بالعنف ،أو حين تظهر مبادئ الإسرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ،ويستدل الغزالي لذلك بقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ،** (الأنبياء:67)،ولهذه الرتبة أدبان:

ــ أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة ،مع يقينه بتأثيرها في ردع المنكر عليه ،فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة لا يؤثر فيه، فلا ينبغي أن يطلقها ،بل يقتصر على إظهار الغضب،والاستحقار له،والازدراء بحمله لأجل معصيته.

ــ أن لا ينطق إلا بالصدق مقتصرا على قدر الحاجة .فإن تطويل اللسان بالكذب أو فوق الحاجة ربما يزيد من ترسيخ المنكر ،ومن الأمثلة التي ذكرها الغزالي على ذلك : « يا فاسق ،يا أحمق ،يا جاهل ،ألا تخاف الله ...فإن كل فاسق أحمق وجاهل ،ولو لا حمقه ما عصى الله تعالى » (4) .

هـ ــ التغيير باليد : وهو أن يستعمل القوة في دفعه ككسر

1،2 ــ الغزالي، الإحياء ،ج4،ص55.

3 ــ الغزالي، رسالة [أيها الولد] ،[ضمن القصور العوالي].ص139.

4 ــ المصدر نفسه،ج2،ص330،331.

الملاهي وإراقة الخمر ومنعه من الجلوس على الخوان وإخراجه من الدار المغصوبة،وذلك لا يمكن إلا في المعاصي الظاهرة،أما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ،وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة (1)،ولهذه المرتبة ـ أيضا ـ أدبان:

ـ أن لا يباشر التغيير بيده ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه بذلك،فإن قدر على أن يكلفه بإراقة الخمر أو كسر الملاهي،وغير ذلك فلا ينبغي له أن يفعل ذلك بنفسه.

ـ أن يقتصر في تغييره على القدر المحتاج إليه ،فإن زيادة الأذى مستغنى عنها ،« فيتوقى عند إراقة الخمر كسر الأواني ،ولا يأخذ بمحيته في الإخراج،ولا برجله إذا قدر على جرده »(2).

و ـ **التهديد بالضرب والتخويف به**:إذا لم تجد كل المراتب السابقة،فحينذاك يلجأ معه إلى أسلوب التهديد والتخويف بقوله ـ مثلا ـ : « دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك ،أو لأضربن رقبتك »(3) ،فإن من الناس من لا يعتبر إلا بهذا ،ولا حرج عليه في الكذب في ذلك الوعيد إذا لم ينفذه إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه ،وليس ذلك كما يرى الغزالي من الكذب المحظور،بل المبالغة في ذلك معتادة،ومثله مبالغة المؤمن في الإصلاح بين شخصين والتأليف بين الضرتين ،وذلك مما قد رخص فيه للحاجة ،وهذا في معناه،وأدب هذه المرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه،كقوله: « لأهدمن دارك.أو لأضربن ولدك.أو لأسبين زوجتك ،وما يجري مجراه »(4).

ز ـ **مباشرة الضرب من غير إشهار سلاح**:والغزالي يرى جواز ذلك من غير إذن السلطة بشرط الضرورة مع الاقتصار على قدر الحاجة،وهذا مع مراعاة التدرج في كل المراتب السابقة،مع أمن الفتنة،ويضرب مثالا على ذلك بفاسق يريد اغتصاب امرأة ،وكان بينه وبين المحتسب حائل . « فيأخذ قوسه ويقول له: خل عنها ،أو لأرمينك ،فإن لم يتخل عنها له أن يرمي .وينبغي أن لا يقصد المقتل، بل الساق والفخذ وما شابهه »(5).

ح ـ **اتخاذ الأعوان** :عند عجزه عن مباشرة الإنكار بنفسه يرى الغزالي

2،1 ـ الغزالي، الإحياء،ج2،ص331.

5.4.3 ـ المصدر نفسه،ج2،ص332.

جواز الاستعانة ،بل وجوبها خاصة عند استعانة الفاسق بأعوانه « لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف،وأوائل درجاته تجر إلى ثوان ،والثواني إلى ثوالث وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغي أن يبالي بتعاطي لوازم الأمر بالمعروف »(1)،وهذا بشرط عدم أدائه إلى فتنة أكبر من المنكر الذي يريد تغييره ـ كما سبق بيانه ـ.

هذه هي المراتب التي يراها الغزالي للإصلاح الاجتماعي وهي ترينا مدى اتساع مفهوم الإصلاح عنده،فليس هو بالتعريف الفقهي وحده،ولا بالوعظ المؤثر فقط ،وإنما بكل ما يمكن اتخاذه من وسائل وهو ما يعبر عنه بقوله: « كل من قدر على دفع منكر،فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه ونفسه وبأعوانه»(2).

هذه هي الضوابط التي يضعها الغزالي للإصلاح الاجتماعي،وهي ترينا مدى اتساع تصوره لمفهوم الإصلاح.بحيث يتعلق التغيير عنده بكل المنكرات .ويعم القيام به كل المكلفين،ويشمل خطابه جميع البشر،وينتهج في سبيل تحقيقه كل الوسائل.

ولكن كل هذا الجهد يحتاج إلى مصادر يرجع إليها .ويتخذها أصولا لمنهجه الإصلاحي،وسنرى تصور الغزالي لتلك الأصول في الفصل التالي.

1،2 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص333.

الفصل الثالث

أصول المنهج الإصلاحي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا ــ حقائق القرآن الكريم ومقاصده

لاحظ الغزالي ما آل إليه التعامل مع القرآن الكريم في عصره، وما قبله من العصور، من حصر معانيه في ظواهر التفسير المتلقاة بالنقل، أو الاجتهاد فيها بالرأي، والتوقف عندها، وعدم الغوص في حقائقه الكبرى التي تشير إليها معانيه وظواهره، وقد زاد في عزلة حقائق القرآن عن عامة الأمة ومتطلبات حياتها تلك العلوم الكثيرة المرتبطة به، وهي وإن كانت الضرورة دعت إليها إلا أن زيادة التعمق فيها باعتبارها مقصودة لذاتها جعلها حجابا دون تفهم حقائقه المرتبطة بكل فرد على حدة، وبكل شأن من شؤون الحياة، فأصبح القرآن بذلك كتابا تاريخيا أو أثرا أدبيا لا موجها وهاديا ومربيا.

وقد دعا الغزالي إلى تعامل جديد مع القرآن الكريم بدل ذلك يقوم على تدبر آياته واستنباط المعارف الإيمانية منها، وإلى رعاية مقاصده وعدم الانشغال عنها بالدراسات المتعلقة به، باعتباره منبع العلوم بظاهره وباطنه، بتصريحاته وإشاراته.

1 ــ العلاقة بين مباني القرآن وحقائقه :

يقسم الغزالي العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم إلى قسمين : علوم آلية، يعبر عنها بالصدف، باعتبارها الغشاء الخارجي الذي يحمي الجوهر، ولا يتوصل إلى الجواهر إلا بفتقه، وتلك العلوم هي المواد الأساسية المكونة لتفسير الظاهر. وهي ــ عند الغزالي ــ خمسة علوم : **علم اللغة**، **وعلم النحو**، **وعلم القراءات**، **وعلم مخارج الحروف**، **وعلم التفسير الظاهر**، والغزالي ينتقد الاقتصار على هذه العلوم باعتبارها مقصودة لذاتها وإهمال معاني القرآن الأساسية التي أنزل من أجلها(1).

ومن مظاهر هذا الاقتصار ما انتهى إليه جهل طائفة ظنوا أن القرآن هو الحروف وبنوا عليها أنه مخلوق لأن الحروف والأصوات مخلوقة (2). أما التفسير الظاهر فيه ــ كما يرى الغزالي ــ قنع أكثر الخلق، وما أعظم عنايتهم وحرمانهم إذ ظنوا أنه لا رتبة وراء رتبتهم » (3).

---

1 ــ الغزالي، جواهر القرآن، ص21.

2 ــ الغزالي، الإحياء، ج1، ص287.

3 ــ المصدر نفسه، ج1، ص288.

ولذلك يدعو الغزالي إلى الاقتصاد في هذه العلوم، والاقتصار منها على ما تمس إليه الحاجة، لأن كل ما يطلب لغيره لا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه.

و هو يوصي بأن يقتصر من علم اللغة على ما يفهم منه كلام العرب وينطق به ،ومن غريبها على غريب القرآن و الحديث،دون التعمق في ذلك،ومن النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة ،أما التفسير فيكتفى بما يبلغ ضعف القرآن الكريم أو ثلاثة أضعافه ، أما ما زاد على ذلك فهو كما يقول الغزالي : « استقصاء مستغنى عنه » (1) ،وقد دعا بدل ذلك إلى النظر في مقاصد القرآن الكريم وحقائقه الباطنة باعتبارها الجوهر الذي يغطيه الصدف ،أو اللباب الذي يحميه القشر .

ولكنه يصطدم في دعوته هذه مع القائلين بتحريم تفسير القرآن بغير ما ورد في التفسير الظاهر المنقول عن الرسول ﷺ والصحابة ﷺ ،والذين يستدلون ببعض النصوص الشرعية الدالة على تحريم التفسير بالرأي ،والتشديد في ذلك كقوله ﷺ: « **من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار** » (2)وقوله: « **من قال في القرآن برأيه ،فأصاب فقد أخطأ** »(3)،ومنها موقف السلف الصالح من التشدد في البعد عن هذا الاتجاه ،وأقوالهم الكثيرة في ذلك (4) ، وقد رد الغزالي على ذلك بما يلي :

ـ أن الاعتصام بالنقل وحده لا يكفي ،بدليل ما روي من آثار عن اتساع مجال الفهم في القرآن الناتج عن التدبر ،ومن الآثار التي ينقلها الغزالي قول علي ﷺ :« ما أسر إلي رسول الله ﷺشيئا كتمه على الناس إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه » (5) وقوله ﷺ :« من فهم القرآن فسر به جمل العلم »(6) وعقب الغزالي على ذلك بقوله : «أشار به إلى أن القرآن الكريم يشير إلى مجامع العلوم كلها»(7) ،وفسر ابن عباس ﷺالحكمة في قوله تعالى:(**وَمَن يؤتَى الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**) (البقرة :269)بالفهم في

1ـ الغزالي، الإحياء،ج1 ،ص288.

2 ـ الترمذي ، السنن ،(أبواب التفسير)،ج2 ،ص157،رقم:2874.

3 ـ المصدر نفسه،[أبواب التفسير]،ج2 ،ص157 ،رقم:2875.

4 ـ الغزالي، الإحياء،ج1،ص288،و انظر في ذلك: بكري الشيخ أمين ،التعبير الفني في القرآن،بيروت:دار الشروق، ص113.

5،6،7 ـ الغزالي ،الإحياء ،ج1 ،ص289.

القرآن (1)،وقول بن مسعود ﷺ:« من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن »(2).

ـ أن النبي ﷺدعا لابن عباس ﷺ بقوله :«**اللهم فقهه في الدين،وعلمه التأويل** »(3) ،والتأويل هو الرجوع إلى الأصل (4) .وفي لسان العرب » :« الأول ، الرجوع ، آل الشيء يؤول أولا ومآلا:رجع.وأول إليه الشيء رجعه ،وأول الكلام وتأوله : دبره وقدره ... والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، ولولاه ما ترك ظاهر اللفظ »(5).

وقد أشار الجرجاني إلى الفرق بين التفسير والتأويل في قوله: « التأويل في الأصل الترجيع ،وفي الشرع صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراد موافقا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى : ﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ (الأنعام:95)،إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا .وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا.»(6) .فالتأويل إذا غير التفسير ،ولذلك خص به النبي ﷺ ابن عباس ﷺ.يقول الغزالي :«فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل ،فما معنى تخصيصه بذلك ؟ »(7).

ـ أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير الكثير من آيات القرآن الكريم، فقالوا فيها أقوالا مختلفة لا يمكن الجمع بينها ،ويستحيل سماع جميعها من الرسول ﷺ ،فتبين بذلك أن كل مفسر قال في المعنى بما رجح له .فقالوا مثلا في الحروف المقطعة في أوائل السور: « إن ، ألر »(يوسف: 1)هي حروف من الرحمان ، وقيل إن الألف :الله ،واللام: لطيف ،والراء :رحيم .وقيل غير ذلك والجمع بين الكل غير ممكن ،فكيف يكون الكل مسموعا ؟ »(8).

---

1 ـ الغزالي ،الإحياء ،ج1 ،ص290.

2 ـ المصدر نفسه ،ج1،ص289.

3 ـ أحمد ، المسند، [مسند بني هاشم]،ج2،ص450،رقم 2393.

4 ـ الجرجاني ، التعريفات ،بيروت : مكتبة لبنان ،1978، ص71 .

5 ـ ابن منظور، لسان العرب،ج11،ص32،رقم:6637.

6 ـ الجرجاني، التعريفات ،ص71.

7 ،8 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص289 ،وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ط1،بيروت:دار الكتب العلمية،1988،ج1،ص100 .

ـ أن الله عز وجل قال : ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ (النساء:83).فأخبر أن لأهل العلم استنباطا . وهو غير مرتبط بالنقل (1).

ونتيجة لهذا ،فإن الغزالي يحمل « الرأي » في الحديث على الرأي المذموم ويتأوله على أحد وجهين:

أ ـ أن يكون للمفسر في الشيء رأي،وإليه ميل من طبعه وهواه .فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ،وذلك إما **مع العلم** كاحتجاج المبتدعة لآرائهم مع علمهم أنه ليس ذلك مراد الآية ،أو **مع الجهل** بذلك ،بأن يميل إلى الوجه الذي يراه موافقا له ، فيكون رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير (2).

ب ـ أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن،وما فيه من الألفاظ المبهمة،والمدة فلا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر.ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يتقن التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب،لأن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها لفهم (3).ومن العلوم القرآنية الظاهرية التي يشترطها الغزالي تعلمها ومراعاتها :

ـ **الإيجاز بالحذف والإضمار**،وقد ورد كثيرا في القرآن الكريم .وهو حذف كلمة أو جملة أو حرف لدلالة باقي الكلام عليها .ومن الأمثلة التي يذكرها الغزالي لذلك قوله تعالى : ﴿ **وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ (الإسراء:59) ، يقول الغزالي : « معنى ذلك :آية مبصرة. فظلموا أنفسهم بقتلها ، الناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ،ولم يدر كذلك أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم » (4).ومثله قوله تعالى ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾(البقرة :93) أي حب العجل . ومثله قوله تعالى :﴿ **إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ (الإسراء:75) أي ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى.

ـ **المنقول المنقلب** :أي المنقول عن اللفظ الذي ورد به أولا .كقوله تعالى:﴿ **وَطُورِ سِينِينَ** ﴾ (التين:2) أي طور سيناء وقوله تعالى :﴿ **سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ** ﴾ (الصافات:130) أي على إلياس عليه السلام.

---

1 ـ الغزالي، الإحياء،ج1،ص289.

2 ـ المصدر نفسه،ج1،ص290.

3،4 ـ المصدر نفسه،ج1،ص291.

ـ **المقدم والمؤخر** : كقوله تعالى : « **وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى** » (طه :129) معناه لولا الكلمة وأجل مسمى .وقوله تعالى : « **يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا** » (الأعراف:187) أي يسألونك عنها كأنك حفي بها .

ـ **المبهم** : وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف .كلفظة القرء .قال الله تعالى : « **وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** » (ق :23 ـ 24) أراد به الملك الموكل به .وقال تعالى : « **قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** » (ق : 27) أراد به الشيطان ، ولفظ الأمة ورد على ثمانية أوجه ، فالأمة هي الجماعة وأتباع الأنبياء والدين والزمان والقامة ،وغيرها (1).

فهذه العلوم وغيرها يشترط الغزالي سماعها وتعلمها لتجنب التفسير بالرأي المذموم ، يقول الغزالي :«كل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ،ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور ،فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه » (2)

والنتيجة التي نخلص إليها من علاقة الباطن القرآني بظاهره في رأي الغزالي هي أنه يلزم المتدبر للقرآن والمتفهم له أمران :

أ ـ أن لا يفهم من القرآن الكريم أمرا يخالف العقل أو النصوص الشرعية أو يحمل ألفاظ القرآن ما لا تحتمل ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل من صاحب الشرع ،ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ،وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ »(3).

و يضيف :« وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتبديلها على رأيهم »(4) ، وهو يشبه من يستجير هذه التأويلات مع عمه بأنها غير مراده بالألفاظ،ويزعم أن قصده منها دعوة الخلق إلى الحق بمن يستجير وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ،فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ:« **من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** »(5) ، بل إنه يرى

1،2 ـ الغزالي، الإحياء ،ج1 ،ص291 ـ 291.

3، 4 ـ المصدر نفسه ،ج1 ،ص37.

5 ـ البخاري، الجامع الصحيح ،[كتاب العلم] ،ج1 ،ص39، رقم:107، ومسلم، [المقدمة] ،ج1 ،ص10 ،رقم:3.

أن الشر في تأويل هذه الألفاظ أعظم خطرا لأنها مذهبة للثقة في الألفاظ وقاطعة لطريق الاستفادة من القرآن الكريم (1).

ب ــ أن لا يعتقد أن فهمه واستنباطه هو عين المراد دون غيره ، بل يبقي الظاهر على حاله ،ويعبر منه إلى الباطن ، يقول الغزالي في « مشكاة الأنوار » بعد كلام له في الموازنة بين الظاهر والباطن : « لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثلة رخصة مني في رفع الظواهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا : لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقول :اخلع نعليك :حاشا لله ،فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ،وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما ، فلم يفهموا وجهه .كما أن إبطال الأسرار مذهب **الحشوية** (2) ،فالذي يجرد الظاهر حشوي ، والذي يجرد الباطن باطني ، والذي يجمع بينهما كامل »(3).

ولكن هذه الفهوم الراقية العميقة التي يصفها الغزالي لا تنال بمجرد حضور القلب مع القرآن ،أو بمجرد التدبر الظاهر لألفاظه ،بل بوجود محل مستعد لذلك الفهم ،وإنما حرمت العقول والقلوب من إدراك معاني القرآن ــ كما يرى الغزالي ــ بأربعة حجب:

ــ انصراف الهم إلى ظاهر التلاوة بتحقيق مخارج الحروف والتعمق فيها. والتعبد بالألفاظ دون ملاحظة المعاني .

ــ التقليد ،ويعتبره الغزالي الحجاب الأعظم الحائل بين القلب و إدراك الحقائق ،فمن جمد على مذهب سمعه بالتقليد، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع من غير تحقيق وتبصرة، يصير نظره موقوفا على سمعه ، فإن سمع يوما على بعد وبدا له معنى من المعاني حمل عليه شيطان التقليد حملة.وقال:كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟» (4):وهو يحمل

---

1 ــ الغزالي، الإحياء،ج1،ص38.

2 ــ لقب أطلق على المحدثين الذين جمدوا على الظاهر في العقيدة ،ويضعون القول بالتأويل. وهم بالنسبة للعقيدة كالظاهرية بالنسبة للفقه ،والغزالي يشير إليهم بالتشنيع كثيرا في كتبه. ينظر: الغزالي،مشكاة الأنوار،[ضمن القصور العوالي]،ص210.

3 ــ الغزالي،مشكاة الأنوار،ص210.

4 ــ الغزالي ، الإحياء ،ج1 ،ص284.

هذا المعنى على قول الصوفية كما ينقله : « إن العلم حجاب » مريدين بذلك العلم « العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم »(1) ،أما العلم الحقيقي، الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة، فكيف يكون حجابا وهو غاية المطالب ؟

ـ الإصرار على الذنوب ،وخاصة الكبر وحب الدنيا ،فقد قال تعالى ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ (الأعراف:146).يقول الغزالي: « وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير ،فقال تعالى: ﴿**تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾ (ق :8)وقال :﴿**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ**﴾ (غافر:13)وقال: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَـٰبِ**﴾ (الزمر:9)فالذي آثر غرور الدنيا ليس من ذوي الألباب،ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب » (2).

ـ الاقتصار على التفسير الظاهر.

2 ـ مراتب العبور إلى حقائق القرآن :

كعادة الغزالي في إعطاء الطرق العملية لتحصيل المعاني الشرعية المجملة،فإنه يصف الطريق الذي به يتدرج قارئ القرآن من الترتيل الظاهر الذي حدد آدابه ـ إلى المعاني الباطنة غير المحدودة ،وتلك المراتب هي :

أ ـ **استحضار عظمة القرآن** :لما لها من تأثير نفسي على القارئ لأن عظمة الرسالة بقدر عظمة مرسلها ،والقرآن الكريم هو رسالة الله وكلامه إلى عباده ،ولو لا لطف الله سبحانه بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته لما أطاق كلامه شئ (3)،وهذا الاستحضار النفسي له عند الغزالي خصوصا والصوفية عموما تأثير كبير في تلقي التالي واستعداده للفهوم التي يفيضها الله على عباده العارفين بعظمة كلامه، وذلك لأن فيها فتحا لمجالات مطلقة للقرآن الكريم لا يحدها التركيب اللغوي المحدود(4).

ب ـ **استحضار عظمة الله تعالى** : وذلك بأن يعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ،ولهذا كان بعض الصحابة ـ كما ينقل الغزالي ـ إذا نشر

---

1 ـ الغزالي ، الإحياء ،ج1 ،ص284.

2 ـ المصدر نفسه ،ج1 ،ص285.

3 ـ المصدر نفسه ،ج1 ،ص281.

4 ـ يقول شهاب الدين السهروردي:« للصوفي بكمال الزهد في الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية ،وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد،وله بكل فهم عمل جديد » ،انظر:شهاب الدين السهروردي،عوارف المعارف،[ملحق الإحياء]،ج5،ص511.

المصحف غشي عليه ،ويقول: «هو كلام ربي، هو كلام ربي »(1)،وطريق ذلك ـــ كما يرى الغزالي ـــ هو أن يحضر بباله عند بداية التلاوة العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما من الجن و الإنس و الدواب والأشجار،ويعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضته، مترددون بين فضله ورحمته ،وبين نقمته وسطوته ،إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله (2).

وهذا التعظيم التمهيدي هو غاية ـــ عند الغزالي ـــ في نفس الوقت ،لأنه بقدر تعظيمه عند القراءة يكون فهمه عن الله ،وبقدر فهمه عن الله تكون معرفته ويزداد تعظيمه .

ج ـــ **حضور القلب** :وهو ترك حديث النفس والانشغال بالقرآن عن غيره،وذلك ـــ كما يرى الغزالي ـــ يتولد عما قبله من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يقرؤه يسر به ويستأنس ولا ينتقل عنه ،زيادة على احتواء القرآن الكريم على كل ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلا له « فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره ،وهو في متنزه ومتفرج؟، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها »(3) .

وهو أيضا مرتبط بمدى علم القارئ بسعة القرآن الكريم التي هي فيض من مصدره الإلهي، فلذلك يقرأ كل مرة كلاما جديدا ،ويفهم فهما جديدا،وتفاض على قلبه أحوال جديدة ،وذلك كله ناف لصفة التكرار المسببة للغفلة وعدم حضور القلب ،وذلك كله لا يكون ـــ كما عبر عنه الغزالي في كل مناسبة ـــ إلا بالجد ،وهو التجرد له عند القراءة وانصراف الهم له عن غيره،ويفسر قوله تعالى:﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾ (مريم :12) بالجد و الاجتهاد(4)

د ـــ **التفهم** : وهو المقصود الأصلي من القراءة، وكل ما قبله تمهيد نفسي وعقلي له، لأن القرآن الكريم يحوي ـ كما يعبر الغزالي ـ كل العلوم ، ولكنه لا يمنح علومه إلا لمن يتأمله ويفكر فيه، أو كما يقول ابن مسعود رضي الله عنه :« من أراد علم الأولين و الآخرين فليثور القرآن » (5).

---

1 ،2 ـــ الغزالي، الإحياء ،ج 1 ، ص 281 .

3 ـــ المصدر نفسه ، ج 1 ،ص 282 .

4 ـــ المصدر نفسه ، ج1 ، ص281 .

5 ـــ المصدر نفسه ، ج1 ،ص283.

ويضرب الغزالي الأمثلة الكثيرة عن كيفية استنباط المفهوم من القرآن الكريم ،فإذا قرأ القارئ قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ » (الواقعة :58) يتأمل المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ،ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب ،و كيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل و الكتف وغيرها ،ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة أو الدميمة ،و يتأمل هذه العجائب ليرقى منها إلى ما هو أعجب ،و هو الصفة التي صدرت منها تلك الأعاجيب « فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع » (1) .

وإذا قرأ أسماء الله تعالى « يتأمل معاني هذه الأسماء والصفات ليتكشف له أسرارها ،فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموقنين» (2). والغزالي — كالصوفية جميعا — يعتبرون أسماء الله الحسنى المفاتيح التي تفهم بها حقائق الكون وتستكنه أسراره ؛ فلذلك يوليها العناية التامة لتفهم حقائق القرآن الكريم .

وهكذا إذا قرأ القارئ أحوال الأنبياء ،وما حصل لهم من أنواع البلاء يستنبط منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم ،و أنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر ذلك في ملكه شيئا (3).

هـ — التخصيص:وهو أن يقدر أنه المخصوص بكل خطاب في القرآن،فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهي والمأمور ،وإن سمع وعدا أو وعيدا فمثل ذلك: « وكيف لا يقدر هذا ،والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة ،بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين» (4).

ونتيجة ذلك — كما يرى الغزالي — أن لا تتخذ دراسة القرآن عملا ،بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله، ويعمل بمقتضاه. وينقل الغزالي في ذلك عن مالك بن دينار (5)قوله :« ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن ؟،إن القرآن ربيع المؤمن ،كما أن القرآن ربيع الأرض »(6)،ولا يكون ذلك إلا بالتعامل الجدي مع القرآن الكريم واعتبار كل

1،2،3 — الغزالي، الإحياء ،ج1،ص283.

4 — الغزالي ، الإحياء ، ج1 ، ص284 .

5 — هو أبو يحي مالك بن دينار من كبار عباد البصرة وصالحيها ،له حكم كثيرة ،توفي سنة 131 هـ ،انظر :ابن الجوزي ،صفة الصفوة ،ج2 ،ص165 .

6 — الغزالي ،الإحياء ، ج1 ،ص283 ،وانظر أقوالا له أخرى في ذلك في : ابن الجوزي ،صفة الصفوة ،ج2،ص165،166 .

ما فيه حكمة وفائدة في حق كل شخص بعينه، فليست قصصه ـ مثلا ـ سمر غير مقصود ،وإنما هي عبر و تثبيت لمن تأملها ،ولأجل هذا أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة القرآن الكريم باعتبار نزوله غير مختص به ﷺ ،بل هو متعلق بكل مكلف،فقد قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ** ﴾ (البقرة:231)(1).

و ـ **التأثر** :وهو تفاعل النفس مع القرآن الكريم بحيث يتأثر بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ،فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيرها.

ويذكر الغزالي أمثلة توضيحية لذلك ،فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت ،وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح ،وعند ذكر الله تعالى وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا خلاله و استشعارا لعظمته ،وعند ذكر الكفار وما يستحيل على الله عز وجل يغض صوته وينكسر في باطنه ،وعند ذكر الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها ،وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها (2).

وبذلك يشترك في القراءة اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعاني ،وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار ،فاللسان يرتل ،والعقل يترجم ،والقلب يتعظ .

وهذا التفاعل الوجداني مع القرآن الكريم هو ما كان عليه رسول الله ﷺوأصحابه ،فقد روي أن رسول الله ﷺ أمر ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن ،فقرأ عليه من سورة النساء إلى قوله تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ (النساء :41) ، فالتفت إليه فرأى عينيه تذرفان بالدمع .(3) ،ويعلق الغزالي على هذا الحديث بقوله: « وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية » (4).

ز ـ **الترقي** :وهو عدم التوقف عند حد معين أو مقام مخصوص لا يتجاوزه ، فكما أنه في تفهم القرآن يترقى عند كل قراءة إلى فهم جديد

---

1. ـ الغزالي ،الإحياء ، ج1 ،ص285 .

2 ـ الزبيدي، مختصر صحيح البخاري ، تحقيق إبراهيم عكاشة، الجزائر:الشركة الجزائرية، [كتاب التفسير]، ج2،ص404،رقم:1733.

3 ـ الغزالي ، الإحياء ، ج1 ،ص280.

ومعان جديد لم تكن تخطر له ،فكذلك في علاقته مع القرآن الكريم يترقى إلى أن يستشعر سماعه من الله تعالى ،فيرى في الكلام المتكلم . وفي الكلمات المتلفظات . فلا ينظر إلى نفسه ،ولا إلى قراءته ، بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدته عن غيره (1).

وهذه الدرجة كما يرى الغزالي هي درجة المقربين ،ودونها درجة أصحاب اليمين،وهي أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل،فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والضراعة ، أو أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألفاظه ،ويناجيه بإنعامه ،فمقامه عند ذلك الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم .وما خرج عن هذا يعبر عنه الغزالي بدرجات الغافلين ،وهم الذين ليس لهم حظ من القرآن غير ترتيل اللسان (2).

ح ــ **التبري**:وهو خاتمة مراتب التدبر المكونة لحقيقته .وفيها يعود العبد إلى أصله بعدما ترقى في معارج العرفان والفهوم ،فيستشعر حياء العبودية.فيتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين التعظيم والرضا . فإذا قرأ آيات الوعد ومدح للصالحين لا يشهد نفسه عند ذلك ؛ بل يشهد الموقنين والصديقين،ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم (3).

وهذا الشعور ،وهو عودة التالي إلى عبوديته ؛ هو الباب الذي منه تلوح أنوار الكشوفات والفهوم ،فهي كما يقول الغزالي:« لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها » (4).فالعبد إذا رأى نفسه بشورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه (5) .

هذه هي المراتب التي يضعها الغزالي للعبور إلى الحقائق القرآنية ،وهي ــ كما رأينا ــ تنبع من منهجه الإصلاحي المعتمد على إعطاء الطرق العملية للحقائق التي يتحدث عنها دون الغلو في المسائل النظرية ،وذلك ما يتيح لعامة وخاصة ــ على حد سواء ــ الاستفادة من الحقائق التي لا يكتفي فيها مجرد الإجمال أو الوعظ .

---

1 ،2ــ الغزالي،الإحياء،ج1،ص287.

3 ،4 ــ المصدر نفسه،ج1،ص288.

5 ــ وقد اتفق على هذا المبدأ السلوكي كل الصوفية كما يعبر عن ذلك ابن عطاء الله السكندري في حكمه بقوله: « أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ،وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها » .انظر:عبد المجيد الشرنوبي،شرح الحكم العطائية.تحقيق عبد الفتاح البزم ،ط1،عين مستأنف للدراسات،1991،ص45.

2 ــ مقاصد القرآن الكـــريم :

رأينا في المطلب السابق ضرورة استعمال آلية التدبر بمراتبها المختلفة للوصـــول إلى حقائق القرآن الكريم ،ولكن تلك الحقائق تختلف بحسب مقاصد المتدبرين واهتمامـــاتهم ،ولذلك قد توصف بالعمق أحيانا والسطحية أحيانا أخرى،والسبيل الذي يراه الغـــزالي لتعميق الحقائق القرآنية هو ربطها بمقاصدها، لأن شتات الفروع تتوحد في نقطة المقصـد ،و ربما يكون للغزالي السبق فيما يسمى ـ اليوم ـ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكـــريم . وذلك أثناء تقسيمه القرآن إلى محاور أساسية تدور عليها آياته،ثم الحديث عـــن تلـــك المحاور كما وردت فيه، وقد جمع في كتابه « جواهر القرآن » سبعمائة وثلاث وســـتين آية تتعلق بالمعرفة الإلهية ، وسبعمائة وإحدى وأربعين آية تتعلق بالسلوك لله تعالى . وقـــد سمى النوع الأول بالجواهر ،وسمى النوع الثاني بالدرر، و« الأول علمي، والثاني عمـــلي . وأصل الإيمان العلم والعمل » (1) ،ثم شرح جمل القسم الثاني في كتابه « الأربعـــين في أصول الدين »،وضمه إلى كتابه « جواهر القرآن » ،وأجاز كتابته مفردا (2) .

و هو ينطلق في تحديده لمحاور القرآن ومقاصده من هدف القرآن الكريم الأساســـي ـــ في رأيه ـــ وهو « دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة والأولى » (3) .فـــالقرآن هو المعرف بالله والداعي له،ولذا يحصر مقاصد القرآن ـــ على أساس ذلك ـــ في ســـتة أنواع،ثلاثة هي الأصول المهمة، وثلاثة هي التوابع المتممة،وهذه المقاصد هي :

أ ــ المقاصد الأصليـــة :

وهي التي تهدف إليها آيات القرآن الكريم بالدرجة الأولى، وتشمل في رأي الغـــزالي المعارف الأساسية الدالة على الحقائق الكلية الكبرى ،وهي:

1 ــ **معرفة الله تعالى** : فالقرآن الكريم هو الدليل الأكبر على الله ، والمعرف الأعظـــم به،وهو كما يقول جعفر الصادق (4) : «والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامـــه . ولكنهم لا يبصرون »(5) و المقاصد القرآنية المتعلقة بالله عند الغزالي هي:

أ ــ **معرفة الذات** :وهي أهم المعارف وأعزها وأضيقها مجـــالا وأعســـرها منـــالا وأعصاها على الفكـــر ،ولا يخـــوي القـــرآن الكـــريم منـــها إلا علـــى تلميحـــات

---

1 ــ الغزالي،جواهر القـــرآن ،ص85.

2 ــ الغزالي، الأربعين في أصـــول الديـــن،ص6.

3 ــ الغزالي، جواهر القـــرآن،ص23.

4 ــ هو جعفر بن محمد الباقر[80 ــ148هـ]،من أئمة آل البيت ،كان مشهورا بـــالعلم و الصـــلاح و التسامح ،تقي الاختراع من كل الطوائف سنية وشيعية،انظر: الزركلي، الأعلام،ج2،ص26.

5 ــ الغزالي، الإحيـــاء، ج1،ص287.

وإشارات ترجع في رأي الغزالي إلى أمرين :

ـ **التقديس المطلق** : وهو تنزيه الله تعالى عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير(1). ولذلك عرف الله تعالى ذاته لعباده بقوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ (الشورى :11) ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص:1 ـ 4)

ـ **التعظيم المطلق** : وهو امتلاء القلب مهابة لله وشعورا بالعجز والضآلة أمامه،نتيجة لفرط عدم إحاطة العقل بكنه حقيقته (2). كما قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ (الأنعام:100 ـ 101).

والتفكر في جلال الله وعظمته بالجمع بين هذين الأمرين هو الذي يثمر المعارف والأحوال الإيمانية، دون التفكر في المتشابه من الصفات. فإنه لا يثمر عند الجمهور من الناس إلا التشبيه والتمثيل.وهذا لم يرد في الأذكار الشرعية المسنونة عن رسول الله ﷺ إلا ما يشير إلى ذلك.

وقد أشار الدهلوي إلى ما ذكره الغزالي، وأيده بأن ما ورد من الأذكار عن رسول الله ﷺ لا يشير إلا للتنزيه والتعظيم فيما يتعلق بذات الله تعالى.يقول الدهلوي :« ... ومنها [أي من الأذكار الشرعية] **سبحان الله** وحقيقته تنزيهه عن الأدناس والعيوب والنقائص ،ومنها **الحمد لله**.وحقيقته إثبات الكمالات والأوصاف التامة له ؛فإذا اجتمعتا في كلمة واحدة كانت أفصح تعبير عن معرفة الإنسان بربه ،لأنه لا يستطيع أن يعرفه إلا من صفات ذات يسبب عنها ما نشاهده فينا من النقائص ،ويثبت لها ما نشاهده فينا من كمالات من جهة كونه كمالا »(3).

والغزالي ينتقد بشدة المشبهة الذين ينكرون التنزيه المطلق لله عن كل صفات الحوادث « حتى قال بعض الحمقى من العوام :إن هذا وصف نبضح هندي لا وصف إله ، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء »(4)،ويرد سبب ذلك إلى أن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ولا يعظم إلا نفسه.وكل ما لا يساويه في صفاته لا يفهم العظمة فيه. « بل لو كان للديك

---

1 ـ الغزالي، المقصد الأسنى،ص55.

2 ـ الغزالي،المقصد الأسنى ،ص96.

3 ـ الدهلوي،حجة الله البالغة،بيروت:دار المعرفة،ج2،ص33.

4 ـ الغزالي،الإحياء،ج4،ص434.

عقل. وقيل له :ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولاضيزان. لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ » (1)

ب ـ **معرفة الصفات** :وهي المجال الفسيح الذي يمكن الاطلاع عليه،دون إمكانية الإلمام به ،ولذلك كثرت الآيات المشتملة على العلم والقدرة والحياة والكلام والسمع والبصر وغيرها.وهي ـ أيضا ـ تستدعي الأمرين السابقين:**التنزيه والتعظيم** ،فإن صفات الله تعالت وتقدست أن تشابه صفاتنا.فلذلك يغلب على هذه المعرفة الإيهام والتشبيه، وهذا « ينبغي أن تقترن بنفي المشابهة،ونفي أصل المناسبة »(2)

وقد أشار إليه قوله تعالى في:«**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** »(الشورى:11).ثم عقب ببيان صفتين من صفاته قد توهمان التشبيه هما السمع والبصر،لارتباطهما بالنسبة لنا بالأذن والعين .قال تعالى :« **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** » (الشورى:11) .

ويرى الغزالي أنه بقدر معرفة المؤمن لصفات الله تعالى و تنزيهها وتعظيمها تكون معرفته بذاته تعالى .فمعرفة الصفات هي مدد معرفة الذات .ولذلك كثرت الأسماء الحسنى الدالة على عظمة صفات الله تعالى .

و هو يرى وجوب القول بتوقيفها بحيث لا نسمي الله إلا بما سمى به نفسه،أو سماه به رسوله ،مستدلا على ذلك بقياس مفاده أنه « إذا لم يكن لنا أن نسمي إنسانا ،أي نضع له اسما ،فكيف نضع لله اسما؟ » (3)، أما القول في الصفات فمتسع لأن الوصف إخبار ويجوز الإخبار ماداه صادقا وحاويا صفات المدح والجلال، «فلا نقول :يا موجود يا محرك يا مسكن،بل نقول :يا مقيل العثرات، يا منزل البركات ،ويا ميسر كل عسير ،وما يجري مجراه » (4)

ج ـ **معرفة الأفعال** : وهي المجال الأفسح والأيسر لمعرفة الله ،فمنها يرقى المتفكر لمعرفة الصفات التي هي المعراج لمعرفة الذات . ولذلك حوى القرآن الكثير من آيات الله وأفعاله كذكر السماوات والكواكب

---

1 ـ الغزالي، الإحياء،ج4،ص434.

2 ـ الغزالي،المقصد الأسنى،ص40.

3 ـ نقل الغزالي الخلاف في إطلاق الأسماء والصفات على الله تعالى،فوقع بين الأشعري والباقلاني،فالباقلاني يرى جواز ذلك إلا ما منع منه الشرع، أو أشعر مما يستحيل معناه على الله تعالى ،وذهب الأشعري إلى القول بتوقيفها . واختار الغزالي التفصيل.انظر: المعربي، المقصد الأسنى،ص104.

4 ـ المصدر نفسه،ص167.

والأرض والجبال والشجر والحيوان والبحار والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر أسباب الحياة ». (1) ،وقد أمر الله تعالى بالتفكر في هذه المخلوقات ، قال تعالى: « **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** » (آل عمران :190)

وقد انطلق الغزالي من الآيات التي تتحدث عن مخلوقات الله تعالى في كتابه « الحكمة في مخلوقات الله » إلى الحديث عن حكم تلك المخلوقات ،بأسلوب يمتزج فيه العلم بالتذكير ،وهو أسلوب القرآن الكريم في عد نعم الله على خلقه، و هو يستخدم هذا الأسلوب في «الإحياء » وغيره كلما دعت الضرورة إلى ذلك (2).

وينبه الغزالي إلى سعة عالم الملكوت والغيب مقارنة بعالم الشهادة ، يقول في مشكاة الأنوار : «اعلم أن عالم الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلى اللب، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور، وكالسفل بالإضافة إلى العلو ،ولذلك يسمى عالم الملكوت،والعالم العلوي ،والعالم الروحاني ،والعالم النوراني »(3) .

و هو ينبه إلى دور معرفة أفعال الله تعالى، سواء ما ظهر منها في عالم الشهادة،أو ما بطن في عالم الغيب والملكوت ، في التحقق بمعرفة الله تعالى بقوله : « ليس من يعلم أنه تعالى عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض وخلق الأرواح والأجساد ،واطلع على بدائع مملكته وغرائب الصنعة، ممعنا في التفصيل ،ومستقصيا دقائق الحكمة، ومستوفيا لطائف التدبير »(4).

2 ـ **السلوك إلى الله تعالى** :وهو الطريق الذي يصفه القرآن الكريم للوصول إلى الله تعالى ،ويرى الغزالي اجتماع كل سبل القرآن ومناهجه السلوكية في **التبتل** (5)، وهو الانقطاع التام لله تعالى والتفرغ له كما قال تعالى: « **وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** »(المزمل:8)

1ـ الغزالي، جواهر القرآن،ص26.

2 ـ انظر على سبيل المثال :الغزالي،الإحياء،ج4،ص435 ـ448

3 ـ الغزالي،مشكاة الأنوار،ص191

4 ـ الغزالي، المقصد الأسنى، ص42،43.

5 ـ التبتل ـ لغة ـ يعني الانقطاع ،يقال للعابد إذا ترك كل شيء ،وأقبل على عبادة قد تبتل،أي قطع كل شيء إلا أمر الله وطاعته،انظر:ابن منظور،لسان العرب،ج11،ص42،رقم:مادة.

وعمدة السلوك القرآني أمران : الملازمة والمخالفة .أما **الملازمة** فهي الاشتغال الدائم بذكر الله تعالى ،وأما **المخالفة** فهي ترك كل ما يشغل عن الله،ونتيجة هذا السلوك هي بلوغ الفلاح كما قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴾(الأعلى :14—15) (1)

قد جمع الغزالي الآيات المرشدة إلى طريق السلوك في كتابه « جواهر القرآن ودرره » ،ثم شرح تفاصيلها في « الأربعين في أصول الدين » .

3 ــ **معرفة اليوم الآخر** :وهو المصير الذي يلقاه العارفون أو الجاحدون،ويشتمل القرآن منه على ذكر النعيم الذي أعده الله لأوليائه والخزي والعذاب الذي يلقاه المبعدون عنه ،وفي هذا القسم ــ كما يرى الغزالي ــ مجال كبير للبحث والنظر باعتباره المصير الذي ينتظر البشرية جميعا. ولذلك أولاه القرآن الكريم العناية الكبرى ،ويحصي الغزالي ما ورد فيه من الآيات بأنه ثلث القرآن (2).

ب ــ المقاصد الفرعية :

وهي التي تتفرع عن المقاصد السابقة وتخدمها ،وهي ــ عند الغزالي ــ ثلاثة مقاصد هي :

1 ــ **القصص القرآني** : سواء ما تعلق منها بالأنبياء والصالحين، أو ما تعلق بالكفار والمنافقين،و فائدة هذا القسم كما يرى الغزالي هي التشويق والترغيب فيما يتعلق بالمحبين لدعوة الله السالكين سبيله، و الاعتبار والترهيب فيما يتعلق بأحوال الناكلين والناكبين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم (3).

وكأن الغزالي يدعو من خلال هذا القسم إلى استنباط سنن الله في المجتمعات كما ينص عليها القرآن ،كما رأينا ــ من قبل ــ دعوته إلى النظر في سنن الله الكونية، فكلاهما ميدان لمعرفة الله وسلوك سبيله ،وكلاهما حث القرآن الكريم على النظر فيه والاعتبار به.

2 ــ **البراهين القرآنية** : وهذا القسم يتعرض لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح أباطيلهم وكشفها ،وقد حوى القرآن الكريم كما يرى الغزالي على تفنيد ثلاثة أنواع من الأباطيل تعتبر من أصول الضلال الكبرى ،وهي :

أ ــ ذكر الله تعالى بما لا يليق به من أن الملائكة بناته وأن له ولدا وشريكا

1،2 ــ الغزالي، جواهر القرآن،ص28.

3 ــ المصدر نفسه،ص31.

وأنه ثالث ثلاثة.

ب ـ ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر أو كاذب ،وإنكار نبوته ،وأنه بشر كسائر الخلق فلا يستحق أن يتبع .

ج ـ ذكر اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية(1).

ويرى الغزالي إمكانية الاستغناء ببراهين القرآن العلمية ـ إذا ما تحققت آلية التدبر ـ عن أدلة المتكلمين وبراهينهم ،بل يمكن استنباط وجوه الحجج القاطعة التي يمكن الاستدلال بها فيما لم يذكره القرآن الكريم من شبهات(2).

3 ـ **الأحكام الفقهية** : ويشتمل هذا القسم على الحدود الشرعية التي تنظم أمر المعاش بأسباب الحفظ لوجوده ،وأسباب الدفع لمفسداته .

وبالتدبر في هذا القسم يمكن استنباط محاسن الشريعة ومصالحها وحكمها مما لا يوجد مثله في كتب الفقهاء (3)، ويبدي الغزالي اهتماما كبيرا ـ في هذا الموضع ـ ببيان مقاصد الشريعة وكلياتها، والتي ترجع إلى تنظيم أمر المعاش في الدنيا حتى يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله تعالى الذي هو المقصد الحقيقي من الوجود الإنساني.

وذلك التنظيم يستدعي أسباب الحفظ لوجوده،وأسباب الدفع لمفسداته. وكل حدود الشريعة يمكن إرجاعها عند الغزالي إلى هذين القسمين،وهو لهذا يعتبر الفقه من علوم الدنيا فـ « الفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات،فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا »(4).

هذه هي المقاصد الستة التي تدور حولها جميع آيات القرآن الكريم في رأي الغزالي ،وهو يدعو من خلال عرضها إلى التفكر فيها واستنباط أصناف العلوم منها ،فكل العلوم مغترفة من بحار القرآن الكريم (5).

---

1 ـ الغزالي،جواهر القرآن،ص31 ـ32.

2 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص33،34.

3 ـ الغزالي،جواهر القرآن،ص34.

4 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص17.

5 ـ وذلك من حيث الجملة لا التفصيل ،فإن إفحام العلوم في القرآن وتحميل ألفاظه ما لاتحتمل تكلف ممقوت، وصرف لألفاظه وتراكيبه عن مراداتها ،انظر:الشاطبي،الموافقات في أصول الشريعة،القاهرة،مصطفى التجارية،ج2،ص81.

ثانيا ــ السنة النبوية علما وعملا

يعتبر الغزالي التزام السنة النبوية الشريفة من أهم أصول منهاجه في الإصلاح الاجتماعي ،وذلك لأن دور المجدد أو المصلح ــ كما يتصوره ــ هو إعادة الثقة في النبوة وبما جاءت به علما وفهما وسلوكا ،يقول الغزالي عند بيانه لأسباب خروجه من عزلته: « ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ثم في حقيقة النبوة ثم في العمل بما شرحته النبوة » (1) .

وقد أجرى استبارا (2) لأسباب سريان ذلك الداء في المجتمع الإسلامي،فوجده يكمن في أربع طوائف:الفلاسفة ومبتدعي الصوفية والباطنية والمتعالمين من الناس .

أما المتأثرون بالفلاسفة فأجابوه مبررين انصرافهم عنها بما نقله الغزالي عنهم من قولهم: « لست أفعل هذا تقليدا ،ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ،وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات »(3) ، وأما الباطنية فيزعمون الاكتفاء بالإمام المعصوم،وأما أدعياء التصوف فيزعمون أنهم قد بلغوا مبلغا ترقى عن الحاجة إلى العبادة . وأما المتعالمون من الناس فقد كان انصرافهم عن الحق مع عنيهم به هو الداء الأكبر الذي نشر الاختلال الاجتماعي (4)، زيادة على ذلك ظهر في عصر الغزالي وقبله من يجيز وضع الحديث والكذب على رسول الله ﷺ زاعما أن قصده الإصلاح أو دعوة الخلق إلى الخالق(5) .

انطلاقا من هذا الواقع ،اعتبر الغزالي إحياء السنة بكل تفاصيلها ظواهرها وحقائقها،علمها وعملها أساسا لإعادة الثقة في النبوة ،وأصلا من أصول منهاجه الإصلاحي ، يقول في « الأصل العاشر » من « الأصول الأربعين »

---

1 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 136.

2 ــ هو إحدى الأدوات الهامة التي يستخدمها الباحثون في العلوم الاجتماعية ،وله تعاريف كثيرة ،منها :أنه تفاعل لفظي بين فردين في موقف المواجهة ،ويحاول أحدهما أن يستثير بعض المعلومات لدى الآخر حول خبراته وآرائه ومعتقداته ، انظر:د.محمد شفيق ،البحث العلمي ،ط 1 ، الإسكندرية :المكتب الجامعي الحديث ،1985 ،ص105،106.

3،4 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص137.

5 ــ الغزالي، إحياء علوم الدين ،ج 1 ،ص38.

الذي خصصه لاتباع السنة : « اعلم أن مفتاح السعادة اتباع السنة والاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته حتى في هيئة أكله وقيامه ونومه وكلامه ،وفي جميع أمور العادات ،فبذلك يحصل الاتباع المطلق قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ (آل عمران:31)،وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) » (1).

وبناء على ما أشاعت تلك الطوائف من شبهات أو ما أدخلت في السنة من الخرافات في الفهم أو في التطبيق دعا الغزالي إلى التزام مجموعة من الضوابط العلمية والعملية،تنفي عن السنة تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين (2).وفي نفس الوقت تكتسب الالتزام بالسنة أبعاده التربوية الإصلاحية.وسنتناول في هذا المبحث أهم هذه الضوابط.

1 ـ التثبت من صحة الأحاديث سندا ومتنا:

وذلك حسب الموازين العلمية الدقيقة التي وضعها المحدثون ،والتي تتمثل السند والمتن جميعا :

أ ـ **السند** : يرى الغزالي قبول أخبار الآحاد ،ووجوب التعبد بها كما ذهب إلى ذلك جمهور علماء أهل السنة .يقول الغزالي : « والصحيح الذي ذهب إليه الجماهير من سلف الأمة من الصحابة والتابعين والفقهاء والمتكلمين أنه لا يستحيل التعبد بخبر الواحد عقلا ،ولا يجب التعبد به عقلا،وأن التعبد به واقع سمعا » (3) ،وعدم وجوب التعبد به عقلا راجع لاحتمالات الضعف أو الوضع أو النسيان الكثيرة التي تتعلق بالحديث (4)، أما وجوب التعبد به سمعا فينقل الغزالي من أدلة ذلك إجماع الصحابة ﷺ على قبول أخبار الآحاد،وكذلك ما تواتر من إرسال رسول الله ﷺ الولاة والرسل إلى البلاد

---

1 ـ الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص68.

2 ـ جزء من حديث نبوي ذكره ابن القيم ،وقواه لتعدد طرقه ،انظر: ابن القيم، مفتاح دار السعادة، بيروت :دار الكتب العلمية ،ج1،ص163 ـ 164.

3 ـ الغزالي، المستصفى من علم الأصول،ج1،ص148. وقد ذهب بعض العلماء ،منهم الإمام أحمد والحارث المحاسبي والكرابيسي إلى أنه يفيد القطع .انظر :الآمدي ، الإحكام، مصعة معارف، 1914م ،ج1،ص108.

4 ـ علل النووي عدم قطعية خبر الآحاد ولو كان صحيحا بجواز الخطأ والنسيان على الثقة. وهو هذا الرأي لأكثر المحققين . انظر:جلال الدين السيوطي ،تدريب الراوي شرح تقريب النواوي،ط.مصر،1307هـ،ص41.

وتكليفه إياهم وتصديقهم فيما نقلوه من الشرع.

وهو يرى وجوب التعبد به ولو فيما تعم به البلوى (1)، خلافا لأهل الرأي، وتحليله لأسباب ذلك ينبئ عن فهم عميق لما يجب أن يشاع من العلم. وما يمكن أن يظل متداولا بين الفقهاء والخاصة، ولا ضرر على العوام من جهله، يقول في ذلك : « إن الله تعالى لم يكلف رسوله ﷺ إشاعة جميع الأحكام، بل كلفه إشاعة البعض وجوز له رد الخلق إلى خبر الواحد في البعض» (2)،وهذا بناء على قاعدته في صرف العوام عن فروع العلم لتفريغهم لأصوله،وللصناعات التي هم بصددها،وقد قسم ـ انطلاقا من ذلك ـ السمعيات بعد استقرائها إلى أربعة أقسام :

ـ **القرآن الكريم** ،وهو الذي اهتم الشارع بحفظه و إشاعته بالدرجة الأولى حتى ورد النهي عن كتابة الحديث خشية اختلاطه بالقرآن (3).

ـ **أصول الإسلام الكبرى** ،كالشهادة والصلاة والزكاة وغيرها ،وقد أشاع العلم بها ـ أيضا ـ حتى اشترك في معرفتها العام والخاص .

ـ **أصول المعاملات غير الضرورية** ،كأصل البيع والزواج وغيرها من أنواع العقود، ولم يشارك العوام العلماء في ذلك ،بل فرض على العوام فيه القبول من العلماء .

ـ **تفاصيل الأصول السابقة** ، كمعرفة ما يفسد الصلاة والعبادات وينقض الطهارة وآحاد السنن ،ولو كانت فيما تعم به البلوى . فلا استحالة فيه،ولا مانع من اقتصار النقل فيه على الآحاد (4).

ولكن الغزالي مع قبوله خبر الآحاد يشتد في وجوب نقدها ،وتمحيص المقبول من المردود منها ، وخاصة الموضوع، فهو ينتقد بشدة الوضاعين أومن يروي عنهم مع العلم بذلك ،يقول في الإحياء :« وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال، وفي التشديد في المعاصي ، وزعموا أن القصد

---

1 ـ هو ما يحتاج الناس إلى بيانه ،إذ أن ما شأنه كذلك تتوافر الدواعي على نقله بطريق التواتر أو الشهرة ،انظر: وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي ،ط1،دمشق:دار الفكر،1406هـ ، 1986م،ج1،ص471.

2 ـ الغزالي، المستصفى من علم الأصول ،ج1،ص172.

3 ـ كقوله ﷺ: « لاتكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولا حرج » ،انظر: مسلم ، الجامع الصحيح ،[الزهد والرقائق]، ج4،ص2298 رقم:5326.

4 ـ الغزالي، المستصفى ،ج1،ص172.

صحيح .وهو خطأ محض، إذ قال رسول الله ﷺ : « **من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » (1) (2). ويرد على هذا بأن ما ورد في الآيات والأحاديث غنية ، أما تلبيس الشيطان للوضاعين بأن النفوس أرغب في الجديد،وأن الملل يقع بسبب تكرار الأحاديث المشتهرة فـ « هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا » (3).ويعقب على ذلك بقوله:« والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء » (4).

ولابد من التفريق ـ هنا ـ بين الكذب على رسول الله ﷺ الذي هو من الكبائر،وبين رواية الموضوع مع الجهل بوضعه ،فإن ذلك لم يخل منه حفاظ الحديث والمتفرغون له، فكيف بالعامة وغير المتخصصين من العلماء ؟. وقد أصاب الغزالي من هذا النقد الشيء الكثير (5).

و يمكن تقسيم الأحاديث التي وردت في « الإحياء » بحسب قبولها وردها إلى الأقسام الثلاثة التالية :

1 ـ **الأحاديث المقبولة** :وهي الصحيحة بنفسها أو بغيرها .و الحسنة بنفسها أو بغيرها (6)، ومثل هذه الأحاديث نجده يذكرها غالبا عند بيانه

---

1 ـ مسلم ، الجامع الصحيح ،[الزهد والرقائق] ج8،ص229، رقم:5326.

2 ، 3 ، 4 ـ الغزالي،الإحياء،ج3،ص139.

5 ـ ذكر ابن كثير بعض الذين شنعوا على الغزالي إيراده لبعض الأحاديث المنكرة والغريبة والموضوعة ،كأبي الفرج بن الجوزي ،وابن الصلاح ،و المازري ،وقد كان من أشدهم إنكارا حتى أنه أراد أن يحرق الإحياء مع بعض المغاربة القائلين : هذا كتاب إحياء علوم دينه ،أما ديننا فواجب علومه كتاب الله وسنة رسوله،انظر:ابن كثير،البداية والنهاية،ج12،ص663.

6 ـ الصحيح بنفسه أو لذاته هو ما اشتمل من صفات القبول على أعلاها . أما الصحيح لغيره فهو ما صحح لأمر أحتف عنه .[انظر: جمال الدين القاسمي ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، دمشق: مطبعة ابن زيدون،1925م، ص56.]. أما الحسن لذاته فهو ما خف ضبط راويه . وأما الحسن لغيره فهو ما في إسناده مستور لم تتحقق أهليته،ولا عدم أهليته ،غير أنه ليس مغفلا كثير الخطأ ولا متهما بالكذب ، ويكون متنه معضدا بمتابع أو شاهد [انظر: محمد بن إسماعيل الصنعاني، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط1، القاهرة ، ج1،ص188.]

للأحكام الشرعية وأدلتها ، فمثلا في كتاب « آداب السماع والوجد » من « الإحياء » عند بيان الدليل على إباحة الغناء يرجع إلى الصحيحين ويقل الخلاف في الروايات ، يقول بعد بيانه ذلك : « فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين، وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام » (1)

2 ـ **الأحاديث الضعيفة** :وتشكل نسبة كبيرة من أحاديث « الإحياء » و أغلب مواضعها أبواب الفضائل منه ، ويمكن الاعتذار له في روايتها بما يلي:

أ ـ أنه يذكرها استئناسا بعد التقديم لها بالنصوص القرآنية ،وإحاطتها بغيرها من الأحاديث المقبولة والآثار عن الصحابة والتابعين،و أخيرا ببيان البرهان العقلي على فضيلة ما يتحدث عنه ، وكأنه بذلك يشير إلى قبولها ـ عموما ـ بسبب عدم مصادمتها لنص صريح أو قواعد ثابتة أو حكم عقلي(2).

ب ـ أن مراجعة أحاديث « الإحياء » الضعيفة من حيث الأسلوب أو المعنى العام لا تشير إلى أي ركاكة لفظية أو معنوية، على خلاف الأحاديث شديدة الضعف الموجودة في كثير من كتب التذكير والوعظ ،بل حتى كتب التفسير والحديث .

ج ـ أن الحديث الضعيف غير محكوم عليه بالرد مطلقا، بل هو موضع احتمال لأنه يمكن أن يكون ذلك الراوي قد صدق في ذلك الحديث، أو يكون ما فيه من إرسال أو انقطاع (3) موصول في طرق أخرى ، وكثيرا ما نرى المتأخرين يصححون ما ضعفه الأولون ، ولهذا فإن كثيرا من الأحاديث التي قال عنها « الإمام العراقي » ـ مخرج أحاديث « الإحياء » ـ : « لا أصل لها » بين الإمام « الزبيدي » ـ شارح « الإحياء » ـ أصلها ،وكثيرا من الأحاديث التي حكم العراقي بضعفها بين الزبيدي قبولها من وجه آخر غير الوجه الذي رواها به العراقي .

---

1 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص278.

2 ـ المشهور أن شروط العمل بالحديث الضعيف ثلاثة ،وهي: ألا يكون شديد الضعف ، وأن يندرج تحت أصل كلي ثبت بالكتاب أو السنة الصحيحة ، وألا يعارضه دليل أقوى منه ، انظر: د.صبحي الصالح ، علوم الحديث ومصطلحه ، ط12، بيروت: دار العلم للملايين،1981،ص212.

3 ـ المرسل هو ما سقط من سنده الصحابي ، وسبب ضعفه هو فقد الاتصال في السند . [انظر:القاسمي،قواعد التحديث، ص114.] ، أما المنقطع فهو الحديث الذي سقط من إسناده رجل، أو ذكر فيه رجل مبهم [انظر: الصنعاني، التوضيح،ج1،ص280.

د ـ أن أكثر العلماء يجيزون الاستدلال بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال . وقد اشتهر عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قوله : « إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد ،و إذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال، وما لا يضع حكما ولا يرفعه ، تساهلنا في الأسانيد » (1) ، وقال الإمام « المنذري » في مقدمة كتابه « الترغيب والترهيب » :« إن العلماء أساغوا التساهل في أنواع من الترغيب والترهيب.حتى إن كثيرا منهم ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله. » (2)،وقال الإمام « عبد الرحمان بن مهدي » (3):« إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال ،وإذا روينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات تساهلنا في الأسانيد »(4)،وقال ابن كثير عن الأحاديث التي يرويها الغزالي بعد ذكره لورود هذا النوع من الأحاديث في الإحياء :« كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام .فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمرا من غيره . (5)،فهؤلاء كلهم حفاظ للحديث ومتخصصون فيه ،ومع ذلك أجازوا الأخذ بالحديث الضعيف ،فكيف بالغزالي ؟

3 ـ **الأحاديث الموضوعة** :وتشكل نسبة قليلة من « الإحياء » ،مع الملاحظة التي أثبتناها من ضرورة مراجعة الزبيدي في شرحه « الإحياء » لأنه بين الأصول التي لم يتنبه لها العراقي ، أما الأحاديث الموضوعة ظاهرة الوضع أو التي أجمع العلماء على وضعها فهذه يمكن طرحها من « الإحياء » بالتهذيب ـ وخاصة في النسخ المتبادلة بين العامة ـ ، فالغزالي أجاز التصرف في كتبه وتصحيح ما فيها ،ويمكن الاعتذار للغزالي بأن التمكن من علم الحديث في ذلك

---

1 ـ نقلا عن : الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ،حيدرآباد : دائرة المعارف العثمانية ،1357هـ ،ص133.

2 ـ الحافظ المنذري ، الترغيب والترهيب، تحقيق محمد علي قطب، ط1،بيروت:دار القلم 1982م،ج1،ص13.

3 ـ هو عبد الرحمان بن مهدي البصري اللؤلؤي [135 ـ198هـ]،من كبار حفاظ الحديث ومصنفيه .انظر:الزركلي ،الأعلام،ج3،ص339.

4 ـ نقلا عن : الحاكم النيسابوري،، المستدرك،حيدرآباد:دار المعارف العثمانية،1334هـ،ج1،ص11.

5 ـ ابن كثير ،البداية والنهاية،ج2،ص663.

العصر يستدعي التفرغ التام، فلم تظهر المراجع الميسرة للبحث والتخريج إلا عند المتأخرين المتفرغين ،وقد كان الغزالي مخيرا بين التفرغ للحديث نقلا وتصحيحا وبين الاهتمام بالجانب الثاني من الحديث ،وهو الفهم والبحث عن الحقائق والأسرار،وذلك ما ارتضاه لنفسه وما ارتضاه له من بعده ،وقد قال معتذرا عن نفسه :« أنا مزجي البضاعة في الحديث » (1).

أما أمر الأحاديث فهين لأن كل مطالع للإحياء ـ في هذا العصر وقبله ـ يجد تخريج الأحاديث أمامه ،وبكل سهولة ، فالضعيف مبين ضعفه، والموضوع مصرح بوضعه ، فانتفى الخطر، ولا معنى للتحذير من « الإحياء » بعد هذا بهذه الحجة.

ب ـ **الضبط** :وهو سماع الراوي بالرواية كما يجب، وفهمه لما فيهما دقيقا ،وحفظه لها حفظا كاملا لا تردد فيه، وثباته على هذا كله من وقت السماع إلى وقت الأداء (2)،وأهم مرتبة في الضبط هي السماع لتوقف غيرها من المراتب عليها،وقد أصبح في عصر الغزالي ـ كما يعبر عنه ـ مجرد رسوم وضعها المحدثون « فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ ، والحديث يقرأ ،والشيخ يناء ،والصبي يلعب ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع ؛فإذا كبر تصدى ليسمع منه ، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط ،وربما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به، ولم يعرفه » (3) .

والغزالي يحرم التصريح بهذا النوع من السماع لأنه كذب صريح ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد (4)،والسبب الذي يراه الغزالي في انتشار هذه الظاهرة هو ما كان للمحدثين من جاه وقبول. « فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك، فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم ،وتقل أيضا أحاديثهم التي سمعوها بهذا الشرط » (5) .

والسماع الذي يصح ويعتمد في النقل كما يرى الغزالي هو أن يصير « سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله ﷺ ،وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت ،وتحفظ كما سمعت ، بحيث لا تغير منه حرفا .

---

1 ـ ابن كثير، البداية والنهاية،ج12،ص663.

2 ـ الغزالي، المستصفى،ج1،ص165.

3 ـ الغزالي، الإحياء، ج3،ص307.

4 ، 5 ـ المصدر نفسه،ج3،ص398.

ولو غير غيرك منه حرفا، أو أخطأ علمت خطأه »(1) .

ويلي السماع الحفظ ،وله طريقان :« أن تحفظ بالقلب و تستديمه بالذكر،وهذا هو المقصود الأصلي من الحفظ ،أو أن تكتب كما تسمع . وتصحح المكتوب ، وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره » (2)، وهو يستدل لهذا التشدد في الضبط بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** ﴾ (الإسراء :36)،ولكنه مع ذلك ،وللضرورة ،يرى جواز رواية الأحاديث بالمعنى لمعرفة بمواقع الخطاب ودقائق الألفاظ ،ويستدل على جوازه بالإجماع على جواز شرح الشرع للأعاجم بلسانهم « فإذا جاز إبدال العربية بعجمية ترادفها فلأن يجوز عربية بعربية ترادفها وتساويها أولى ، وكذلك كان سفراء رسول الله ﷺ في البلاد يبلغونهم أوامره بلغتهم » (3)، ولكن ذلك لا يكون إلا فيما لم تتعبد بلفظه كالتكبير والتشهد ونحوها.

2 ـ تفهم المعاني العميقة للأحاديث النبوية :

يرى الغزالي أن العلوم المرتبطة بالحديث الشريف تنقسم إلى قسمين ـ مثلها مثل العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم ـ :علوم الصدف، و علوم الجوهر .أما علوم الصدف أو القشر، فهي العلوم المرتبطة برواية الحديث وشرحه « فدرجة الحافظ الناقل كدرجة معلم القرآن الحافظ له ،ودرجة من يعرف ظاهر معانيه كدرجة المفسر ،ودرجة من يعتني بعلم أسامي الرجال كدرجة أهل النحو واللغة،لأن السند والرواية آلة النقل ،و أحوالهم في العدالة شرط لصلاح الآلة للنقل»(4).

وهو ينتقد استغراق محدثي عصره في سماع الأحاديث وجمع الروايات الكثيرة منها ،وطلب الأسانيد الغريبة العالية « فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول :« أنا أروي عن فلان ،ولقد رأيت فلانا ،ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري » »(5) ، وكل ذلك مع الغفلة عن طلب المعاني وتفهم الحقائق ،فهم كما يعبر الغزالي «كحملة الأسفار ،فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة » (6).

---

1 ،2 ـ الغزالي،الإحياء، ج3،ص397.

3 ـ الغزالي، المستصفى، ج1،ص 169.

4 ـ الغزالي، جواهر القرآن ،ص38.

5 ،6 ـ الغزالي، الإحياء، ج3،ص397.

وأما علوم الجوهر واللباب فآليتها التدبر ــ مثلما سبق بيانه عند الحديث عن القرآن الكريم ــ ،وثمراتها العلوم والمعارف و الفهوم ،والأساس النفسي لذلك هو التعظيم بشقيه :

ــ تعظيم رسول الله ﷺ واعتقاد منزلته وكرامته عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ ، تلك الكرامة التي لا يمكن تصورها أو التعبير عنها إلا بما عبر به القرآن الكريم أو رسول الله ﷺ فـ « يستحيل أن يعرف النبي إلا النبي . وأما من لا نبوة له ،فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنها خاصية موجودة لإنسان ما يفارق من ليس نبيا ، ولكن لا يعرف ماهية تلك الخاصة إلا النبي خاصة » (1)،ونلاحظ ــ في هذا المجال ــ تركيز الغزالي على خاصية « النبوة » ،لأن شرف الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وكرامتهم عند الله والعلوم الوهبية الخاصلة لهم ،كلها نتيجة لتلك الموهبة العظمى موهبة النبوة ،وتفهم هذه الموهبة ــ والتي هي الأساس الأول في التفهم العميق للسنة الشريفة ــ يستدعي السلوك وتطهير القلب أو « التصوف » كما يفهمه الغزالي فمن لم يرزق منه شيء بالذوق ، لا يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم (2).

ــ تعظيم ما جاء به واعتقاد أنه ليس كلاما أو تصرفا عاديا قد يصدر من أي شخص ، بل إن كل كلمة من كلماته نحر من نحار العلم ،يقول الغزالي : « إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه على أعلى درجات النبوة » (3)،هذا هو الطريق الذي يراه الغزالي سبيلا للإيمان بالنبوة وبكل ما جاءت به ،يقول الغزالي : « فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة ،لا من قلب العصا ثعبانا ، وشق القمر ،فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده و لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل » (4).

انطلاقا من هذا الشعور النفسي بالقيمة الكبرى لرسول الله ﷺ ولكلامه ــ في رأي الغزالي ــ تبدأ الفهوم والمعاني العميقة والأسرار تتنزل على قلوب المهتمين بالسنة المعظمين لها ، لأن أكثر المعاني العميقة وهبية لا كسبية ، ومحل الكسب منها هو التطهير ورفع الحجب والتعظيم فقط ــ كما سبق بيانه ــ.

ولا يشترط في هذه الفهوم إمكانية التعبير عنها أو تحديدها بالألفاظ لأن

---

1 ــ الغزالي،المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص40.

2 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص128.

3 ،4 ــ المصدر نفسه،ص133.

أكثرها ذوقي و « الذوق كالمشاهدة والأخذ باليد » (1) ،فهو علاقة وجدانية مع الرسول ﷺ وكلامه بحيث يظل طالب الفهم يستمد منه كل مرة فوائد تقصر العبارة عنها .

ويشترط الغزالي لصحة الفهم عدم « صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة [لأن]الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ،وبغير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ،اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ » (2) ،ومن الأمثلة التي يضربها الغزالي على ذلك تأويل قوله ﷺ:« **تسحروا فإن في السحور بركة** » (3) بحمل السحور على الاستغفار ،لأن مورد الحديث يدل على أن المراد بالتسحر طعام السحور فقد كان ﷺ يتناول الطعام ويقول :« **تسحروا** » (4) ،فمثل هذا التأويل يقول عنه الغزالي : « وكل ذلك حراء وضلالة وإفساد للدين على الخلق ،ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق و وعظهم » (5).

ويرى الغزالي أن أكثر الأخطاء في الفهم وأشنعها يرجع إلى تبديل معاني الألفاظ الشرعية التي تعارف عليها أهل القرن الأول بغيرها من المعاني حتى أصبحت الألفاظ الشرعية كسوة الانحرافات والبدع والضلالات . وأصبحت السنة بذلك دليلا لتلك الانحرافات ،يقول الغزالي : « اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول »(6). ومن الألفاظ التي كان لتبديل معانيها أثر سيئ على المجتمع الإسلامي — في رأي الغزالي — : « التذكير » و« مجالس الذكر » التي وردت الأحاديث الكثيرة في فضلها كقوله ﷺ : « **إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا** » (7). قيل : وما

---

1 — الغزالي ، المنقذ من الضلال ،ص134.

2 — الغزالي، الإحياء، ج1،ص37.

3 — مسلم،الجامع الصحيح،[كتاب الصيام]،ج2،ص770 ،رقم:1835.

4 — الغزالي، الإحياء، ج1،ص37.

5 — المصدر نفسه،ج1،ص31—32.

6 — الترتع : الأكل بشره ،شبه الخوض في ذكر الله بالرتع في الخصب، انظر: ابن منظور، لسان العرب،ج8،ص112،رقم:5114.

رياض الجنة ؟ قال : « **مجالس الذكر** » (1) ،حيث نقل معناها إلى « ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه ،وهو القصص والأشعار و تنميق الطامات » (2)،أما معناها في عهد السلف – وكنموذج على ذلك ينقله الغزالي من الآثار المنقولة عن الحسن البصري – « فكان في الكلام في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ،والتذكير بآلاء الله ونعمه وتقصير العبد في شكره وتعريف حقارة الدنيا وعيوبها وخطر الآخرة وأهوالها » (3).

والخلاصة أن تعظيم رسول اللهﷺ واستشعار أهمية وعمق وسعة كل حديث أو سنة تصدر عنه مع المحافظة على ظواهر الألفاظ الشرعية ينتج العلوم الكثيرة والفهوم العميقة ،فقد كان ﷺ لا ينطق عن الهوى « **إن هو إلا وحي يوحى** » (النجم :4) .

3 ـ تتبع مواضع القدوة من السنن :

يعتبر الغزالي العمل بالسنة وتتبع مواضع القدوة منها الهدف الأسمى والثمرة الأخيرة من طلب علمها . ويحكي في ذلك عن بعض المشايخ أنه حضر مجلس سماع فكان أول حديث روي قوله ﷺ : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** » (4) ، فقام وقال :يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره (5).

وهو لذلك يفسر الاتباع المقصود في قوله تعالى : « **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** » (آل عمران :31) بالاتباع المطلق لرسول ﷺ في جميع مصادره وموارده و حركاته وسكناته . وهذا يذكر في كل باب من أبواب العبادات أو العادات دقائق السنن الواردة فيها « فلا ينبغي أن تتساهل في ذلك فتقول : « هذا مما يتعلق بالعادات ، فلا معنى للاتباع فيه ،لأن ذلك يغلق عنيك بابا عظيما من أبواب السعادة » (6) ،وهو يعتبر الوارث الكامل للنبيﷺ

---

1 ــ الترمذي . السنن ، [كتاب الدعوات]،ج 5 ،ص 231 ،رقم:3432.

2 ــ الغزالي، الإحياء، ج1،ص34.

3 ــ المصدر نفسه، ج1،ص35.

4 ــ ابن ماجة ، السنن ،القاهرة: دار الكتاب المصري،بيروت: دار الكتاب اللبناني.[كتاب الفتن]،ج2،ص1316،رقم:3976.

5 ــ الغزالي، الإحياء، ج3،ص398.

6 ــ الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص69.

من « اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا درجة واحدة هي درجة النبوة ،وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث » (1).

ومع هذه الدعوة للالتزام بالسنن يناقش الغزالي الشبه التي يقع فيها الكثير من الحرفيين الذين لا يفرقون بين مواضع القدوة من السنن وبين ما هو فعل للرسول ﷺ خاصة ،وليس مقصودا به الاقتداء ، ومن تلك الشبه :

ـ الاحتجاج بقوله تعالى :﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾(الأحزاب:21)

ـ أن رسول الله ﷺ نبي وتعظيم النبي واجب ، والتأسي به تعظيم .

ـ أنه لو لم يتابع في أفعاله جاز أن لا يتابع في أقواله ،وذلك تصغير لقدره وتنفير للقلوب عنه .

ـ الاحتجاج ببعض الأخبار عن الصحابة ﷺ في إقتدائهم بأفعال الرسول ﷺ كتقبيل ابن عمر ﷺ للحجر الأسود وقوله : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولو لا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك »(2).

ومن الردود التي ذكرها الغزالي ، ونستطيع من خلالها تصور موقفه من هيئة الالتزام بالسنة ما يلي :

ـ أن الآية أمرت بالتأسي به ﷺ في الفعل الذي أوقعه على ما أوقعه . فإذا فعلنا على قصد الندب ما فعله ﷺ بنية الوجوب أو الإباحة لم نكن مقتدين به . كما أنه إذا قصد الندب فأوقعناه واجبا خالفنا التأسي « فلا سبيل إلى التأسي به قبل معرفة قصده ،ولا يعرف قصده إلا لقوله أو بقرينة » (3).

ـ أن تعظيم النبي ﷺ بالاقتداء به لا يكون في تلك الأمور . وإنما في طاعته فيما يأمر به ،أو ينهى عنه ، كما أن تعظيم الملك في الانقياد له ، « لا في التربع إذا تربع ، ولا في الجلوس على السرير إذا جلس عليه » (4) .فلو نذر الرسول ﷺ أشياء لم يكن تعظيمه في أن تنذرها مثلما نذرها ،ولو طلق أو باع أو اشترى لم يكن تعظيمه في التشبه به (5).

---

1 ـ الغزالي، الإحياء،ج1،ص142.

2ـ الزبيدي،مختصر صحيح البخاري،الجزائر:مكتبة الشباب[كتاب الحج]،ج1،ص184،رقم:808.

3 ـ الغزالي، المستصفى، ج2،ص217.

4،5 ـ المصدر نفسه،ج2،ص218.

ـ أن عدم متابعته ﷺ في بعض أفعاله لا يعني عدم التعظيم له ،ولو كان الأمر كذلك ـ لكان تركنا للوصال ، وتركنا نكاح تسع ، بل تركنا دعوى النبوة تصغيرا »(1).

ـ أن الآثار المنقولة عن الصحابة ﷺ في إقتدائهم بأفعاله ﷺ أكثرها متعلق بالشعائر التعبدية كالصلاة والصوم و الوضوء و الحج غيرها ، وقد كان ﷺ بين لهم أن شرعهم فيها هو شرعه .

فالالتزام بالسنة إذا ـ كما يتصوره الغزالي ـ هو الاقتداء به في أوامره ﷺ ونواهيه ،فأما غير ذلك من هيئات مما لم يدل دليل على كونه مقصودا به الاقتداء ، فينظر إلى معناه وحقيقته وروحه . والسنة بهذا المفهوم لا تعني النقل الحرفي لما كان عليه ﷺ في بيئته وعصره مع تناسي التغيرات البيئية أو الزمنية ، واعتبار كل مخالفة لذلك بدعة ؛ بل تعني البحث عن المقاصد الكلية والخصائص العامة وتطبيقها في كل مجتمع وكل عصر بحسب الحاجة إلى ذلك .

فالبدعة إذا هي مصادمة السنة ومعارضتها. أما غير ذلك فإن الغزالي لا يعتبرها بدعة ،ولو لم تكن في عهده ﷺ أو عهد أصحابه ، يقول الغزالي عند بيانه لجواز النقط والعلامات بالحمرة وغيرها على المصاحف بعد نقطه لكراهية الكثير من العلماء لذلك (2) :« ولا يمنع من ذلك كونه محدثا ، كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر ﷺ، وإنها بدعة حسنة »(3) ثم يعقب مقررا : « إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها ».(4)

ومع ذلك فإن الاقتداء به ﷺ في ذلك من باب المحبة والشغف بما يحب دون اعتقاده سنة ،أو إلزام الناس به من المستحبات المشروعة ،وهو ما كان عليه الكثير من الصحابة ﷺ (5).

---

1 ـ الغزالي،المستصفى،ج2،ص218.

2 ـ من الذين كرهوا ذلك إبراهيم النخعي والشعبي ،وذلك سدا لذريعة إحداث زيادات في القرآن ،باعتبارهم مقاربين لزمن نزوله ، أما في العصور التي تلتهم فقد ارتفع الحرج ،بل إن من المعاصرين لهم من أجاز ذلك للفائدة المرجوة منه.ومنهم الحسن البصري،انظر:الغزالي،الإحياء،ج1،ص276،277.

3،4 ـ الغزالي، الإحياء،ج1،ص276.

5 ـ انظر على سبيل المثال:الغزالي،الإحياء،ج2،ص370،371.

ثالثا _ التصوف السني سلوكا ومعرفة :

يعتبر التصوف من أهم أصول منهج الغزالي الإصلاحي ،فهو الاتجاه الذي توجه إليه بعد جولا نه في الطوائف وسبره لأغوار الفرق ،وهو كذلك النتيجة التي خلص بها من فترة عزلته الطويلة ،يقول في « المنقذ من الضلال » : « وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها و استقصاؤها،والقدر الذي أذكره لينتفع به :أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ،وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق » (1) .

وهو يقف بالتصوف في وجه التيار العقلي الجارف الذي غلب على المباحث العقدية الكلامية ،والتي أحالت الإيمان إلى قضايا عقلية مجردة جافة لا يفهمها العامة، ولا يتأثر لها الخاصة ، ويقف به كذلك في وجه العقلية الفقهية التي غلب عليها التفريع والجدل والبحث في ظواهر الشريعة دون الغوص في حقائقها وأسرارها،وسنتحدث في هذا المبحث عن سنية تصوف الغزالي في جانبيه السلوكي أو المعرفي :

1 ـ السلوك الصوفي :

وهو الطريق الذي يسلكه المريد لطلب المعرفة الإلهية ، وقد اختلفت المدارس الصوفية قديما وحديثا في تحديده ، وبالرجوع إلى كتب الغزالي نجد نوعين من السلوك:

أ ـ **السلوك العام** :و يرى الغزالي فرضيته على كل مكلف،فالتصوف عنده نوعان: عام وخاص ، فأما العام فيتعلق بمجموع المكلفين من حيث القيام بأداء الفرائض كما أمر الشارع بها أداء وتحققا ، واجتناب النواهي ظواهرها وبواطنها .

و كل ذلك لا يتم إلا بالممارسة الصوفية والتتلمذ على المشايخ ،وهذا اشتهر عن الغزالي ـ كما ينقل المتأخرون ـ القول بالفرضية العينية للتصوف(2) وهو كما يظهر من خلال كتبه ورسائله لا يقصد من ذلك إلا هذا الجانب ،أما الجوانب الأخرى كالسلوك الخاص أو المعرفة الصوفية ،فهي إما

---

1 ـ الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص127.

2 ـ نقل ذلك عنه ابن عجيبة الحسني في شرحه للحكم العطائية معللا ذلك بقوله: إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ،و نقل ـ أيضا ـ عن أبي الحسن الشاذلي قوله المؤيد لرأي الغزالي ،و هو :" من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر. انظر:ابن عجيبة،إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، بيروت : دار الفكر ،ج1 ،ص7.

ممارسات اجتهادية للخاصة ،أو ثمرات و هبات ربانية لا دخل للكسب فيها إلا من جهة الاستعداد لحصولها .

ولذلك نجده يفرق أحيانا بين التصوف والسلوك،فالسلوك « هو تهذيب الأخلاق و الأعمال والمعارف،وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن،والعبد في جميع ذلك مشغول عن ربه إلا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول »(1).

و يسمي السلوك العام بـ« **علم المعاملة** » ،وهو العلم المكمل لعلم الفقه باعتبار الفقه ــ كما أصطلح عليه المتأخرون (2) ــ متعلق بظواهر الأعمال دون بواطنها وحقائقها ،وهو يعتب على الفقهاء قصرهم الفقه على تلك الجوانب دون مراعاة مقاصده وحقائقه،يقول في ذلك : « ولو سئل فقيه عن معنى هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا ،أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة،ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شئ منها »(3).

وهو يضرب مثلا على حاجة الفقه إلى هذا العلم التكميلي الفرضي كفرضية الأحكام الفقهية نفسها بالأركان الشرعية التي يقوم عليها بناء الدين ، فالفقيه يفتي بصحة الصلاة إذا أتي بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان المصلي غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها، مع أن هذه الصلاة لا تنفع صاحبها تزكية في الدنيا ولا أجرا في الآخرة « أما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر فلا يتعرض له الفقيه ،ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه » (4).

وقد بلغ تحكم الظواهر بالفقهاء إلى درجة التلاعب بالأحكام الشرعية و الاحتيال عليها لتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو التنصل من الواجبات (5)، وقد نقل الغزالي من ذلك عن بعض الحنفية أنه كان يهب ماله لزوجته آخر الحول و يستو هب مالها إسقاطا للزكاة (6).

1ــ الغزالي،روضة الطالبينوعمدة السالكين،بيروت:دار النهضة الحديثة،ص23.

2 ــ اصطلح المتأخرون على تعريف الفقه بأنه« العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة التفصيلية» ،فهو مختص في الأحكام العملية فقط في الحين الذي عرفه أبو حنيفة بأنه« معرفة النفس مالها وما عليها» ،وقد أخذ عليه بأنه تعريف عام ،ولكن مع ذلك كان هو الفقه المعروف في عصره،انظر:د.وهبة الزحيلي،أصول الفقه الإسلامي،ج1،ص19.

3 ــ الغزالي ،الإحياء ، ج1 ،ص 21 .

6،5،4 ــ المصدر نفسه ،ج1 ،ص 18.

وقد حاول الغزالي في « إحياء علوم الدين » أن يستدرك حاجة الفقه إلى « **علم المعاملة** » (1)فجمع بين الأحكام الفقهية الظاهرة كما تنص عليها كتب الفقه، مع كلام الصوفية في دقائق الآداب الباطنة، كما نص عليها أكابر الصوفية، مثل الجنيد و الحارث المحاسبي وأبي طالب المكي و أبي القاسم القشيري وغيرهم .

وقد كان للغزالي أثر كبير في جمع الكثير من المتفرقات المتعلقة بعلم المعاملة ــ كما يسميه ــ من كلام الصوفية وترتيبها وتحقيق القول فيها بما يغني عن الرجوع لغيره ، وقد اعترف هو نفسه بأنه قد سبق في تصنيفه « لعلم المعاملة »، ولكن كتابه يتميز عن غيره بـ « حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه ،وترتيب ما بددوه، ونظم ما فرقوه ،و إيجاز ما طولوه، وضبط ما قرروه،و حذف ما كرروه ،واثبات ما حرروه ،و تحقيق أمور غامضة لم يتعرض لها في الكتب أصلا» (2).

ولذلك فإن توجيه اللوم للغزالي لاعتماده كثيرا على المصادر السابقة عليه كـ « قوت القلوب » لأبي طالب المكي و « الرعاية » للحارث المحاسبي ،لا ينفي الآثار التجديدية التي خلفتها كتبه ، فقد كان لصورة التصنيف وبراعة التحقيق وجودة التلخيص وسهولة الأسلوب وغناه بالأمثلة التوضيحية ،وربط كل ذلك بالمصادر الأصلية، وما كان عليه السلف الصالح الأثر الكبير في فهم التصوف العملي وسلوك سبيله من لدن عامة الناس وخاصتهم .يقول عبد القادر العيدروس(3): « أجمع العلماء والعارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي،ومحبة كتبه ،فإن كتب الإمام الغزالي لباب الكتاب و السنة ،ولباب المعقول والمنقول » (4)،ويمكننا انطلاقا من « الإحياء » أن نحصر السلوك الصوفي العام في الميادين التالية:

---

1 ــ ينص الغزالي كثيرًا على أن مراده من الإحياء هو جمع كل ما يتعلق بعلم المعاملة ،ولذلك يكثر من الوصية به في كل مناسبة تدعو إلى ذلك،كقوله :« وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه في كتاب « إحياء علوم الدين » ،فإن كنت من أهله فحصله ،واعمل به ،ثم علمه،وادع إليه» ، الغزالي،بداية الهداية،[مجموعة منهاج العابدين]،مصر:مكتبة الجندي ،ص229.

2 ــ الغزالي ،الإحياء ،ج 1، ص3.

3 ــ هو عبد القادر بن شيخ[978 ــ 1038 هـ] ،مؤرخ يمني ،من كتبه : « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » و « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » انظر:الزركلي،الأعلام،ج2،ص39.

4 ــ عبد القادر العيدروس ، تعريف الأحياء بفضائل الإحياء [ملحق الإحياء]، ج1 ،ص5.

1 ــ أداء الشعائر التعبدية بدقائق آدابها و سننها ،و الاقتداء في كل ذلك برسول الله ﷺ ،مع محاولة الغوص لاستنباط حكم ظواهر تلك العبادات باعتبارها رموزا وإشارات إلى معان جليلة يتحقق الإنسان بالقرب من الله ــ الذي هو الغاية الكبرى ــ بقدر علمه بتلك المعاني .

وقد جمع الغزالي في « ربع العبادات » من الإحياء من دقائق الآداب الباطنة لكل العبادات ما فيه الغنية ،وقد جعلها بشكل التفا ريع الفقهية لتلقى القبول لدى المتعلمين ،و يسهل عليهم تحصيلها ،ولهذه الآداب تأثير ملحوظ على قرائها،يقول سعيد حوى:« ليحاول أحدنا أن يمسك الجزء الأول من الإحياء ...وليقرأ كتاب » تلاوة القرآن « فيه ،ثم ليجرب أن يقرأ القرآن بعد ذلك ،إنه لاشك سيجد أن حضور قلبه مع القرآن قد اختلف عما كان قبل ذلك » (1).

2 ــ التزام الآداب الإسلامية في جميع الأحوال من أكل وشرب وسفر وتجارة وعزلة وخلطة وزواج وكسب ... وغيرها حتى تصير الحياة جميعا منسجمة مع قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَاشَرِيكَ لَهُ وَ بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (الأنعام :162).

وقد وضع الغزالي لأجل هذا الغرض « الربع الثاني » من الإحياء الذي سماه « ربع العادات » متناولا فيه « أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها و دقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها ،وذلك مما لا يستغني عنه متدين » (2).

3 ــ تخلية القلب من كل الآفات التي تحول بينه وبين الله سبحانه و تعالى،وأول ذلك أمراض القلوب ،أو كما يسميها الغزالي « المهلكات »،وهي الأخلاق المذمومة التي ورد القرآن الكريم بالدعوة إلى تطهير القلب منها (3)،وهي أول السير الباطني إلى الله تعالى ، لأن القلب المشحون بالغل والحسد والكبر والرياء والعجب والغرور قلب محجوب عن الله بصفات نفسه . ولن يسلك هذا القلب السلوك القويم إلا بعد تخلصه من تلك الآفات ،وقد ذكر الغزالي في « الربع الثالث » من الإحياء هذه المهلكات معرفا بها مفصلا أسبابها،وما ينشأ عنها من مضار مبينا طريق العلاج منها.

4 ــ تحلية القلب بالأحوال الإيمانية والمقامات التي ورد الحث عليها في

---

1 ــ سعيد حوى ،تربيتنا الروحية ،الجزائر :مكتبة رحاب ،ص164.

2 ــ الغزالي ،الإحياء ،ج1، ص3 .

3 ــ المصدر نفسه ،ج3 ،ص79.

النصوص الشرعية من التوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر وغيرها.وقد خصص الغزالي الربع الأخير من « الإحياء » لذلك مسميا إياه « ربع المنجيات » (1)،وهو يدعو من خلاله إلى إنشاء علاقة وجدانية بين العبد وربه تملأ القلب محبة له ورضا عنه وإنابة إليه .

هذه هي الخطوات التي يرى الغزالي وجوب سلوكها للوصول إلى درجة المتقين ، وأهلها هم أهل الولاية العامة ، أما المقربون والصديقون فلهم ـ زيادة على ما سبق ـ سلوكهم الخاص ، فنهاية التقوى بداية القرب .

ب ـ السلوك الخاص : نجد في كتب الغزالي ـ كما نجد في كتب الصوفية عموما ـ التفريق بين درجات المؤمنين ،فهم بين عواء وخواص و خواص الخواص ، أو أهل اليمين والمقربين ، ولكل درجة من تلك الدرجات فهمها وتوجهها وسلوكها الخاص ، فللورع ـ مثلا ـ أربع مراتب :

ـ الورع العام :وهو الذي يشترط في عدالة الشهود ،وهو الاحتراز من الحرام الظاهر.

ـ ورع الصالحين :وهو التوقي من الشبهات التي تتقابل فيها الاحتمالات كما قال رسول الله ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » (2).

ـ ورع المتقين : وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام كما قال ﷺ :« **لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس**»(3).

ـ ورع الصديقين : وهو الإعراض عما سوى الله تعالى (4).

وللصوم ـ كذلك ـ ثلاث درجات :صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص ،أما صوم العموم فهو كف الجوارح عن الشهوات كما نصت على ذلك كتب الفقه ،وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فهو كما يعبر الغزالي: « صوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية،وكفه عما سوى الله ﷻ بالكلية » (5)ثم يعقب على ذلك بقوله:« ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله ﷻ » (6).

---

1 ـ الغزالي، الإحياء،ج1،ص3.

2 ـ الترمذي،السنن ،[صفة القيامة] ج4،ص577،رقم:4080.

3 ـ الترمذي،السنن،[صفة القيامة والرقائق والورع]،ج2،رقم:2451.

4 ـ الغزالي ، الإحياء ج1 ، ص18،19.

5،6 ـ المصدر نفسه،ج1،ص238.

ونستطيع أن نستنبط من هذا التقسيم رؤية الغزالي للسلوك الخاص ،فهو يرى أن خاصة الخاصة أو المقربين مستغرقون في سلوكهم بالله تعالى قاصرون همهم عليه،فلا يحبون إلا الله ،ولا يخافون إلا منه، ولا يتوقعون الرزق من غيره ولا ينظرون إلى شئ إلا ويرون الله تعالى فيه ، ولذلك لم يفتقروا إلى المجاهدات الكثيرة ، ولا إلى تنويع الأوراد لأن وردهم بعد الفرائض واحد و هو « حضور القلب مع الله تعالى في كل حال،فلا يخطر بقلوبهم أمر، ولا يقرع سمعهم قارع. ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد » (1).

وهذا التوجه هو الذي يفرق بين العباد والعارفين ،فهمة العابد مقصورة على العبادة الظاهرة من صلاة وصيام وأذكار لا شغل له بغيرها ،فهو يتردد بين فرائضها ونوافلها في جميع أوقاته (2)،أما همة العارف فهي التوجه إلى الله تعالى ومراعاة الأنفاس في ذلك ونفي الخواطر حتى لا يكون قلبه إلا مع الله. فسير الأول حسي وسير الثاني معنوي ، ومطلوب الأول الحسنات والدرجات ومطلوب الثاني معرفة الله ، وهذا هو الإخلاص الحقيقي الذي يراد الغزالي ــ كما يراد الصوفية جميعا ــ « أما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة ،وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط » (3).

و قد نقل الغزالي ــ هنا ــ حكم القاضي أبي بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ لأن ذلك من صفات الألوهية ،و عقب على ذلك بقوله « وما ذكره حق،ولكن القوم إنما أرادوا البراءة عما يسميه الناس حظوظا،وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط ، فأما التلذذ بمجرد المعرفة و المناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، ولا يعده الناس حظا » (4).

بعد هذا ، فإن القول الشائع بأن طريقة الغزالي في السلوك تعتمد على المجاهدات الحسية بخلاف طريقة أبي الحسن الشاذلي(5) المعتمدة على السير القلبي

---

1 ــ الغزالي ،الإحياء ،ج1 ص 350.

2 ــ المصدر نفسه ، ج 1 ،ص348.

3 ،4 ــ المصدر نفسه ،ج4 ،ص 381.

5 ــ من كبار رجال الطرق الصوفية ، إليه تنسب الطريقة الشاذلية المنتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، توفي سنة 656هـ انظر ترجمته بالتفصيل في : ابن عطاء الله الإسكندري ، لطائف المنن،تحقيق :عبد الحليم محمود ،ط2،بيروت :دار الكتاب اللبناني،1985.

وتسميتها بسبب ذلك بطريقة الشكر (1) غير مقبول ـ على إطلاقه ـ فقد ذكرنا تمييز الغزالي بين أصناف الناس ودرجاتهم، فللعوام سيرهم الحسي ومجاهداتهم الحسية . وللخواص الذين ترقت نفوسهم وعلت هممهم سيرهم القلبي المعتمد على رفع الهمة عن الأكوان والتوجه بها نحو الله تعالى .

ولكن رفع الهمة ـ مع ذلك ـ يحتاج تحققه إلى المداومة على الأوراد والمحافظة عليها « فلا ينبغي أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك ، فيدعيه لنفسه ،ويفتر عن وظائف عبادته ،فذلك علامته أن لا يهجس في قلبه وسواس ولا يخطر في قلبه معصية » (2).

وقد فصل الغزالي المراتب الأولى للسلوك الخاص المعتمد على الشيخ المرشد والذكر، حيث يلزم الشيخ السالك زاوية ينفرد بها ، ويوكل من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال « فإن أصل طريق الدين القوت الحلال »، وعند ذلك يلقنه ذكرا من الأذكار يشتغل به لسانه وقلبه ،فيجلس مرددا ـ مثلا ـ « الله، الله » ، أو « سبحان الله ،سبحان الله » أو ما يراه الشيخ من الكلمات ... فلا يزال مواظبا على ذلك حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة وكأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب غالبة عليه ، ومنتهى ذلك أن يجد قلبه مع الله تعالى دائما ، فإذا حصل له ذلك « انكشف له جلال حضرة الربوبية ،و تجلى له الحق،وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف ، بل لا يحيط به الوصف أصلا » (3).

وبعد خروج السالك من خلوته يحافظ على ورد قلبه الدائم الذي هو الاستغراق في التوجه إلى الله ،كما نقل الغزالي عن الشبلي (4) قوله لأحد مريديه: « إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شئ غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني » (5)

---

1 ـ عبد العزيز الدباغ ،الإبريز ،جمع ابن المبارك ،القاهرة :مكتبة محمد علي صبيح وأولاده،ص211

2 ـ الغزالي ،الإحياء ،ج1 ص350.

3 ـ المصدر نفسه،ج3،ص77.

4 ـ هو أبو بكر بن جحدر،صحب الجنيد وأقرانه ،وصار أوحد أهل وقته علما وحالا،توفي سنة 334 هـ ،انظر:الشعراني،الطبقات الكبرى،القاهرة:دار الفكر العربي ،1952،ص89.

5 ـ الغزلي،الإحياء، ج1،ص77.

2_ المعرفة الصوفيـــة :

ويسميها الغزالي « علم المكاشفة »،ويعرفها بأنها عبارة عن « نور يظهر في القلـــب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة يرفع الغطاء عن القلب حتى تتضح لـــه جليـــة الحق ،فتنكشف له حقيقة الأشياء التي كان من قبل يسمع أسماءها، و يتوهم لها معـــاني مجملة غير متضحة » (1) ،فتحصل له بذلك النور المعرفة الحقيقية بـــذات الله ســـبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله وحكمته في خلق الدنيا و الآخرة ،ومعنى النبوة والوحي ومعـــنى الملائكة والشياطين ،وكل الحقائق الاعتقادية (2).

وهو ــ كما يرى الغزالي ــ علم ذوقي لا يمكن التعبير عنه ، وحصوله في القلـــب يكون بغير استدلال أو تعلم ،ولذلك يسميه : « إلهاما » ،و« علما لدنيا » (3) ،ويقســـم العلوم غير الضرورية الحاصلة في القلب باعتبار حاجتها إلى التعلم والاستدلال إلى ثلاثـــة أقسام :

ــ الإلهام :ويختص بع الأوليـــاء و الأصفيـــاء .

ــ الوحي :ويختص به الأنبيـــاء .

ــ التعلم :ويختص بع العلمـــاء.

والقسم الأول والثاني لا يحتاجان إلى تعلم واستدلال بخـــلاف القســـم الثـــالث (4).

وهو في مناسبات كثيرة ينبه إلى أن الإلهام أثر للوحـــي ،لا شـــيء قـــائم بذاتـــه منفصل عنه ،يقول في « الرسالة اللدنية » :« الإلهام أثر الوحـــي؛فـــإن الوحـــي هـــو تصريح الأمر الغيبي ،والإلهام هو تعريضه .والعلم الحـــاصل عـــن الوحـــي يســـمى « علما نبويا » والذي يحصل عن الإلهام يســـمى « علمـــا لدنيـــا » ...وهـــو الـــذي لا واسطة في حصوله بين النفس، وبـــين البـــاري » (5).

وهو يرى أنه لا يجوز للعقل أن ينكر وجـــود المعرفـــة الإلهاميـــة ،باعتبارهـــا لا تخضع لمقاييسه يقول في « مشكاة الأنوار » :« ...لا يبعد، أيـــها المعتكـــف في عـــالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه مـــا لا يظـــهر في العقـــل ، كمـــا لم يبعد كون العقل طورا وراء التمييز والإحساس ينكشـــف فيـــه غرائـــب وعجـــائب

1،2 ــ الغزالي، الإحياء، ج1،ص20،وهو يفرق بـــين العلـــم والمعرفـــة في أن العلـــم إدراك ،والمعرفـــة تحقق، فرؤية النار مثلا علم ،والاصطلاء بها معرفة[انظر:الغـــزالي،روضـــة الطـــالبين،ص54]

3 ــ الغزالي،الرســـالة اللدنيـــة ، ص116،117.

4 ــ الغزالي،الإحيـــاء،ج3،ص18،19.

5 ــ الغزالي،الرسالة اللدنيـــة ، ص116.

يقصر عنها الإحساس والتمييز» (1) ،ويضرب مثالا على ذلك بتذوق الشعر، وكيف أنه يختص به نفر من الناس، مع أنه إدراك من الإدراكات، و يحرم منه آخرون حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة من المزحفة (2) ،ثم كيف عظمت قوة الذوق عند آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والأغاني (3) .

وما دام أمر جواز وقوعه أو عدمه غير خاضع للعقل، فإن الغزالي يستشهد بالنصوص الشرعية والحكايات الكثيرة الدالة على جواز ذلك ــ باعتبارها أدلة سمعية معتدا بها ــ كقوله تعالى :« **وَالِذينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** » (العنكبوت :69) ،يقول الغزالي ــ معقبا على هذه الآية ــ : « فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهو بطريق الكشف والإلهام »(4)،وقال رسول الله ﷺ : « **لَقَدْ كَانَ فِيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر** » (5) ،يقول الغزالي : « المحدث هو الملهم ،والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل، لا من جهة المحسوسات الخارجة » (6) ،والأحاديث في ذلك كثيرة، وأما الحكايات الواردة عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فلا تعد ولا تحصى ،وقد ذكر الغزالي بعضها ،وهي بمجموعها تفيد جواز الوقوع .

زيادة على هذه الأدلة العقلية والنقلية السابقة يستدل الغزالي بـ « عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ،فإذا جاز بها ذلك في النوم، فلا يستحيل أيضا في اليقظة ،فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم انشغالها بالمحسوسات » (7) ،وهو يستدل بذلك على وجود منفذين للمعرفة:منفذ من الخارج ،وهو الحواس ومنفذ إلى العالم الغيبي من داخل القلب وهو الإلهام والنفث في الروع والوحي .

---

1 ــ الغزالي،مشكاة الأنوار،ص215.

2 ــ هي الأوزان المتصفة بالزحاف،وهوالتغير في الأجزاء الثمانية من البيت إذا كان في الصدرأو في الابتداء أو في الحشو.انظر:الجرجاني، التعريفات،ص127،رقم:856.

3 ــ الغزالي،مشكاة الأنوار،ص215.

4 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص24.

5 ــ الترمذي،السنن، [كتاب المناقب]،ج5،ص581،رقم:3993.

6 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص24.

7 ــ المصدر نفسه،ج3،ص25.

وهو مع قوله بالاشتراك بين الإلهام والوحي في الحصول على العلم من غير استدلال، يستدرك بأن علم الوحي خاص بالرسل ـ عليهم السلام ـ موقوف عليهم « فالولي دون النبي، فكذلك الإلهام دون الوحي ، فهو ضعيف بالنسبة للوحي قوي بالإضافة للرؤيا والعلم » (1) .

ولذلك فإن الإلهام يأتي تأييدا وتحقيقا وزيادة كشف لما جاء به الوحي. وهو لذلك لا ينقطع ما دامت الرسالة ثابتة مستقرة،يقول الغزالي : « اعلم أن الوحي إذا انقطع ،وباب الرسالة إذا انسد ،استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين ،أما باب الإلهام فلا ينسد لدواء ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير »(2) .

وهو يرى من خلال ذلك ضرورة وجود هؤلاء الملهمين المؤيدين لأن الناس ،و إن استغنوا عن الوحي لكمال الدين وتمامه، إلا أنهم محتاجون « إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في هذه الوساوس والهماكهم في هذه الشهوات،فالله تعالى أغلق باب الوحي، وهو آية العباد، وفتح باب الإلهام رحمة، وهيأ الأمور، ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب » (3).

ومع انتصار الغزالي للإلهام الصوفي واعتباره أرقى درجات الإيمان يعود إلى **طبيعته العقلية** المنطقية فيحكم العقل في بعض الأحوال حيث « ينتهي الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول (4) وطائفة الاتحاد (5) وطائفة الوصول (6)وكل ذلك خطأ » (7) ،ونقد الغزالي لهذه الدعاوى نقد علمي منطقي

---

1 ـ الغزالي، الرسالة اللدنية،ص116.

2 ،3 ـ المصدر نفسه،ص118.

4 ـ هو النسبة التي بين الجسم ومكانه ،كقيام الأعراض بالجواهر،وهو مستحيل عقلا بين كل ما يقوم بذاته ،انظر:الغزالي،المقصد الأسنى،ص150.

5 ـ وهوتصير الذاتين واحدة و لا يكون إلا في الأعداد،انظر:الجرجاني،التعريفات،ص26،والغزالي،المقصد الأسنى،ص146.

6 ـ الوصول الذي يرده الغزالي هنا هو الوصول المكاني ،أما المعنى الآخر له، وهو أن ينكشف له جلية الحق ،ويصير مستغرقا به لاهمة له في سواه،فهو غاية السلوك الصوفي،انظر:الغزالي،المقصد الأسنى،ص150،151.

7 ـ الغزالي،المنقذ من الضلال ،ص128.

يكشف أن للعقل عنده منزلة يمكن بها الحكم على بعض قضايا المكاشفة(1)،وهو لذلك ينفي عن الصوفية تلك الدعاوى، ويتأول ما ورد منها عنهم ،يقول عن أبي يزيد البسطامي : « وقول أبي يزيد إن صح عنه :« سبحاني ،ما أعظم شأني » إما أن يكون ذلك جاريا على لسانه في معرض الحكاية عن الله تعالى ... وإما أن يكون قد شاهد حظه من صفة القدس فأخبر عن قدس نفسه فقال:سبحاني، ورأى عظم شأنه بالإضافة إلى شأن عموم الخلق فقال : « ما أعظم شأني » (2)،وهو يحمل كل ذلك منهم على التوسع و التجوز على عادة الشعراء لأجل تحسين موقع الكلام من الأفهام دون إرادة حقيقة اللفظ ،وهو يقسم العارفين على هذا الأساس إلى قسمين :

ـ من حصلت لهم هذه الحالة معرفة علمية، فنفوا حقيقة الاتحاد، وإن حصل لهم ذوقه ،وهي الحالة التي تسميها الصوفية بـ « **البقاء** ».

ـ من صار لهم ذلك ذوقا وحالا ،وانتفت عنهم الكثرة ،واستغرقوا بالله تعالى فصاروا كالمبهوتين فيه ، فلم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ، وهؤلاء نطقوا بما نطقوا به في تلك الحال « وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى ، فلما خف عنهم سكرهم ، وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد » (3) .

ولكن الغزالي مع هذا النفي والتأويل يعود **لطبيعته الفقهية**، فيسد الذرائع حاكما بالتشديد على من يطلق هذه الدعاوى ، يقول في « الإحياء » :« فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره ،وعظم في العوام ضرره ،حتى من نطق بشيء منه، فقتله أفضل لدين الله من إحياء عشرة » (4).

من هذا البيان المختصر للتصوف الذي مارسه الغزالي ودعا إليه بشقيه السلوكي والمعرفي نستطيع أن ندرك ونجزم بسنية تصوفه المعتمد أساسا على النصوص الشرعية،والتجارب الروحية للمعتدلهم من أئمة هذا الشأن ، ولذلك أخذت معظم الطرق الصوفية بمنهجه، وانتشرت بشدة ،وكان لها الدور المعروف في نشر الإسلام، أو في الإصلاح الاجتماعي.

---

1 ـ د. محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية،ط5،مصر: دار المعارف،1973م،ص59ـ 60.

2 ـ الغزالي،المقصد الأسنى،ص49.

3 ـ الغزالي،مشكاة الأنوار،ص197.

4 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص36

رابعا ـ أحكام العقل والانفتاح الثقافي :

يعتبر الغزالي من المصلحين الذين جمعوا بين خصائص قد تبدو متناقضة ـ بادئ الرأي ـ،فهو مع توجهه الروحي العالي، واستغراقه الكلي في التصوف وحكمه بعجز العقل وقصوره، نجده يثق في العقل ثقة تكاد تكون مطلقة ،بل يعتبره ميزان الله في أرضه (1) .

وفي نفس الوقت الذي نجده يدعو إلى الاعتماد على المصادر الأصلية والعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، نجده يستند إلى تراث الفلاسفة وغيرهم، ويعترف بذلك ولا يرى بأسا من النقل عنهم، في الحين الذي ينتقدهم بشدة ،ويعتبر أفكارهم تهافتا يدعو لنبذه.

وهذا النظر المبدئي الذي يحكم بتناقض الغزالي هو ما دعا ابن رشد إلى قوله : إنه [أي الغزالي] لم يلزم مذهبا من المذاهب في كتبه ، بل هو مع الأشعرية أشعري ،ومع الصوفية صوفي ، ومع الفلاسفة فيلسوف ،وحتى أنه كما قيل :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدناني (2).

ونرى أن هذه الأحكام ناتجة عن سوء فهم لمنهج الغزالي، وعدم تكامل صورته الفكرية في أذهان هؤلاء الناقدين.

وسنرى في هذا المبحث أهمية أحكام العقل عند الغزالي، و ضرورة استعمالها في كل المعارف ،ومن ثم إمكانية الاستفادة من كل تراث ثقافي أجنبي ما دام متلائما معها ،وهو ما سيحاول أن يزيل بعض تلك الصورة المتناقضة التي يرسمها له نقاده .

1 ـ أحكام العقل :

يرى الغزالي أن الأحكام العقلية إذا تجردت من سلطة حكم الحس(3) :

---

1 ـ الغزالي،مشكاة الأنوار ،ص197.

2 ـ ابن رشد ، فصل المقال ،مصر :دار المعارف ، ص 25 ،53.

3 ـ الحاكم الحسي :هو الحس المشترك الذي تجتمع فيه الصور الحسية بعد غياب المحسوسات « ولو لا ذلك كان من رأى العسل الأبيض ، و لم يدرك حلاوته إلا بالذوق ، إذا رآه ثانية لا يدرك حلاوته ما لم يذقه كالمرة الأولى »[الغزالي،تهافت الفلاسفة ، تحقيق موريس بويج ، بيروت : دار المشرق ، ص207]،وهذا الحاكم يخطئ كثيرا، فلذلك لا يعتمد العقل مطلقا على أحكامه ، يقول الغزالي بعد ذكر أمثلة عن أخطاء الحواس: «فهذا وأمثاله يكذبه حاكم العقل و يخونه » (الغزالي،معيار العلم ،ط2،بيروت :دار الأندلس ،ص309).

و الوهم (1) لا تكاد تخطئ ، لأنها فطرة فطر الناس عليها ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (الروم:30)،يقول الغزالي معقبا على هذه الآية : « فسمى العقل دينا »(2).

ولكون أحكام العقل المجرد دينا ،فإن التناقض بين أحكام العقل و أحكام الشرع مستحيل ، بل إن أساس الشرع العقل « فهو كالأس والشرع كالبناء ، ولن يغني أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس» (3)، وهو يسمي الشرع ــ بسبب مراعاته الضرورية للأحكام العقلية ــ عقلا ، فالشرع عقل من الخارج ، والعقل شرع من داخل،وهما متعاضدان بل متحدان(4).

و بسبب هذا الاتحاد بين أحكام العقل وأحكام الشرع ،فإن تمجيد العقل تمجيد للشرع ،وإعماله أعمال للشرع، ونبذه نبذ للشرع ،لأن كليهما من وضع الله ﷻ ،أما ذم الصوفية له فيرد الغزالي سببه إلى أن الناس نقلوا اسم العقل إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات ،فاستخدموا العقل في غير ما خلق له،فكان ذم الصوفية منصبا على الاستخدام السيئ لا على المحل فإن « نور البصيرة[العقل]التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله ، فكيف يتصور ذمه؟ ،وقد أثنى الله تعالى عليه ؛وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟ » (5).

و للتوفيق بين توجهه الصوفي الذي يقول بالكشف، ويرى أن العلوم الوهبية لا تحتاج إلى استدلال ، وبالتالي تستغني عن أحكام العقل، أو تخالفه ، فإنه يختار من جملة تعاريف العقل الكثيرة التي يرددها أنه « الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم ،وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية و تدبير الصناعات الخفية » (6)،وهو يشبهه بالعين من حيث كونها ذات هيئات

---

1 ــ هو كالحس المشترك إلا أنه يدرك المعاني ، كالعداوة التي تدركها الشاة من الذئب ، ومخالفته لها ، والمحبة التي تدركها من أمها وموافقتها لها [الغزالي ،تهافت الفلاسفة،ص207.]،وسبب أخطائه حكمه لغير المحسوسات بأحكام المحسوسات ، كإنكاره شيئا لا يناسب أحساس العالم بانفصال واتصال، ولا يوصف بأنه داخل العالم ولا خارجه [الغزالي،معيار العلم ،ص32.]

2 ــ الغزالي،معارج القدس في مدارج معرفة النفس ،باتنة:دار الشهاب ، ص58.

3 ــ المصدر نفسه ،ص57.

4 ــ المصدر نفسه ،ص58.

5 ــ الغزالي، الإحياء،ج1،ص89.

6 ــ المصدر نفسه،ج1،ص86.

وصفات بها استعدت للرؤية ،فنسبة هذا المحل إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية.

وهذا التوفيق يطبقه على جميع ما يتحدث عنه الفلاسفة أو الصوفية من لطائف، كالقلب والروح والنفس ،فهي عنده ألفاظ مختلفة لمعنى واحد ،هو تلك الغريزة أو اللطيفة التي تعرف بها حقائق الأشياء ،يقول الغزالي: « ولأجل اختلاف الأسماء ظن البعض اختلاف المسميات ،وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعاني هذه الأسامي ،واشتراكها بين مسميات مختلفة » (1) .

والغزالي يجعل لهذه اللطيفة التي تتوارد عليها الأسامي المختلفة خمس مراتب تتدرج بحسب عمر الإنسان وطبيعته التي خلقه الله عليها، فهي تبدأ **بالحس**،ويشترك فيه الإنسان والحيوان ،ثم تنشأ قوة **الخيال** ،وهي التي تحفظ ما أوردته الحواس لتعرضه على العقل عند الحاجة إليه ،ثم ينشأ إدراك المعاني الخارجة عن الحس والخيال ،وهي التي تسمى **الأوليات العقلية** (2)،ثم يتم التزاوج بين تلك الأوليات بالتفكر **والنظر** لاستنتاج المعارف ،وتتسلسل تلك الاستنتاجات بحسب قوة العقل إلى ما لانهاية .

وكل هذه المراتب كسبية ،وطبيعة الإنسان التي جبل عليها هي التي تحدد مدى استعداده لحصولها ، وبعدها تأتي المرتبة الأخيرة من مراتب العقل كما يرى الغزالي،وهي المرتبة التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السماوات والأرض ،بل من المعارف الربانية التي يقصر دون إدراكها أو تصورها العقل والفكر ، كما يقصر الحس أو الخيال عن إدراك أحكام العقل والفكر(3) .

وهذا العقل هو الذي يتحدث عنه الصوفية ويسميه الغزالي **نور البصيرة** (4) ،وهذا فإن جميع الأحكام والعلوم صادرة أو منتقشة في جوهر الإنسان وعقله ، وإنما تختلف طريقة ظهورها ومدى وضوحها باختلاف طبائع الناس واستعداداتهم ومجاهد اتهم ،أما الخواص فإنهم يتحققون ـ كما يرى الغزالي ـ بتلك المعارف **كشفا وعيانا** ،وغيرهم يعرفها **بيانا وبرهانا**، مع أن الحقائق واحدة

---

1 ـ الغزالي، الإحياء ،ج3 ، ص3.

2 ـ هي التي لا يفتقر العقل بعد معرفتها إلى دليل أصلا ، من حدس أو تجربة أو نحو ذلك،كقولنا الواحد نصف الاثنين ،والكل أكبر من الجزء ،فإن هذا الحكم لا يتوقف إلا على تصور الطرفين وهو أخص من الضروري [الجرجاني ،التعريفات ،ص53.]

3 ـ الغزالي،مشكاة الأنوار ،ص213 ،214.

4 ـ الغزالي،الإحياء ، ج1 ، ص89.

ولهذا يحتاج غير المكاشف إلى كثرة أدلة ووصف، بخلاف من حصل له ذلك كشفا وذوقا وتحقق به، فإنه يتعجب من الحاجة إلى الدليل والوصف ، بل يرى في الوصف إخلالا بحق الموصوف (1) .

ولهذا فإن إقحام الأحكام العقلية المحكومة بالحس والوهم في مجال معرفة الألوهية أو عالم الغيب خطأ فادح وخطر جسيم ،لأنه قياس للغائب بالشاهد . وحكم على الله بصفات عباده ، يقول الغزالي: « أما ميزان الرأي والقياس،فحاشا لله أن أعتصم به ، فذلك ميزان الشيطان ، ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة ،فأسأل الله تعالى أن يكفي شره عن الدين ، فإنه للدين صديق جاهل ، وهو شر من عدو عاقل » (2).

وفي غير هذا المجال ، ينتصر الغزالي للمنطق، ويعتبره غير غريب عن الإسلام أو الفكر الإسلامي ، وليس دخيلا مع الفلسفة كما يتصور البعض . يقول الغزالي:« ولكن المنطق ليس مخصوصا بهم [أي بالفلاسفة]،وإنما هو الأصل الذي نسميه في فن الكلام « كتاب النظر » ،وقد نسميه « كتاب الجدل» وقد نسميه« مدارك العقول »؛فإذا سمع المتكلايس المستضعف اسم « المنطق » ظن أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون ، ولا يطلع عليه إلا الفلاسفة » (3)،ومع ذلك فإن المنطق المترجم مع الفلسفة اليونانية نفسه لا يمكن رفضه لأنه لا تعلق له بالدين نفيا أو إثباتا ، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس ،وأن العلم إما تصور أو تصديق ، وليس في هذا ما ينبغي إنكاره (4).

ولهذا فإن الغزالي ألف في المنطق مجموعة كتب (5) ،وأدخل المنطق كتمهيدات لبعض العلوم كعلم الأصول ،فقد كان يقدم له قبل الغزالي بمقدمات كلامية كتأسيس فكري لقضايا أصول الفقه وربطها بأصول الدين ،فرأى الغزالي أن الأولى ربطها بالمنطق لحاجة علم الأصول لقضايا المنطق ،يقول الغزالي عن مقدمة المستصفى : « وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ولا من

---

1 ــ الغزالي،إحياء علوم الدين ،ج4 ،ص320.

2 ــ الغزالي،القسطاس المستقيم،ص41.

3 ــ الغزالي ،التهافت ،ص71.

4 ــ الغزالي ، المنقذ ،ص102،103.

5 ــ هي :معيار العلم في فن المنطق ،ومحك النظر ، والقسطاس المستقيم،وبعض فصول من مقدمة مقاصد الفلاسفة ،ومقدمة المستصفى من علم الأصول ،ومقدمة الاقتصاد في الاعتقاد.

مقدماته الخاصة به،بل هي مقدمة العلوم كلها ،ومن لا يحيط بها،فلا ثقة بعلومه أصلا» (1)،وقد بدأ بهذا الاهتمام بالمنطق عند الغزالي عهد جديد للثقافة الإسلامية ،امتزجت فيه بقضايا وأساليب المناطقة(2).

وقيمة منطق الغزالي ترجع إلى توجيهه الوجهة الإسلامية ،وتخليصه من ظلال التصور اليوناني وتوظيفه توظيفا يتلاءم مع العقائد الإسلامية ،كما نجد ذلك في كتابه **معيار العلم** الذي عرض فيه مباحث المنطق عرضا مبسطا مستعملا الأمثلة الفقهية ،هادفا من ذلك إلى أمرين :

ـ تفهيم طرق الفكر والنظر باعتبار المنطق بالنسبة إلى أدلة العقول كالعروض بالنسبة إلى الشعر ،والنحو بالإضافة إلى الإعراب .

ـ بيان أن النظر في الفقهيات لا يخالف النظر في العقليات في ترتيبه وشروطه، وإنما يخالفه في مآخذ المقدمات فقط (3).

ولكن أهم كتاب ألفه فيه ،وأشار إليه كثيرا معتبرا إياه الميزان الذي ينفي الخلاف عن الخلق هو **القسطاس المستقيم** الذي وضعه في الأصل ردا على الباطنية،يقول عنه في المنقذ من الضلال ـ مع التذكير بأنه ألفه في المرحلة الأخيرة من حياته ـ: « أقول :قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة وما وراء ذلك من التفصيل والتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم،وهي الموازين (4)التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وهي خمسة ،ذكرتها في كتاب القسطاس المستقيم »(5) .

ومع أن تلك الموازين التي وضعها الغزالي مطابقة للموازين المنطقية

---

1 ـ الغزالي،المستصفى ،ج1 ،ص10.

2 ـ د. علي سامي النشار،منهاج البحث عند مفكري الإسلام،القاهرة :دار الفكر العربي،1947،ص130.

3 ـ الغزالي،معيار العلم، ص59ـ60. وسبب الخلاف بين المآخذ الشرعية والمآخذ العقلية أن المقدمات العقلية تؤسس على البديهيات بخلاف المقدمات الفقهية المؤسسة على مسلمات شرعية .

4 ـ استنبط الغزالي هذا الاصطلاح من قوله تعالى :﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ (الحديد :25). وقوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴾ (الرحمن:7ـ9)،انظر : الغزالي،القسطاس المستقيم،ص 43.

5 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص118.

اليونانية إلا أن للغزالي أهدافا أخرى وراء تلك الصياغة الجديدة لعلم المنطق لعل أهمها تقريب المنطق والاحتجاج له بالأمثلة من القرآن الكريم لصنفين من الناس:

ـ الذين استهوتهم الفلسفة بما فيها من علوم عقلية ،فخلطوا بين حقها وباطلها،وظنوا التناقض بين العلوم النقلية والأحكام العقلية .

ـ العلماء النصيين الذين رفضوا المنطق باعتباره فلسفة وعلما غريبين عن الدين.

وذلك زيادة على الغرض الأصلي ،وهو مناقشة الباطنية ، يقول الغزالي: «لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق غير مخالف له ، ولا يخالف فيه المتكلم ،لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ،وبه يعرف الحق في الكلاميات » (1).

وهذا العلم الذي استنبطه الغزالي من القرآن الكريم واعتبره حجة في العلوم كلها ،لا يحتكره على العلوم الكسبية وحدها ، بل يضم إليها الوهبية ـ أيضا ـ « ... فكم من صوفي بقي في خيال واحد عشر سنين إلى أن تخلص منه ولو كان قد أتقن العلوم [أي موازين العقل]أولا لتخلص منه على البديهة »(2).

وهنا نلاحظ جمع الغزالي في تناسق جميل بين القرآن والعقل والتصوف مما يبرهن على وحدته الفكرية، ولا بأس أن نذكر هنا الموازين التي أولاها الغزالي كل ذلك الاهتمام، ودعا إلى تعلمها من القرآن الكريم :

أ ـ **ميزان التعادل** :وله ثلاثة أشكال هي :

1 ـ الميزان الأكبر:ومثاله قوله ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام(3) ـ: ﴿ **فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** ﴾ (البقرة :258)،وصياغة هذا الميزان هي :كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله . فهذا أصل ؛ وإلهي هو القادر على الإطلاع ، وهذا أصل آخر ؛فلزم من مجموعهما بالضرورة أن إلهي هو الإله(4)،ويمكن صياغته رمزيا هكذا :أهي ب و ب

---

1 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال ، ص118.

2 ـ الغزالي، ميزان العمل ، مصر: مطبعة كردستان،1328هـ ،ص46.

3 ـ استدل الغزالي بتلقين الله تعالى إبراهيم عليه السلام الحجة كما قال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَٰهَا إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ** ﴾ (الأنعام:83)فكأنه حاز بذلك الاعتماد على حجته لإقرار الله إياها. انظر: الغزالي، القسطاس المستقيم ،ص54.

4 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص49.

هي ج ،إذن :أ هي ج (1).

2 ـ الميزان الأوسط:ومثاله قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: **﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** (الأنعام:76) ،وصياغة هذا الميزان هي : أن القمر آفل والإله ليس بآفل ؛فالقمر ليس بإله .(2) ،ويمكن صياغته رمزيا هكذا :أ هي ب،وج ليست ب ،إذن :أ ليست ج.

والفرق بين هذا الميزان والميزان الأكبر أن الصفة في الميزان الأكبر عامة تشمل جزئيات الموصوف كلها ،بخلاف ما هي عليه في الميزان الأوسط حيث تنحصر في شيئين متباينين كل التباين بحيث ينفي عن أحدهما ما يثبت للآخر.(3)

3 ـ الميزان الأصغر :ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾** (الأنعام :91)،ووجه الوزن بهذا الميزان هو أن موسى عليه السلام بشر ،وقد أنزل عليه الكتاب ؛إذن بعض البشر أنزل عليهم الكتاب (4)وصياغته الرمزية هي:ب هي أ،وب هي ج،إذن بعض أ هي ج.

والفرق بين هذا الميزان وما قبله أنه يستخدم في التخصيص والتمييز بين الصفات الذاتية التي تشترك فيها عموم جزئيات الجنس والصفات العرضية التي لا يشترك فيها إلا قسم من هذه الجزئيات(5).

وهذه الموازين الثلاثة المشكلة لميزان التعادل تشبه ما يعبر عنه في المنطق **بأشكال قياس أرسطو الاقتراني الثلاثة**(6).

ب ـ ميزان التلازم :ويعرفه الغزالي بقوله :« هو أن كل ما هو لازم

---

1 ـ انظر: د.محمود قاسم ، دراسات في الفلسفة الإسلامية، ط5، مصر: دار المعارف،1973. ص51ـ52.

2 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم،ص55.

3 ـ انظر: فيكتور سعيد باسيل ، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي، بيروت:دار الكتاب اللبناني،ص73.

4 ـ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص59

5 ـ فيكتور سعيد باسيل ، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي، ص74.

6 ـ د. محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية،ص51.

للشيء تابع له في كل حال، فنفي اللازم يوجب بالضرورة نفي الملزوم ،ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم ،أما نفي الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما» (1).

ويضرب له مثالا بقوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء:22)، وصياغة هذا الميزان هي أنه لو كان في السموات والأرض إلهان لفسدتا،فهذا أصل ،ومعلوم أنهما لم تفسدا ،وهذا أصل آخر ؛فيلزم منهما ضرورة نفي الإلهين ،وإثبات الإله الواحد(2).وهذا الميزان هو المسمى في المنطق **بالقياس الشرطي المتصل** .

ج ــ **ميزان التعاند**:ويعرفه الغزالي بأن « كل ما انحصر في قسمين ،فيلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر ،ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر بشرط أن تكون القسمة منحصرة، لا منتشرة » (3)، ويمثل له من القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَ إِنَّا أو إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (سبأ:24) ،ووجه الاستدلال به هو :إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ،ومعلوم أننا لسنا في ضلال ،والنتيجة هي:أنتم ضللون(4).

هذه هي الموازين التي دعا الغزالي إلى استعمالها،واستنباط العلوم بواسطتها وهي ــ كما ذكرنا ــ نفس المقاييس المنطقية ،والغزالي يقر بذلك ،ولا يرى بأسا به ،يقول في « القسطاس المستقيم » بعدما سأله رفيق التعليم عن تلك الموازين : « أما هذه الأسامي فأنا ابتدعتها ،وما عندي أني سبقت إلى استخراجها من القرآن؛وأما أصل الموازين فقد سبقت إلى استخراجها، وها عند مستخرجيها من المتأخرين أسام سوى ما ذكرتها ، وعند بعض الأمم الخالية السابقة على بعثة محمد وعيسى ــ صلوات الله عليهما ــ أسام أخر كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام » (5).

وميزة الغزالي ــ هنا ــ تطبيقه بالنسبة لعلم المنطق ما دعا إليه دوما من ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم واستنباط جميع العلوم منه ،ولا بأس من

---

1 ــ الغزالي، القسطاس المستقيم، ص63.

2 ــ المصدر نفسه،ص62.

3 ــ المصدر نفسه، ص66.

4 ــ المصدر نفسه،ص 65.

5 ــ المصدر نفسه،ص 67.

الاستفادة خلال ذلك من تراث الامم الاخرى وثقافاتها ما دامت لا تصادم العقل الخارجي الذي هو الشرع،ولا العقل الداخلي الذي هو موازين الحق المودعة في فطرة الإنسان،وسنرى ذلك في المطلب التالي .

2 _ الانفتاح الثقافي :

بعد معرفة الموازين العقلية السابقة، والتمرن عليها ،وحصول الملكة فيها. مع تجنيب الأحكام الحسية والوهمية ،والاعتصام بالمصادر الشرعية، فإن الغزالي لا يرى بأسا من الانفتاح على كل الثقافات والعلوم ،والاحتكاك بها، والتأثير فيها ،والتأثر بها،وقد كان يجمع الكثير من تلك الثقافات في عصر الغزالي اسم الفلسفة أو علوم الأوائل (1)،وكانت المواقف حولها كما يرى الغزالي تتراوح بين ثلاث تيارات:

أ _ **تيار الرفض** :ويرى الرفض الكلي لتلك الثقافات ،وتأليب الرأي العام عليها ،وتكفير أو تبديع كل من يبحث أو يخوض فيها ،فلم تكن علاقة هذا التيار بتلك الثقافات إلا علاقة الحكم المسبق في معظم الأحيان،ولم يكن نقدها إلا نقدا ظاهريا لا يعتمد البرهان العلمي، ولا الحجة المنطقية ،لأن المنطق نفسه من الفلسفة(2).

وقد اعتبر الغزالي هذا التيار سببا لانتشار الأفكار المضللة من الفلسفة وغيرها ،وهو يسميهم بالصديق الجاهل (3)،وهؤلاء مثلا أنكروا كون خسوف القمر عبارة عن امحاق ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس، وأنكروا الهندسة والحساب والمنطق والفلك وغيرها (4)،لأن مصدر ذلك هو الثقافات الأجنبية،مع أنها لا تصادم النصوص الشرعية،يقول الغزالي : « وأعظم ما يفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع، فيسهل

---

1 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص111.

2 ــ وقد ذكر ابن العربي المعاصر للغزالي هذا الصنف بقوله:« وقد جاء الله بطائفة عاصمة تجردت لهم من أعيان الأمة إلا أنهم لم يكلموهم بلغتهم ،ولا ردوا عليهم بطريقتهم ،وإنما ردوا عليهم وعلى إخوانهم المبتدعة بما ذكره الله في كتابه، وعلمه لنا على لسان رسوله ،فنحن لا يفهم تلك الأغراض ،بما استولى على قلوبهم من صد الباطل طفقوا يهزؤون من تلك العبارات، وينسبون قائلها للجهالات » ،ابن العربي ،العواصم من القواصم ،ص105ــ106.

3 ــ الغزالي،المنقذ من الضلال،ص114.

4 ــ الغزالي، معراج السالكين ،[الرسائل الفرائد]،ص220 ــ221.

عليه طريق إبطال الشرع »(1)، مع أن الشرع لم يتعرض لهذه العلوم نفيا ولا إثباتا،ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الشرعية(2).

وقد انجر عن هذا المنهج نوع من الشعور بالتصادم بين العقل والدين ،فإن تلك القضايا من الوضوح والدقة ،وبراهينها من الوضوح والقوة بحيث لا يمكن رفضها ؛ورفض العلماء لها بحجة منافاتها للدين كذب عليه، وخدمة للملحدين والمشككين ،وهو ما حصل في أوروبا عندما أنكرت الكنيسة الكثير من الكشوف العلمية التي تتنافى مع موروثاتها اليونانية وغيرها، مما أدى إلى النفور من الكنيسة، والتمكين للإلحاد .

ب ـ **تيار القبول** :ويرى القبول الكلي لما ورد في تلك الفلسفات والثقافات ،وطرح الدين بسببها ،والانخداع بمظاهرها، يقول الغزالي معبرا عن هذا التيار في مقدمة « تهافت الفلاسفة » :« أما بعد،فإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء قد رفضوا وظائف الإسلام،واستحقروا شعائر الدين ،بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله، و يبغونها عوجا » (3).

والغزالي ينتقد ذوبان هذا التيار في تلك الثقافات ،ويرى أن مصدر ذلك الذوبان لا يرجع إلى تحكيم الموازين العقلية بقدر رجوعه إلى أوهام وخيالات وأسباب النفسية ،وهو يعد منها:

ـ إطناب طوائف من متبعيهم في وصف عقولهم ودقة علومهم ،وأنهم مع كل ذلك الذكاء منكرون للشرع متنصلون من تكاليفه.

ـ مصادرتهم العامة على مطالبهم المعرفية استدراجا لهم ، بحيث أنه إذا ما أوردوا عليهم إشكالا تذرعوا بأن هذه العلوم غامضة ،وأنها أعصى العلوم على الأفهام الذكية، ولا يمكن التوصل إلى فهمها إلا بتقديم الرياضيات والمنطق،وهذا كله استدراج نفسي للوصول بهم إلى حالة الانبهار التام المؤدي إلى الخضوع الكلي .

ـ الخلط بين العلوم الطبيعية والهندسية والمنطقية مع الآراء الميتافيزيقية،حتى ظن من ينظر في منطقهم فيراه مستحسنا أن سائر علومهم مؤيدة بتلك البراهين.

---

1 ـ الغزالي،تهافت الفلاسفة،ص43.

2 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص102.

3 ـ الغزالي، تهافت الفلاسفة،ص38.

ـ ما مزجه « إخوان الصفا» (1) بتصانيفهم المستمدة من الفلسفة اليونانية من الحكم النبوية والكلمات الصوفية استدراجا للعامة إلى مقاصدهم،مع العلم أن انتشار آراء تلك الجمعية في ذلك الحين كان واسعا شاملا كل فئات المجتمع،كما تشير إليه رسائلهم (2).

وكل هذه الأسباب التي ذكرها الغزالي وغيرها لذوبان هذا الفريق في تلك الثقافات لا ترجع ـ كما رأينا ـ إلى براهين عقلية ، أو حجج منطقية ، وإنما هو حالة من الانبهار الساذج، والتأثر العاطفي الذي لا يحكمه العقل، ولا يستند إلى الحجة.

ج ـ **تيار الانتقاء**:ولعل أحسن من يمثل هذا التيار هو الغزالي نفسه،فقد وقف من الثقافات الأجنبية فلسفية أو باطنية أو « إخوان الصفا » أو غيرهم موقف المحاور والمهاجم والمتعلم في نفس الوقت.

وقد أثار ذلك الغرابة في كثير من الباحثين، بل حتى من الفلاسفة القدماء كابن رشد الذي يقول عن الغزالي: « أفيجوز لمن استفاد من كتبهم [أي الفلاسفة]وتعاليمهم مقدار ما استفاد هو منها، حتى فاق أهل زمانه،وعظم في ملة الإسلام صيته وذكره أن يقول فيهم هذا القول،وأن يصرح بذمهم على الإطلاق وذم علومهم؟ » (3).

وبناء على هذا الأساس قسم الغزالي علوم الفلاسفة إلى ستة أقسام مبينا حكم كل قسم،وهذه الأقسام هي:

1 ـ **العلوم الرياضية**:وتتعلق بعلم الحساب والهندسة،وعلم هيئة العالم،وحكمها كما يقرر الغزالي أنه « لا يتعلق شيء منها بالأمور الدينية،بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها » (4)،بل إنه يجعلها من

---

1 ـ جمعية سرية ظهرت في القرن الرابع الهجري متخذة الفلسفة منهجا مساويا أو مناوئا للشريعة ،وقد نقل التوحيدي ذريعتهم في ذلك ،وهي قولهم:« إن الشريعة قد دنست بالجهالات،واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ،لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ،ومتى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال»،انظر:أبو حيان التوحيدي،الإمتاع والمؤانسة ،بيروت :دار مكتبة الحياة،ج2،ص5.

2 ـ نقلا عن:د. يوسف فرحات،الفلسفة الإسلاميةوأعلامها،حنيف:ترادكسيم،1986،ص78.

3 ـ ابن رشد ،تهافت التهافت ،تحقيق سليمان دنيا،ط2،القاهرة :دار المعارف،1971،ص43.

4 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص101.

الفروض الكفائية ما دام يحتاج إليها ـ كما بينا سابقا ـ ،ولكنه مع ذلك يحذر من بعض النتائج السلبية المنجرة عن النظر فيها ، ولعل أهمها هو اعتقاد أن جميع الآراء الفلسفية من الدقة والوثوق مثل العلوم الرياضية ، « فيكفر بالتقليد المحض» (1)؛وليس في هذا التحذير من الغزالي إلا تنبيه للسبيل الانتقائي الذي اختاره وبنى عليه مواقفه (2).

2 ـ **العلوم المنطقية** :وتتعلق بالنظر في طرق الأدلة و المقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها،ولا يتعلق شيء منها بالدين ـ في رأي الغزالي ـ إلا ما حشيت به من أمثلة تتناقض وتتعارض مع الأصول الدينية ،ولأجل ذلك ألف الغزالي كتبه المنطقية،كمعيار العلم وغيره ،وحشاها بدلا من ذلك بالأمثلة الفقهية.

3 ـ **العلوم الطبيعية**:وتشمل في مدلولها القديم الطب والكيمياء والفلك وغيرها ،ويرى الغزالي عدم تعرضها للدين ،ولذلك لا ينبغي مخالفتهم في شيء منها إلا بما هدى إليه الدليل العلمي،ولكنه مع ذلك ينبه إلى قضية مهمة ،وكأنه يدعو من خلالها إلى أسلمة هذه العلوم ،فهي إلحادية من حيث جعلها الطبيعة فاعلة بذاتها ،ولذلك يجب أثناء مطالعة هذه العلوم « أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ،ولا تعمل بنفسها ،بل هي مستعملة من جهة فاطرها ،والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره ،لا فعل لشيء منها لذاته » (3) .

وكذلك ينتقدهم في حكمهم بأن الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران ضروري لازم ،وليس في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب،وذلك لما يلزم عنه من إنكار المعجزات أو تأويلها تأويلا يعطل معناها،كما ينقل الغزالي تأويل بعضهم إحياء الموتى بإزالةموت الجهل بحياة

---

1 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص101.

2 ـ وهذا خلافا لما رآه د. محمد عابد الجابري من أن الغزالي لم يكن بريئا في موقفه من الرياضيات ،وأن الغرض من ذلك هو التأليب على الباطنية فقط باعتبارهم تبنوا الفيثاغورية ونزعتها الرياضية أساسا لفلسفتهم الدينية [محمد عابد الجابري،بنية العقل العربي،ط3،بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،1990،ص491.]،لأن الغزالي بنى موقفه على اختيار ميداني نص عليه بقوله:« فقل من يخوض فيها [الرياضيات]إلا وينخلع من الدين ،وينحل عن رأسه لجام التقوى» ،انظر: الغزالي،المنقذ من الضلال،ص102.

3 ـ الغزالي ،المنقذ من الضلال ص104 .

العلم ،وتأويل تلقف العصا سحر السحرة على إبطال الحجة الإلهية شبهات المنكرين على يد موسى عليه السلام (1).

وقد رد الغزالي على الفلاسفة هذه الجوانب لاعتمادهم فيها على الظن والتخمين دون التحقيق العلمي المبني على الحجة والدليل ،ولذلك تكتسب أدلته النقدية لها قوة علمية تنبئ عن مدى اعتماده المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية.

4 ـ **العلوم السياسية**:ويبحث فيها الفلاسفة عن الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ،ولا يرى الغزالي لذلك أي تعلق بالدين ،بل يمكن الاستفادة من أبحاثهم فيها باعتبارها مستمدة ـ كما يرى ـ من كتب الله المنزلة على الأنبياء،ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء (2)،وهذا الموقف هو الذي أكسب الغزالي فكرا سياسيا متينا يحتاج إلى مزيد دراسة.

5 ـ **العلوم الأخلاقية** :وكلامهم فيها ـ كما يلخصه الغزالي ـ يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وأجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها،وهو لا يرى ردها باعتبارها لا تناقض الشرع ،بل يرى أن كلامهم فيها مأخوذ من كلام الصوفية والمتألهين (3) الذين لم يخلو من وجودهم أي عصر من العصور،ولذلك فإن الاستفادة منهم تلق لمزيد من التجارب والفوائد التي لم تمنعنا الشريعة من الأخذ بها (4).

6 ـ **العلوم الإلهية**:وهي التي انصب عليها نقد الغزالي ،لأن أكثر أغاليطهم فيها ،وقد كان منهج الغزالي في نقدها يعتمد على بيان مخالفتها للمنطق الذي وضعوه هم بأنفسهم ،وفي ذلك تمام الحجة عليهم ببيان تناقضهم،يقول الغزالي في « التهافت » : « ونناظرهم في هذا الكتاب بلغتهم،أعني بعباراتهم في المنطق،ونوضح أن ما شرطوه في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطق،وما شرطوه في صورته في كتاب القياس ... لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الإلهية » (5)،وقد كان من شدة انتباه الغزالي في هذا الميدان هجره لألفاظ المتكلمين ومناظرته إياهم بأسلوبهم واصطلاحاتهم ومنطقهم .

---

1 ـ الغزالي ،تهافت الفلاسفة،ص192.

2 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال،،ص108.

3 ـ التأله: التنسك والتعبد،انظر:ابن منظور،لسان العرب،ج13،ص467،رقم:8664.

4 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص109.

5 ـ الغزالي،تهافت الفلاسفة،ص45.

وهو لم ينقدهم كفيلسوف (1)،ولم يحكم عليهم بالكفر أو البدعة كفقيه إلا بعد النظر في علاقة آرائهم بما جاءت به الشريعة، لأنها عقل من الخارج. ويستحيل تصادم العقل الخارجي مع العقل الداخلي ،ولذلك جمع من أقوالهم في الإلهيات عشرين مسألة ،كفرهم في ثلاثة منها، وبدعهم في الباقي ، « وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم :إنه عليم بالذات، وما يجري مجراه،فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ،ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك»(2).

وقد خص كتابه « تهافت الفلاسفة » بنقض تلك المسائل العشرين .ومن استقراء منهجه في النقد يمكن استخراج الكثير من القواعد المهيئة لملكة المناظرة،ولعل ذلك داخل ـ أيضا ـ في قصد الغزالي .

بعد هذا التقسيم لا يرى الغزالي حرجا أن يستفيد اللبيب من كل علومهم ما عدا ما عارض الشرع منها ،لأن معرفة الحق مطلب كل عاقل ،والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

وهو ينكر على من يرد عليهم بمجرد كونهم فلاسفة ،ويشبه ذلك بالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله عيسى رسول الله » فينكره،ويقول:هذا كلام نصراني ،ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول أو باعتبار إنكار نبوة محمد ﷺ (3).

وبسبب هذا الفكر المتفتح المنتقي استفاد الغزالي من الفلاسفة ،وضمن ذلك كتبه بعد مزجه بالنصوص الشرعية ،أو بعد أسلمته، وقد لاقى بسبب ذلك النقد اللاذع من كثير من الطاعنين ،كقول ابن العربي المالكي : « إن شيخنا هذا [الغزالي]دخل بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج فما قدر » (4)،وقد حصل له ذلك الاعتراض في حياته ،فقال مجيبا : « ولقد اعترض على بعض

---

1 ــ لعباس محمود العقاد محاضرة في إثبات القدرات الفلسفية للغزالي بين فيها أن نقده للفلسفة هو من النبوغ الفلسفي الذي لايرضى بالتقليد ،ولذلك فإن نقده للفلسفة كان من باب الفلسفة،انظر :عباس محمود العقاد، فلسفة الغزالي [ضمن :المجموعة الكاملة لمؤلفاته]. ط1،بيروت:دار الكتاب اللبناني، 1978م،ص461 ــ472.

2 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص107.

3 ــ المصدر نفسه ،ص110.

4 ــ ابن العربي، العواصم من القواصم ،ص7.

الكلمات في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم،ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم ،وزعمت أن تلك الكلمات من كلمات الأوائل ،مع أن بعضها من مولدات الخواطر ،ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ،وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ،وأكثرها موجود معتاد في كتب الصوفية » (1).

ثم يعقب على ذلك منكرا : « وهب أنها لا توجد إلا في كتبهم ،فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيدا بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ،فلم ينبغي أن يهجر وينكر ؟ » (2).

وقد كان لهذا السلوك العلمي الموضوعي نحو الفلسفة وكل الأفكار الدخيلة أثره الإيجابي، حيث أن حملة الغزالي على الفلسفة ــ كما يشهد الكثير من الباحثين ــ لم تكن إلا المرحلة الأخيرة من النزاع بين الدين والفلسفة ،والتي انتهت بفوز الدين وتقلص جميع الحركات التي كانت تأخذ من الفكر اليوناني بطرف كالمعتزلة وغيرهم (3) ،وقد نص على هذا التأثير من معاصري الغزالي ابن العربي في قوله : « ... فانتدبت للرد عليهم [الفلاسفة]بلغتهم ومكافحتهم بسلاحهم والنقض عليهم بأدلتهم أبو حامد الغزالي، فأجاد فيما أفاد ،وأبدع في ذلك كما أراد الله وأراد ،وبلغ في فضيحتهم المراد ،فأفسد قولهم من قولهم وذبح بمداهم » (4) .

أما كتاب « تهافت التهافت » الذي ألفه بن رشد بعد ذلك. فقد كان مجرد دفاع عن الفلاسفة أكثر منه دفاعا عن الفلسفة ،والغزالي نقد الفلسفة كمنهج وفكر ،وليس له اهتمام بمن يخوض فيها ،فهو يردد دائما: « العاقل يعرف الحق،ثم ينظر في نفس القول ،فإن كان حقا قبله سواء كان قائله مبطلا أو محقا،بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال » (5).

بعد بيان موقف الغزالي العلمي المتحرر من كل قيد سوى القيود التي يفرضها المنهج العلمي نستغرب بعض الكتابات التي ترمي الغزالي بالتعصب في نفس الوقت الذي تصف فيه الفلاسفة الذائبين في أرسطو بالتحرر كقول حسين

---

1 ،2 ــ الغزالي،المقذ من الضلال،ص111.

3 ــ محمد أبو الفيض الفيومي ،الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل ،ص30.

4 ــ ابن العربي، العواصم من القواصم ،ص105ــ106.

5 ــ الغزالي،المنقذ من الضلال ،ص110.

مروة عنه: « هو الذي سلط سيف الإرهاب الفكري الديني على الفلسفة والفلاسفة،وهو الذي حدد ـ إلى مدى بعيد ـ أشكال النظر الوحيد الجانب إلى هذا التراث في مباحث المتكلمين الأشعريين المتأخرين وغيرهم » (1).

وهذا القول وأمثاله أحكام غير موضوعية ناتجة عن توجهات فكرية معينة تفتقر إلى الصدق والدليل.

لقد تبين لنا من خلال هذا الفصل الأصول التي يعتمد عليها منهج الغزالي الإصلاحي ، وهي أصول متكاملة مترابطة متناسقة، لاتصادم بينها في تصور الغزالي ،لأنها نابعة من عين واحدة، ومتوجهة نحو غاية واحدة ،ولعل ما يميز الغزالي في علاقته بها هو اهتمامه بمقاصدها وحقائقها دون انشغاله عنها بما أثير حولها من جدل عقيم ، أو حشو فارغ.

وبعد هذا نتساءل عن الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع الصالح في تصور الغزالي ، وهو ما سنراه في الفصل التالي.

---

1 ــ حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ،بيروت :دار فارابي،1978،ص53.

الفصل الرابع

أسس بناء المجتمع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا ــ الإيمـــان

يرى الغزالي أن « الإيمان » هـــو المقصـــود الأول لكـــل إصـــلاح نفســـي أو اجتماعي، لأن كل السلوكيات النفســـية أو الاجتماعيـــة ناشـــئة عـــن تصـــورات عقدية،فلهذا كان البحث في الإيمان والســـبيل إلى تحققـــه بـــأكمل درجاتـــه هدفـــا مقصودا له منذ شبابه الأول، عندما تعرض لمرحلة الشـــك ،ثم بعـــد ذلـــك عندمـــا حاول أن ينقل تجربته في البحث عن الإيمـــان لغـــيره.

وقد جلبت عليه طروحاته الجديدة ،والتي تعرض فيها لنقـــد بعـــض الطوائـــف الباحثة في العقائد الكثير من النقد، الناتج في أكثر الأحيان عن ســـوء فـــهم لمواقفـــه وآرائه ،و اعتباره بالتالي متناقضا ،وقد كان أهم تلـــك الطوائـــف « المتكلمـــين مـــن الأشاعرة » ،وسنحاول في هذا المبحث أن نكشـــف موقفـــه الحقيقـــي مـــن علـــم الكلام، ثم نبين عرضه التجديدي للعقيدة ،ونختم ذلك ببيـــان موقفـــه مـــن ظـــاهرة التكفير التي انتشرت،وبحـــدة،في عصـــره ســـواء بـــين المتكلمـــين أو غـــيرهم مـــن الطوائـــف.

1 ــ موقف الغزالي من منهج المتكلمين في عـــرض العقيـــدة :

يحرص الغزالي عند بيانه لموقفه من علـــم الكـــلام ومـــن المتكلمـــين أن يبـــين الدور الحقيقي المناط بعلم الكلام ،وكونه علما محمودا أو فـــرض كفايـــة بســـببه. ثم علاقة تلك المباحث الكلامية بالإيمان ، وهو يرى لذلـــك أن الغـــرض الأصلـــي مـــن علم الكـــلام هـــو « حفـــظ عقيـــدة أهـــل الســـنة وحراســـتها عـــن تشـــويش البدعة»(1)،ويرى المتكلمين حراسا لتلك العقيـــدة مـــن شـــبهات المبتدعـــة مشـــبها إياهم بالحراس المستأجرين لحماية الحجاج من قطـــاع الطـــرق ،فلـــو تـــرك قطـــاع الطرق اعتداءاتهم لم يكن لاستئجارهم معنى، « فلذلك لـــو تـــرك المبتـــدع هذيانـــه لما افتقر إلى الزيادة على ما عـــود في عصـــر الصحابـــة ﷺ » (2) ، وهـــذا فـــإن المتكلمين في رأي الغزالي قد قاموا بما وجـــب عليـــهم، وانتدبـــوا لـــه مـــن نصـــرة العقيدة وحمايتها من الشبهات الحادثة « فأحسنوا الذب عـــن الســـنة والنضـــال عـــن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير في وجـــه مـــا حـــدث مـــن البـــدع » (3)،

---

1 ــ الغزالي، المنقذ من الضـــلال،ص87.

2 ــ الغزالي، الإحيـــاء ،ج1،ص22.

3 ــ الغزالي،المنقذ من الضـــلال ،ص89.

ويرى كذلك ضرورة وجودهم الدائم في المجتمع الإسلامي كحراس للعقيدة من كل شبهة طارئة أو بدعة حادثة.

وقد مارس الغزالي نفسه هذه الوظيفة،واكتسب بسببها صفة المتكلم الأشعري ، فإنه في منهجه العقدي العام «لم يخرج قط على المخطط الإسلامي،وبخاصة الاتجاه السني الأشعري،ولم يكن هناك أي تناقض صريح فيما تتضمنه كتبه سواء كانت للعامة أو للخاصة » (1)،ومع ذلك فالغزالي يدعو إلى تطوير علم الكلام ليتناسب مع عصره أو العصور التي تليه،وليؤدي الدور الحقيقي المعلق به ،فقد انشغل الكثير من المتأخرين بحكاية أقوال السابقين،وأدخلوا في علم الكلام ما ليس من غرضه ،وأوجبوه على العامة،وحكموا بالتكفير والتضليل بناء على ذلك ،و الغزالي ينتقد كل ذلك،ولعل أهم الملامح العامة لدعوة الغزالي التطويرية لعلم الكلام هي :

أ ــ **التفريق بين المقاصد والغايات في علم الكلام**:فالإيمان هو المقصد الأول،وما علم الكلام إلا منهج من مناهجه وظيفته حماية الإيمان من تشويشات المبتدعة وشبهاتهم ،يقول الغزالي عن « علم الكلام » بعدما طلب البحث فيه عن « الحقيقة » : « فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي » (2)،ولهذا فإن له حكم الوسيلة من حيث الحاجة إليها أو عدم الحاجة،لذلك ينتقد الغزالي الطريقة التعميمية في عرض مسائل العقيدة بالمناهج الكلامية لما تثيره من شبهات وتشكيكات، و يرى أن يقتصر في البلاد التي تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب، على العقائد المعروفة دون التعرض للأدلة إلى أن تقع الشبهة ،وحينذاك تذكر الأدلة بقدر الحاجة؛ فإن كانت البدعة شائعة، وخيف على العوام أن يخدعوا بها ،فلا بأس من عرض الأدلة وتعميم العلم بها بحسب الحاجة إلى ذلك(3)،أما في غير تلك المواضع فإن الغزالي يرى حرمة خوض العوام في علم الكلام و إلجامهم عنه إلا لأحد شخصين :

ــ رجل وقعت له شبهة لا يمكن إزالتها عنه بكلام وعظي ،وعلم أن القول الكلامي المرتب يرفع شبهته ويداويها .

ــ شخص كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الإيمان يريد تحصيله

---

1 ــ د. محمد جلال شرف ، الله والعالم و الإنسان في الفكر الإسلامي ،بيروت: دار النهضة العربية ،ص47.

2 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص87.

3 ــ الغزالي، الإحياء ،ج1،ص98.

ليداوي به مريضا إذا وقعت له شبهة ،أو يفحم به مبتدعا أو يخرس معتقده إذا أراد مبتدع إغواءه (1) .

وهو يرى لذلك حرمة التصدي لتعلمه بتفاصيله، كفرض كفائي إلا لمن توفرت فيه الأهلية لذلك ،والغزالي يحصرها في ثلاث خصال :

_ **التجرد للعلم** والحرص عليه ،لأن المحترف تمنعه أشغاله عن مواصلة التعلم وإزالة الشكوك إذا عرضت.

_ **الذكاء** ،لأن البليد لا ينتفع بفهمه ،ولا بحججه،فيخاف عليه من ضرر الكلام في نفس الوقت الذي لا يرجى نفعه.

_ أن يكون في طبعه **الصلاح والتقوى** ،لأن الفاسق يرتد عن الدين بأدنى شبهة (2).

وهو لهذا التحديد الوظيفي لعلم الكلام يرى أن المرتبة الإيمانية للمتكلمين لا تختلف عن مراتب العوام ،ولهذا ينصح المتكلم بقوله : « فليعلم المتكلم حده من الدين ،و أن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج ،فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج،والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة، ولم يسلك طريق الآخرة لم يكن من جملة علماء الدين أصلا»،ثم يعقب على ذلك بقوله : « وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام،وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة »(3).

ب _ تطوير المنهج البرهاني لعلم الكلام:يرى الغزالي أن معظم الحجج التي اعتمد عليها المتكلمون ترجع إلى مقدمات تسلموها من خصومهم تستند إلى مجرد النقل أو التقليد، دون أن تعتمد على ضروريات واضحة ،وهم في مناقشاتهم كذلك لخصومهم يعتمدون على استخراج مناقضاتهم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ،وهذا المنهج قد يؤثر في إبطال أقوال الخصوم وقمع البدعة،ولكنه غير كاف في إظهار الحق والبرهنة على صحته،وخاصة في حق من لا يسلم بغير الضروريات(4) .

ومع تحديد الغزالي لوظيفة علم الكلام باعتباره وسيلة تعتمد حجج كل بيئة توجد فيها ،ولو كانت حججا خطابية جدلية إلا أنه يرى ضرورة البحث

---

1 ــ الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ،ص173،174.

2 ــ الغزالي، الإحياء ، ج1،ص99.

3 ــ المصدر نفسه ، ج1،ص23.

4 ــ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص90.

العقلي للتوصل إلى حراسة المعتقدات بأدلة منطقية ضرورية تصلح لكل بيئة،ويسلم لها كل الناس.

ومع هذا ،فإن الغزالي نفسه عند مناقضاته للخصوم ،وخاصة الفلاسفة اعتمد على مسلماتهم ،وحاربهم بمنطقهم ،وألزمهم بأقوالهم ،ولعل في ذلك إشارة إلى صعوبة التوصل إلى أدلة ضرورية تتفق عليها كل العقول ،وتنتفي بها كل الشبهات .

وقد حاول المتأخرون من المتكلمين كما يذكر الغزالي البحث عن حقائق الأمور، وخاضوا في البحث في الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ،فلم يحصل منه ما يمحو كلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق(1).

ومع هذه الدعوة والقصور عن الوفاء بها في نفس الوقت، تلميح إلى ضرورة الاجتهاد الدائم في هذا العلم ،ونهي عن التقليد،أو تحويل علم الكلام عن غرضه الأصلي ،الذي هو البحث الدائب عن الأدلة لنصرة العقيدة إلى التعصب للآراء والتمذهب بها، وكأنها مقصودة لذاتها.

ج ـ توسيع ميادين علم الكلام : بما أن مقصد علم الكلام هو حراسة عقيدة أهل السنة من تشويشات المبتدعة وشبهها لهم ،فإن الغزالي يرى وجوب تصديه لكل شبهة عارضة، وعدم حصره في الرد على المعتزلة، أو بعض الفرق الإسلامية، كما هو حاصل في عصره،لأن آراء المعتزلة ـ وإن كانت سببا في نشوئه كعلم شرعي ـ إلا أن الشبهات العقدية لا تتوقف عندهم،فهناك الفلسفات المضللة،والأديان المحرفة،والشبهات التي تنتشر بين العامة داعية إلى التكاسل عن الطاعات وغيرها ،وكل ذلك يحتاج إلى نصرة .

ولهذا فإن الغزالي يوسع علم الكلام ليشمل نصرة العقيدة والشريعة معا ضد كل الفرق المنحرفة والأديان المضللة والشبهات العامة ،ونجد هذه النصرة صريحة في كل كتبه ،ولهذا لا غرابة في وصف جميع كتبه بـ « الكلامية » ،مادام هدفها هو هذه النصرة،فرده على الفلاسفة كان ردا كلاميا عقليا دعاه إليه ما رآه من إهمال الكثير من الواجبات الشرعية ،والتذرع بطلب الحكمة والفلسفة،وكذلك في رده على الباطنية، أو مبتدعي الصوفية، أو بتفنيده لألوهية المسيح وبيانه لتحريف الإنجيل،أو رده على الشبهات التي يعتمد عليها المغترون

---

1 ـ الغزالي، المنقذ من الضلال ،ص91.

وفي هذا التوسيع دعوة ثانية من الغزالي للمتكلمين للخروج من القوالب التي وضعها أسلافهم،والنهوض بهذا العلم لأداء غرضه الأصلي الشرعي .

2 ـ تجديد الغزالي في عرض العقيدة:

لا يعني التجديد في الفكر الإسلامي شيئا غير العودة إلى الأصول وتطبيقها في الواقع تطبيقا يلائم العصر ويراعي الحاجات ،وقد كان تجديد الغزالي في الميدان العقدي يتمثل هذا المعنى،فهو يدعو إلى العودة إلى « الإيمان » بمفهومه الحقيقي الواسع،بعد أن تحور معناه إلى « صناعة الكلام ،ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات » (1)،وحقيقة الإيمان التي يدعو الغزالي إلى عرضها والتحقق بها ترتكز على دعامتين:

أ ـ **العلم** :وهو العلم بالعقائد والتسليم لها ،وبما أن كل علم يتطلب موضوعا ومسائل يتعلق بها ،والتسليم يقتضي براهين وحججا تؤيده ، فإن العلم الإيماني عند الغزالي يستلزم كلا الجانبين :

1 ـ **البراهين العقدية** : يحاول الغزالي عند حديثه عن البراهين الإيمانية أن ينقل آثار تجربته الشكية حيث أنجاه الله منها « ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ،بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر » (2)،فالإيمان إذن هبة ربانية، لا يعلم على وجه التحديد سببها « ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد أبدع جد الإبداع، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده عطية وهدية من عنده » (3)،ثم يرد ساخرا على منهج المغالين من المتكلمين قائلا: « فليت شعري متى نقل عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة ﷺ إحضار أعرابي أسلم ،وقوله له: « الدليل على أن العالم حادث أنه لا يخلو من الحوادث والأعراض ،وما لا يخلو عن الحوادث حادث،وأن الله تعالى عالم بعلم،وقادر بقدرة زائدة عن الذات، لا هي هو، ولا هي غيره » (4).

ولذلك فإنه يضع منهجا آخر للتصديق بدل ذلك،وقد أشار إلى هذا المنهج البارون كارادوفو في قوله:«لم يقم الغزالي مذهبا في علم الكلام بحصر المعنى،وإنما أتى بما هو أعظم من هذا، وهو أنه أحدث روحا، وجدد مذهبا،فهو قد طرد

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص33.

2 ـ الغزالي،المنقذ من الضلال،ص85.

3 ،4 ـ الغزالي،فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة [ضمن القصور العوالي]،ص162.

المناقشات غير الجدية وأبعد الفضول الدقيق والزهو العقلي ،وأوجب تغلب روح الإيمان » (1)،وروح الإيمان تستدعي التسليم والإذعان ببساطة دون غلو في إعمال العقل.

ولعل ما دعا الغزالي إلى هذا الحكم هو ما شهده من عقيدة أهل الصلاح من العوام مقارنة بعقيدة المتكلمين والمجادلين، « فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ ،وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ،ومرة هكذا » (2).

ولذلك ،فإن الطريق الذي يرسمه الغزالي للتصديق هو أن يثبت الاعتقاد في نفس العامي، بل في نفوس الصبية حتى تترسخ ،وطريق ذلك أن يشتغل بوظائف العبادات، « فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه ،وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها ،وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها ،فيكون أول التلقين كإلقاء البذر في الصدر ،وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له » (3)،وبعد هذا ينبغي حراسته عن الجدل والكلام ،لأن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده، وما يفسده أكثر مما يصلحه.

2 ـ **المسائل العقدية** : يرى الغزالي أن هذه المسائل محدودة بما جاءت به النصوص الشرعية،ويرى أن أقل ما ينبغي اعتقاده هو ما يترجمه قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله» فإذا صدق الرسول ﷺ فعليه أن يصدقه في صفات الله تعالى « وليس عليه بحث عن حقيقة هذه الصفات وأن الكلام والعلم وغيرهما قديم أو حديث،بل لو لم تخطر هذه المسألة عليه حتى مات ،مات مؤمنا ...ولم يكلف رسول الله ﷺ أكثر من ذلك » (4).

وقد وضع الغزالي رسالة في العقيدة موجهة للصبيان والعامة بغرض حفظها،وهي تجمع بأسلوب متين جميع ما يطلب اعتقاده مستندا إلى النصوص الشرعية في ذلك ،وقد سماها « **الرسالة القدسية** » (5)،ثم وضع رسالة أخرى مكملة لها كاشفة عن براهينها سماها « **لوامع الأدلة** » وكلتا الرسالتين تجمعان

---

1 ـ البارون كارادوفو، الغزالي، ترجمة عادل زعيتر، ط2، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1984،ص103.

2 ،3 ، 4 ـ الغزالي، الإحياء، ج1،ص94.

5 ـ وهي رسالة صغيرة ،ومع ذلك تجمع الكثير من تفاصيل العقائد،وقد لقيت العناية من كثير من العلماء بالشرح والتفصيل لمسائلها، وسميت كذلك لأنها وضعت بالقدس في فترة العزلة الأولى ،انظر:الغزالي،الإحياء،ج1،ص104 ـ115.

ما اتفقت عليه الأمة من العقائد ،وتغني عن الكتب المطولة في ذلك .

وكما أن منهج البراهين العقدية تعرض لغلو بعض المتكلمين،فكذلك بعض مسلك العقيدة تعرضت لشبهات«الجهمية »(1)و«الكرامية »(2)و«المشبهة »(3)وغيرهم،فاحتاجت إلى من يقي المجتمع الإسلامي أخطار شبهها.

وبما أن كل تلك الطوائف كان تعرضها للإيمان بالله بالدرجة الأولى،نتيجة سوء فهم لـ « الألوهية » ساعد عليه ما تشابه من النصوص ،فإن الغزالي قد ناصر،وخاصة بالنسبة للعامة ،المنهج الأسلم لذلك ،وهو منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين،ولهذا لم يقف منها موقف التأويل أو التعطيل بل دعا إلى معاملتها بسبع وظائف هي:

ـ **التقديس**:وهو تنزيه الله تعالى عن الجسمية وتوابعها من صفات الحوادث.

ـ **التصديق**:وهو الإيمان بأن ما ورد من النصوص حق، وأنه أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته.

ـ **الاعتراف بالعجز** عن معرفة حقيقتها.

ـ **السكوت عن السؤال عن معناها**،لأن ذلك بدعة كما نص عليه الإمام مالك رضي الله عنه .

ـ **الإمساك عن التصرف في ألفاظها** بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيها والنقصان منها والجمع والتفريق ...بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والصيغة.

ـ **كف الباطن عن البحث عنها** والتفكير فيها.

ـ **التسليم لأهلها** ممن يعلمون ما تشابه منه من الأنبياء والراسخين في العلم(4).

---

1 ـ أتباع جهم بن صفوان [ت128هـ] ،وهي فرقة تقول بالجبر،وتنفي الصفات ،وترعم أن الجنة والنار تبيدان وغيرها من المقولات ،انظر: عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق،ص199.

2 ـ أتباع محمد بن كرام [ت869م] ، وهي من الفرق المجسمة القائلة بأن الله تعالى محل للحوادث ،انظر:المصدر السابق،ص202 ـ214.

3 ـ هم طوائف شتى اجتمعت على القول بتشبيه ذات الله تعالى وصفاته بغيرها، انظر: المصدر السابق،ص214.

4 ـ انظر تفصيل ذلك في : الغزالي، إلجام العوام عن علم الكلام ،ص54 ـ85.

ب ـ التحقق الذوقي:يعبر الغزالي عن هذا الركن من الإيمان **باليقين**، معتبرا إياه رأس مال الدين،وهو لا يقصد منه ما يقصده المتكلمون من التصديق الجازم بالشيء ،والذي ينفي عنه الظن أو الشك أو الوهم،فإن ذلك لا يحتل إلا حيزا بسيطا من الإنسان هو حيز الذهن المصدق،أما اليقين الحقيقي، فهو غلبة التصديق على القلب، حتى يصير هو المتحكم والمتصرف في النفس بالإجازة والمنع(1).

وهذا الإيمان هو الينبوع الذي تفيض منه كل الخيرات ؛ويضرب الغزالي لذلك مثلا بتوحيد الأفعال،فالعقل بعد أن يطمئن إلى حقيقة توحيد الأفعال مصدقا بذلك مدعما له يكون قد دخل حيز الإيمان،ونال المرتبة الأولى منه،ولكنه إذا نقل ذلك اليقين العقلي إلى نفسه وقلبه وحواسه جميعا فصار « يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب؛فلا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها ،فإنه ينتقل إلى مرتبة اليقين »(2).

والإيمان بالمعنى الأول الذي هو مجرد التصديق بالتوحيد معتبر ،وينفع صاحبه،ولكنه لا يؤثر في سلوكه ،ولا في حياته،ولا في نيله للدرجات العليا في الآخرة،وأما بالمعنى الثاني ،فإنه كما يقول الغزالي: « مهما تحقق أن الشمس والنجوم والجمادات والنباتات مسخرات بأمره،وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم،وصار موقنا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق » (3).

وهذا أثر من آثار نوع واحد من أنواع التوحيد وهو توحيد الأفعال،ولكل صفة من صفات الله تعالى أو اسم من أسمائه أثره الخاص به،والذي لا يمكن للإنسان أن يناله إذا لم يستول على قلبه معنى ذلك الاسم أو تلك الصفة،وهو معنى الإحصاء الذي ورد في قوله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة » (4).

وليس الإحصاء أن يسمع لفظها،أو يفهم في اللغة تفسيرها ،أو يعتقد وجودها،فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة السمع،وأما فهم وضعها اللغوي، فلا يستدعي إلا المعرفة بالعربية،وأما اعتقاد ثبوت معناها لله تعالى، فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها،بل إن الإحصاء كما يشرحه

---

1 ـ الغزالي ، الإحياء ،ج1،ص73.

2 ،3 ـ المصدر نفسه،ج1،ص74.

4 ـ الترمذي ، السنن،[أبواب الدعوات]،ج5،ص192،رقم3574.

الغزالي هو أن ينال المؤمن ثلاثة حظوظ من معاني أسماء الله الحسنى هي:

ـ معرفة معاني تلك الأسماء معرفة كشفية شهودية،ولفظا « **المكاشفة والمشاهدة** » اللذان يكثر الغزالي من استعمالهما في كتبه لا يريد بهما الرؤية البصرية و الحسية،وإنما هما استعارة لغلبة اليقين على البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الحسي (1).

ـ استعظام ما ينكشف له من صفات الجلال على وجه يشوقه إلى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات ،ليؤهله ذلك إلى التقرب من الله تعالى،فالمعرفة ـ كما يرى الغزالي ـ بذر الشوق(2).

ـ السعي إلى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها ،وبذلك يصير العبد «ربانيا » متحققا بالقرب من ربه ﷻ.

وهذا وصف جيد لطريق التحقق بالاعتقاد الذي ينطلق من المكاشفة وينتهي بالتخلق ،وهو النتيجة الطبيعية للمعرفة.وبذلك فإن التخلق الناتج عن المعرفة أكمل وأدوم بخلاف التخلق الناتج عن الرياضات والمجاهدات.والغزالي يحبذ هذا الطريق ويدعو له ،وفي نفس الوقت يدعو إلى رياضة النفس في حالة جموحها، لأن صفاءها الممكن شرط أولي للتحقق بالمعرفة.

ولأجل بيان كيفية إحصاء كل اسم من الأسماء ألف الغزالي كتابه:« **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** »،وهو كتاب فريد في بابه، تكلم فيه كلام الذائق المشاهد الذي عاش الإيمان، واستولى على قلبه،لا كلام من غلبت عليه صناعة المتكلمين و تدقيقا تهم.

3 ـ موقف الغزالي من ظاهرة التكفير:

بما أن مفهوم الإيمان يرتبط بتحديد نقيضه الذي هو الكفر،ونتيجة للأخطار التي تسببها ظاهرة التكفير،فإن الغزالي يهتم بتحديد ضوابط الكفر،ولعل ما دعاه إلى ذلك هو الطعن الشديد الذي تعرض له بسبب مخالفته الأشعري في بعض المسائل الفرعية، وخاصة من طرف « المازري » وقد ألف بسبب ذلك الطعن رسالة تعتبر من أهم الرسائل في هذا المجال ،وهي « **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة** » ،والتي يقول في مقدمتها : « إني رأيتك أيها الأخ المشفق منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض

---

1 ـ الغزالي ،الإحياء ،ج4،ص312.

2،3 ـ الغزالي ،المقصد الأسنى ،ص32.

كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين وزعمهم أن فيها ما يخالف مذاهب الأصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين ،وأن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر ،ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر » (1).

ثم يسأل هؤلاء المتعصبين عن الميزان الذي رأوا به أن الحق قاصر على الأشعري أو غيره مع أن الباقلاني نفسه ،وهو من أتباع الأشعري يخالفه في صفة البقاء لله تعالى ،وأنه ليس وصفا زائدا على الذات، فـ «لم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني ؟ولم صار الحق وقفا على أحدهما دون الثاني ؟ أكان ذلك لأجل السبق في الزمان ؟ فقد سبق الأشعري غيره من المعتزلة،فليكن الحق للسابق عليه؛أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم ؟فبأي ميزان ومكيال قدر درجات الفضل؟ » (2)،ثم يعقب على ذلك بقوله: « فإن رخص للباقلاني في مخالفته،فلم حجر على غيره؟ » (3).

وهو يبين أن سبب هذه الظاهرة ــ والتي لم يخلو منها عصر من العصور الإسلامية ــ غلبة الجهل ،أو ما يسمى بالجهل المركب، وخاصة ممن بضاعتهم الفقه المجرد، يقول في ذلك: « فإذا رأيت الفقيه الذي بضاعته مجرد الفقه يخوض في التكفير والتضليل فأعرض عنه ،ولا تشغل به قلبك ولسانك ،فإن التجدي بالعلوم غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجهال ،ولأجله كثر الخلاف بين الناس » (4).ويمثل هؤلاء ببعض المتكلمين في العقائد الذين كفروا عوام المسلمين « وضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده،وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين» (5).

ولذلك يتشدد الغزالي في شروط من له حق التكفير والتضليل حتى لا يبقى مشاعا بين العامة، أو من هو في حكمهم ،يقول الغزالي: « ولا ينكشف هذا إلا لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولا ،ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيا ،ثم نورت بالذكر الصافي ثالثا،ثم غذيت بالفكر الصائب رابعا. ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسا، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة » (6).

واشتراط الغزالي تزكية النفس لمن يتصدى لمثل هذه القضايا يشير إلى أن الكثير من مسائل التكفير المنتشرة يتدخل فيها إلى حد كبير التعصب والحسد

1،2 ــ الغزالي ،فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، [ضمن القصور العوالي].ص147.

3،4 ــ المصدر نفسه،ص171.

5 ــ المصدر نفسه،ص145.

6 ــ المصدر نفسه،176.

وغيرهما من الأمراض النفسية التي تحجب المصاب بها عن رحمة الله الواسعة .ولذلك يقول الغزالي، وبتفتح عجيب قد يستغرب من متكلم :« وأنا أقول :إن الرحمة تشمل كثيرا من الأمم السالفة،وأن أكثرهم يعرضون على النار، إما عرضة خفيفة حتى في لحظة أو ساعة،وإما في مدة حتى يطلق عليهم « بعث النار»،بل أقول :إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة – إن شاء الله تعالى – أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك،ولم تبلغهم الدعوة » (1)،ويقسم هؤلاء باعتبار بلوغهم الدعوة، وعدم بلوغهم إلى ثلاثة أصناف :

– صنف لم تبلغهم الدعوة،فهم معذورون .

– صنف بلغتهم الدعوة ،ولكنهم جحدوا،فهم الكفار المتحدون.

– صنف بين الدرجتين ،بلغتهم الدعوة، ولكنها شوهت في أذهانهم،والغزالي يضم هذا الصنف إلى الصنف الأول باعتبار ذلك التشويه لا يحرك في نفوسهم داعية الطلب(2).

هذا رأي الغزالي في التكفير خارج دائرة المسلمين، أما داخل دائرة المسمين فإن الغزالي يضع قانونا يساهم إلى حد كبير في تضييق دائرة الكفر إلى أدنى حد مشروع،ولأهمية هذا القانون ودوره في الحد من الغلو في التكفير،وكون العلم به هو العلاج الأمثل لهذه الظاهرة ،فسنختصر شرحه في هذا المقام .

ينطق الغزالي من قاعدة تطرد وتعكس في التكفير .وهي « أن الكفر تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به،والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به » (3)،ومع أن هذا الحد يتفق عليه الجميع إلا أن الخلاف واقع في تطبيقه . فالحنبلي يكفر الأشعري زاعما أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالى .وفي الاستواء على العرش ،والأشعري يكفره زاعما أنه مشبه. وكذب الرسول في أنه ليس كمثله شيء ، والأشعري يكفر المعتزلي زاعما أنه كذب الرسول في حق رؤية الله تعالى ،والمعتزلي يكفر الأشعري زاعما أن في إثبات الصفات تكثير للقدماء » (4)

هذه هي الشبهة الكبرى في التكفير حتى أن البعض يكفر أحاد إن أنكر سنة آحاد أو أول نصا ،وهذا يضع الغزالي خمسة ضوابط يمكن الحكم انطلاقا منها بالتكفير أو عدمه،وهي :

---

1 – الغزالي،فيصل التفرقة،ص177.

2،3،4 – المصدر نفسه،ص149.

أ ـ **موضوع التكذيب** : وهو النظر في قصد المكذب لما جاء به الشارع.هل هو للخبر أم لمخبر ؟ فإن كان للمخبر فقد كفر، لا خلاف في ذلك ،وأما إن كان للخبر فينظر فيه ،فإن لكل موجود خمس مراتب ، لأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب »(1). وهذه المراتب هي :

1 ـ **الوجود الذاتي** :وهو الوجود الحقيقي الثابت خارج الحس ،ودلك كإخبار الرسول ﷺ عن العرش والكرسي والجنة والنار ونحوها .

2 ـ **الوجود الحسي** : وهو ما يتمثل في الحواس مما لاوجود له خارجها،وعليه يفسر الغزالي قوله ﷺ : « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة . ولا يتمثل الشيطان بي »(2)،فذلك لا يعني انتقال شخصه ﷺ من روضة المدينة إلى موضع النائم ،بل هي على سبيل وجود صورته في حس النائم فقط (3).

3 ـ **الوجود الخيالي** : وهو اختراع صور من المحسوسات في الخيال ،فيكون وجودها قاصرا عليه، دون أن يكون له أي أثر خارجي .

4 ـ **الوجود العقلي** : لأن لكل شيء روحا وحقيقة ومعنى ،يتقى العقل معناه دون صورته ،فاليد مثلا لها وجود ذاتي في نفسها، وحسي برؤيتها.وخيالي باختراع صورتها في المخيلة،وعقلي لحقيقتها ،وهي الدور الذي تؤديه من بطش أو كتابة أو إحسان أو غير ذلك.

5 ـ **الوجود الشبهي** :وهو أن لا يكون نفس الشيء موجودا ،ولكن يوجد شيء آخر يشبهه، « فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى نزله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب. كإرادة العقاب » (4).

هذه هي المراتب الخمسة للوجود كما يفصلها الغزالي ،وهو يرى أن كل من نزل قولا من أقوال صاحب الشرع على درجة منها، فهو من المصدقين.وإنما التكذيب أن ينفي جميعها(5)،ولكن ذلك ليس مطلقا، فالتأويل الذي يخرج النص عن ظاهره وحقيقته لا بد أن يستند إلى قانون وإلا أمكن تأويل

---

1 ـ الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة. ص150.

2 ـ البخاري،الجامع الصحيح،[كتاب التعبير]،ج4،ص71،رقم:6478.

3 ـ الغزالي،فيصل التفرقة،ص149.

4 ـ المصدر نفسه،ص151.

5 ـ المصدر نفسه،ص156.

الدين كله، كما فعل الغلاة من الباطنية والفرق المنحرفة.وضابط التأويل عند الغزالي هو قيام البرهان على استحالة الظاهر،والظاهر الأول هو الوجود الذاتي،فإنه إذا ثبت تضمن الجميع،وإن تعذر فالوجود الحسي؛فإن تعذر فالوجود الخيالي أو العقلي ،وإن تعذر فالوجود المجازي (1).

ويجب التكفير عند الغزالي إن تعلق التأويل بأصول العقائد المهمة من غير برهان قاطع، كإنكار حشر الأجساد ،أو إنكار العقوبات الحسية في الآخرة وغير ذلك،إذ لا برهان على استحالة ذلك،زيادة على الضرر العظيم الذي تحدثه مثل هذه التأويلات على الدين (2).

هذا هو الضابط الأول ،ولا يستقل بمعرفته إلا الجهابذة من العلماء .أما اعتبار التأويل تعطيلا للنص، واعتقاد أن ذلك هو مذهب السلف الصالح ﷺ فهو طعن فيهم، وكذب عليهم ،فقد روي من تأويلهم الشيء الكثير .فقد أول ابن عباس ﷺ الساق في قوله تعالى: ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ (القلم:42) بالشدة (3) ،يقول الغزالي : « ما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه،فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل ،وأبعد التأويلات عن حقيقة أن تجعل الكلام مجازا أو استعارة، وهو الوجود العقلي والوجود الشبهي .و خمسي مضطر إليه وقائل به »(4) .

ب ـ سند النص :وهو النظر في الطريق الذي ورد به الخبر .هل هو بالتواتر، أو بالآحاد، أو بالإجماع ؟فإن كان تواترا،نظر هل تحققت فيه شروط التواتر أم لا ؟ ومعرفة ذلك غامضة جدا إلا على الباحثين في كتب التاريخ والحديث وأحوال الرجال وغيرها من علوم التوثيق .ولذلك كثر الخلاف في تواتر أكثر ما زعم تواتره،أما الإجماع فهو أصعبها من حيث الوقوف عليه. إذ لابد من اجتماع العلماء جميعا في صعيد واحد، مع الاتفاق على أمر واحد بنفظ صريح ،ثم الاستمرار عليه إلى انقراض العصر (5).

1، 2 ـ الغزالي، فيصل التفرقة،ص159.

3 ـ ابن حجر،فتح الباري شرح صحيح البخاري،ط2،بيروت:دار إحياء التراث العربي،1402هـ،ج13،ص428، وانظر: ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه .تحقيق حسن السقاف،ط2، عمان: دار الإمام النووي ،1412ه ـ1992م. فقد نقل المحقق النصوص الكثيرة الدالة على ما ورد عن السلف الصالح من تأويل.

4 ـ الغزالي، فيصل التفرقة ، ص157.

5 ـ المصدر نفسه،ص140،وانظر: الغزالي،المستصفى،ج1،ص190 .

ج ـ **بلوغ الخبر**:وهو النظر في الطريق الذي وصل بـــه الخـــبر للمكـــذب،فقـــد يبلغه الخبر المتواتر بطريق الآحاد ،فيكذب به على ذلـــك الأســـاس ،فيكـــون مخطئـــا وجاهلا، لا مكذبا،والاستقلال بمعرفة التحقيق في ذلـــك ليـــس يســـيرا،لاعتمادهـــا على الاطلاع على حال المكذب ومعارفـــه (1).

د ـ **الدليل الباعث على مخالفة الظاهر** :فينظـــر فيـــه، أهـــو موافـــق لشـــروط البرهان الصحيح أم لا ؟لأن البرهـــان إن كـــان قاطعـــا رخـــص في التـــأويل ،ولا يستقل بهذه المعرفة إلا من عرف البرهان وشروطه، وأتقن ذلـــك،وهـــذا مـــا يفتـــح مجالا أكبر لحرية الرأي والمناقشة العلمية الهادفة ،والبعد عـــن الأحكـــام المســـبقة .

هـــ ـ **الخطورة الشرعية، لا العقليـــة أو العرفيـــة** :وهـــو النظـــر في الخطـــر الذي تسببه تلك المقالة على الدين ،فما لا يعظم ضرره بـــأن كـــان خرافـــة أو قـــولا شنيعا ظاهر البطلان لا يكفر به ،ويضرب الغـــزالي مثـــلا لذلـــك بمقولـــة « الإمـــام المنتظر » عند الشيعة ،وكونه مختفيا في سرداب ، وأنه ينتظـــر خروجـــه ؛فـــهو مـــع كونه قولا كاذبا ظاهر البطلان ،إلا أنه لا ضرر فيـــه علـــى الديـــن ، وإنمـــا الضـــرر على الأحمق المعتقد لذلك ،فلذلك لا يكفـــر بـــه(2).

ومـــن هـــذا البـــاب كفـــر الغـــزالي الفلاســـفة القـــائلين بعـــدم علـــم الله بالجزئيات،وعدم حشر الأجساد (3)،لأن مضرة هذا القـــول ـــ زيـــادة علـــى عـــدم استنادها إلى حجج واضحة قوية ـــ تفتح المجـــال لأخطـــار كبـــيرة علـــى جمـــهور الأمة، وترفع الثقة عن الألفـــاظ .

هذه هي الضوابط الخمسة للتكفير عند الغـــزالي ،وهـــي كمـــا رأينـــا شـــديدة الصعوبة لا يستقل بمعرفتها إلا من مارس العلـــوم الكثـــيرة، مـــع الاطـــلاع الواســـع الدقيق على حال المكفر ،ويختم الغزالي ذلك، ويسبقه بوصيـــة يقـــول فيـــها : « أمـــا الوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنـــك مـــادامو قـــائلين « لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله ﷺ »غير مناقضين لها ...فإن التكفـــير فيـــه خطـــر ،والســـكوت لا خطر فيـــه »(4).

---

1 ـــ الغزالي،فيصل التفرقـــة ، ص170.

2 ـــ المصدر نفســـه، ص171.

3 ـــ المصدر نفســـه ، ص149.

4 ـــ المصدر نفســـه، ص171.

إن أول ما فعله الغزالي بعد خروجه من عزلته وعزمه على التفرغ للإصلاح هو تأسيسه لمدرسة للعلماء وخانقاه للصوفية ،ولعل في ذلك إشارة إلى البداية الصحيحة للإصلاح،فبالعلماء الذين يمزجون بين العلم الشرعي السليم من كل دخن ،والتربية الروحية العالية التي تسير على منهاج النبوة ينطلق الإصلاح ،وبهذين الوصفين « تصير الحسبة من القربات ،وبها تندفع المنكرات ،وإن فقدت لم يندفع منكر ،بل ربما كانت الحسبة ـ أيضا ـ منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها » (1) .

وقد كان كلا هذين الجانبين بحاجة إلى الإصلاح لإخراج العلماء الربانيين والمصلحين ،ولذلك أخذا قسطا كبيرا من اهتمام الغزالي ،وتمحورت حولهما كل كتبه .

وهذان الجانبان لا يتحققان كما يرى الغزالي إلا بإعادة النظر في توجيه التعليم إلى أبعاده الإصلاحية ،وهو لا يتم إلا بإصلاح نظام التعليم نفسه، وسنتناول كلا الأمرين في هذا المبحث.

1 ـ البعد الإصلاحي للعلم :

لقد لاحظ الغزالي أن خلو التعليم في عصره من التوجيه الإصلاحي حوّل العلماء إلى معاول للإفساد،بدل أن يكونوا سببا لتشييد صرح الإصلاح ،وهذا الحكم لم يرسله الغزالي عبثا ،وإنما هو نتيجة خبرة وتجربة واستبار ومعاينة لأفراد الناس وسؤالهم عن سبب تقصيرهم في الشريعة،فالكثير منهم أجابه بأن « هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أحدر بذلك » (2).

يقول الغزالي : « إن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ،فاضطروا إلى إغواء الخلق ،و الإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا ،فبهذا السبب عمّ الخلقَ الداءُ ،وعظم الوباء ،وانقطع الدواء،وهلك الخلق لفقد الأطباء » (3) ،ولهذا يدعو إلى عنصرين أساسيين لتحقيق أبعاد العلم الإصلاحية ،وهما :

أ ـ **ربانية التعليم** :وهو توجيهه الوجهة الربانية لا الدنيوية ،والقصد به الله لا الجاه أو المال ،وتحريره من كل المطالب النفسية أو المادية ، وهذا ـ كما

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص333.

2 ـ الغزالي،المنقذ من الضلال،ص137.

3 ـ الغزالي،الإحياء،ج4،ص51.

يصور الغزالي ـــ هو الحال الذي دفعه إلى الاعتزال لأنه بعد البحث في مقصده وجدّه متوجها لطلب الجاه ،ووجد نفسه يعلّم العلوم التي بها يكسب الجاه،ويعبر عن ذلك أثناء تبريره لرجوعه إلى التعليم بالمدرسة النظامية بقوله : « وأنا أعلم أني إن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت ،فإن الرجوع عود إلى ما كان وكنت في الزمان[الماضي]أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ،وأدعو إليه بقولي وعملي،وكان ذلك قصدي ونيتي ،أما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه،ويعرف به سقوط رتبة الجاه » (1).

ولهذا يعتبر الغزالي السلوك الروحي شرطا ضروريا لربانية التعليم، وتحقيق أبعاده الإصلاحية في النفس أولا،ثم المجتمع ثانيا ،وهذه هي حقيقة العلم ـــ في تصوره ـــ كما كانت في عهد السلف الصالح ،فقد قال رجل لأبي هريرة ﷺ : « أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه » ،فأجابه : « كفى بترك العلم إضاعة له » (2) ،وسأل فرقد السبخي (3) الحسن البصري (4) عن شيء فأجابه ،فقال: « إن الفقهاء يخالفونك » ،فقال الحسن : « ثكلتك أمك فريقد ،وهل رأيت فقيها بعينك ؟إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم » (5) ،وعقب الغزالي على ذلك بقوله : « ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى » (6) .

وقد عقد الغزالي فصلا طويلا في « **كتاب العلم** » من « **الإحياء** » بين فيه علامات علماء السوء وآفاتهم التي يجرونها على المجتمع الإسلامي ،وأهم تلك العلامات وأخطرها، هي الاستغراق في حب الدنيا ،واتخاذ العلم وسيلة لها،فذلك يجر إلى خطرين :

---

1 ـــ الغزالي، المنقذ من الضلال،ص141.

2 ـــ الغزالي،الإحياء، ج1،ص59.

3 ـــ هو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي،من عباد البصرة،أسند عن مالك بن أنس وجماعة من كبار التابعين، توفي سنة 131هـ،انظر:ابن الجوزي،صفة الصفوة،ج2،ص164.

4 ـــ هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري،من كبار علماء التابعين وصالحيهم،توفي سنة 110هـ،انظر:ابن الجوزي،صفة الصفوة،ج2،ص139.

5،6 ـــ الغزالي،الإحياء، ج1،ص59.

ـ خوف العالم على دنيـاه، فلذلـك يضطـر إلى المداهنـة وعـدم الأمـر بالمعروف أو النهي عـن المنكـر خوفـا مـن تغـير قلـوب النـاس أو السـلطان عليه،ولذلك ـ كما يعبر الغزالي ـ « لا يخلـو عـن تكلـف في طلـب مرضـاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمـة » (1).

وقد ذكر الغـزالي مـن آداب المحتسـب « تقليـل العلائـق حـتى لا يكـثر خوفه،وقطع الطمع عن الخلائق حتى تـزول عنـه المداهنـة »(2)،ويذكـر قصـة في ذلك عن بعض المشايخ أنه كان له سـنّور ،وكـان يـأخذ مـن قصـاب كـان في جواره كل يوم شيئا من الغدد لسنّوره ،فرأى على القصـاب منكـرا ،فدخـل داره أولا ،وأخرج السنّور ،ثم جاء واحتسب عليه ،فقـال لـه القصـاب: « لا أعطينـك بعد هذا شيئا لسنّورك » ، فقال الشيخ : « ما احتسـبت عليـك إلا بعـد إخـراج السنّور وقطع الطمع منـك » (3).

ولذلك كان السلف الصالح يتخوفون من ثناء النـاس عليـهم خوفـا مـن أن يكون مصدر ذلك مداهنتهم لهم ،وينقل الغزالي في ذلـك عـن كعـب الأحبـار (4) أنه قال لأبي مسلم الخولاني (5) : « كيف منزلتك بين قومـك ؟ » قـال : « حسـنة » ، فقال كعب : « إن التوراة تقول : إن الرجـل إذا أمـر بـالمعروف ونهـى عـن المنكر ساءت منزلته عند قومه » ،فقال أبو مسلم : « صدقت التـوراة وكـذب أبـو مسـلم » (6).

ـ تقصيرهم أو تفريطهم في العمل الصالح ،وارتكـابهم المعـاصي والفواحـش بسبب الغلو في طلب الدنيا ،فمطالبها يجر بعضـها إلى بعـض ،وقـد بـين الغـزالي العامل النفسي لذلك التناقض بين علمهم وعملهم فقال : « وفرقـة [أي مـن أهـل العلم] أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقـوا فيـها ،واشـتغلوا بهـا،و أهملـوا تفقد الجوارح وحفظـها عـن المعـاصي ،واغـتروا بعلمـهم وظنـوا أنهـم عنـد

---

1 ـ الغزالي، الإحيـاء، ج1،ص86.

2 ،3 ـ المصدر نفسـه، ج2،ص334.

4 ـ هو أبو إسحاق كعب الأحبار بن ماتع الحميري،كـان يـهوديا فأسـلم ،وقـدم المدينـة ،ثم خرج إلى الشام ،فسكن حمص،توفي سنة 32هـ،انظـر :المصـدر السـابق،ج2،ص181.

5 ـ هو عبد الله بن ثوب ،من كبار التابعين ،أدرك أبا بكر وعمر ،وأسـند عـن معـاذ بـن جبـل وعبادة بن الصامت،توفي في خلافة معاوية ،انظر:ابن الجـوزي ، صفـة الصفـوة،ج2،ص181.

6 ـ الغزالي، الإحيـاء، ج2،ص334.

الله بمكان ،وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ،بل يقبل في الخلق شفاعتهم » (1).

ويضرب لهؤلاء مثلا بالمريض الذي به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ،فسعى في طلب الطبيب ،فلما عثر عليه ،وفصّل الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادلها ؛ فتعلّم كل ذلك وكتب منه نسخا ،فلما رجع إلى بيته أخذ يكررها ،ولا يشتغل بشربها واستعمالها،يقول الغزالي : « أ فترى ذلك يغني عنه من مرضه شيئا ؟هيهات هيهات لو كتب منه ألف نسخة ،وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم، وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا » (2).

وفي رسالة « **أيها الولد** » ،وكلها نصائح قيمة في هذا المجال ،يضرب الغزالي مثلا آخر لعدم إمكانية النجاة بالعلم المجرد عن العمل ،وهو أنه « لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى ،وكان الرجل شجاعا وأهل حرب ؛فحمل عليه أسد عظيم مهيب ،فما ظنك ؟. هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها ؟ » (3) .

وفي تلك الرسالة ينطق الغزالي بهذه الحكمة : « لو كان العلم المجرد كافيا لك ،ولا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء هل من سائل ؟ ،هل من مستغفر؟،هل من تائب ؟ضائعا بلا فائدة » (4).

ب ـ **تعميم التعليم** :يرى الغزالي أن الوظيفة الحقيقية للعلماء هي التوجه لإصلاح العامة وتعليمهم دون قضاء العمر في التفريعات النادرة ،والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفاية (5).

ولكن هذه الوظيفة عرض لها ما جعلها وظيفة تطوعية نادر من يتفرغ لها من العلماء ،والسبب الذي يراه الغزالي لذلك هو إقبال العلماء على الولاة والسلاطين ،والتقرب منهم ،ونسيان أمر العامة ،يقول الغزالي عند بيانه لعلامات علماء الآخرة : « ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما داام يجد إلى الفرار سبيلا [لأن]المخالط لا يخلو عن تكلف في

1،2 ـ الغزالي، الإحياء،ج3،ص388.

3 ـ الغزالي، رسالة « أيها الولد» ،ص125.

4 ـ المصدر نفسه،ص128 ـ 129.

5 ـ الغزالي،الإحياء،ج4،ص50 ـ 51.

ضلب مرضاهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة » (1).

وبقدر تلك المفاصلة عن السلاطين يدعو الغزالي إلى الاقتراب من العامة وتعليمهم وتربيتهم ،لأن إصلاح القاعدة أجدى وأقرب وأسهل منالا .وقد وصف علماء السلف من تبعهم بأنهم « رجال عامة »،فهذا بشر بن الحارث الحافي (2) يعدد ثلاث خصال فضل بها الإمام أحمد عليه ،منها أنه « نصب إمامًا للعامة »(3)،ووصف الأوزاعي (4) بأنه « كان رجل عامة » (5).

وإلى جانب دعوة الغزالي العلماء لتعليم الناس وإصلاحهم،يدعو الحكماء أن يرتبوا في كل قرية أو محلة فقيها متدينا يعلّم الناس دينهم ،وبهذا يتكامل الإصلاح بتعاون الحكام مع العلماء « فالعلماء أطباء ،والسلاطين قوام دار المرضى ،فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلّم إلى السلطان ليكف شره .كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي ،أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيّم ليكف شره عن نفسه ،وعن سائر الناس » (6).

2 ـ إصلاح النظام التعليمي:

لقد بلغت العلوم في عصر الغزالي أوجها ،ولكنه مع ذلك دخل في النظام التعليمي باسم العلوم الشرعية أمور لم يكن لها أهمية في الشرع ،فحصل نتيجة

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص68.

2 ـ هو أبو نصر بشر بن الحارث،من أوائل الصوفية أهل الورع ،عاش وتوفي ببغداد سنة 227 هـ،انظر:ابن الجوزي، صفة الصفوة،ج1،ص529.

3 ـ الغزالي، الإحياء،ج2 ،ص23.

4 ـ هو عبد الرحمان الأوزاعي[88 ـ157هـ]،من أئمة الفقهاء،صاحب مذهب فقهي ،ولد في بعلبك،كان شديد الخرأة في الحسبة ،انظر: الذهبي ،سير أعلام النبلاء،تحقيق علي أبو زيد،ط1،بيروت:مؤسسة الرسالة،1401ه ـ 1981م،ج7،ص112.

5 ـ المصدر نفسه، ج7،ص113.

6 ـ الغزالي،الإحياء،ج4،ص51. وقد كان ذلك سيرة الخلفاء الراشدين ومن تبعهم،فهذا عمر بن عبد العزيز يبعث يزيد بن أبي مالك والحارث الأشعري يفقهان الناس في البدو،وأجرى عليهما رزقا .فأما يزيد فقبل وأما الحارث فأبى أن يقبل ،فكتب إلى عمر بذلك ،فكتب عمر: « بئس ما صنع يزيد بأسا، وأكثر الله فينا مثل الحارث »،انظر :ابن الجوزي سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ،ط1،بيروت :دار الكتب العلمية،1404ه ،ص99.

ثلاث أخطاء وضلالات في تصورات الناس وسلوكياتهم (1).

ويتأسف الغزالي على مصير المدارس في عصره حيث سيطر الفقهاء على عقول حوفيهم ،وضعفت في الدين بصيرتهم ،وقويت في قلوبهم رغبتهم ،وما يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب » (2).فصارت المدارس بدل أن تكون رمزا لوحدة الأمة الثقافية ،ومركزا لإخراج الكفاءات في كل ميادين الحياة مصدرا للخلاف والجدل ،وخاصة الجدل الفقهي الذي انتشر حينذاك انتشارا فضيعا ،وهو ما جر إلى اعتبار « الفقه » أفضل العلوم وأشرفها مع حصره في معرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها (3).وكل ذلك مفصولا عن الشريعة التي لا يشكل الفقه، أو تلك الفروع الغريبة إلا جزءا يسرا منها .

وكمثال وقع في عهد الغزالي على غلبة الجزئية على علماء ذلك العصر ما ذكره ابن العربي عند الحديث عن سبب سفارته ليوسف بن تاشفين إلى المشرق حيث التقى الغزالي، قال: « وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من حد : الأندلس حالفوا النصارى ،أو صاروا معهم إليها، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد والدخول في بيعة الجمهور،فقالوا : « لا جهاد إلا مع إمام قرشي ،ولهذا به ،أو مع نائب عن إمام وما أشبه ذلك » (4).

---

1 ــ أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ،الخرطوم ،مركز [illegible]ص18.

2 ــ الغزالي،الإحياء،ج 3،ص35.

3 ــ المصدر نفسه،ج1،ص32.

4 ــ وقد كتب الغزالي فتوى بصحة ما فعله يوسف بن تاشفين من [illegible] العباسية،وذلك بطلب من أبي بكر بن العربي ووالده أبي محمد عندما التقاه ببغداد، وشرح له أحوال الأندلس ،وما قاله يوسف بن تاشفين من نصرة الدين ،وما آل إليه حال ملوك الطوائف من [illegible] وتخاذل وموالاة للنصارى،ومن خلال تلك الفتوى يمكن معرفة تصور الغزالي لكثير من [illegible] السياسية لبلاد المسلمين في عصره ،حيث يرى جواز استقلال كل قطر [illegible] عاصمة الخلافة ــ بالحكم الذاتي مع الولاء للخلافة التي هي رمز لوحدة المسلمين [illegible] يدعو الخلفاء منح ذلك لكل مسلم عادل استولى على قطر من الأقطار،فقول الغزالي [illegible] إمام العصر أن يأذن لكل مسلم عدل استولى على قطر من أقطار الأرض أن يخطب له [illegible] بشعاره ،ويحمل الخلق على العدل و النصفة ،ولا ينبغي أن يطلق بالإمام توقف في [illegible] ويأذن فيه،يشير عند تلك الحالة ،عصر ما بعد الموحدين في المغرب والأندلس،وهذا [illegible] ،ط1،1964،ج1،ص42.

فهذا الفصل جعلهم يعتقدون أن مخالفة النصارى أولى من الاجتهاد مع أمير مسلم ، لكونه غير قرشي ،والفقهاء يشترطون قرشية الإمام ،ومثل هذا حصل في سائر العلوم الشرعية،كما عرفنا سابقا عند الحديث عن القرآن أو السنة أو التصوف أو العقيدة أو غيرها. »

ولذلك فإن دعوة الغزالي إلى إصلاح النظام التعليمي لا تعني ابتداع جديدا أو منهجا مستحدثا ،وإنما تعني العودة بالعلم إلى أصله الأول حيث كان حيا مثمرا مربيا ،ولذلك أطلق على أكبر جهد علمي له « **إحياء علوم الدين** » قاصدا بذلك الدعوة إلى العلوم التي قتلها الجدل ، وأرهقتها الحرفية(1).

ويمكن تلخيص أثر الغزالي في الإصلاح التعليمي في :

أ ـ **منهج التعليم** :

لقد لاحظ الغزالي أن لمنهج التعليم دورا كبيرا في التربية والإصلاح وتعميق المعلومات والتحقق بها ،ولذلك أولاه العناية الكبرى ،بل إن له الريادة في تحقيق الكثير من القواعد المتعلقة به، والتي بنى أغلب المتأخرين آراءهم التربوية عليها (2)،وسنشير ـ هنا ـ لبعض تلك القواعد ،مع بيان أثرها الإصلاحي:

1 ـ **التدرج**:وهو مراعاة الترتيب بين أجزاء العلم الواحد ،أو بين العلوم المختلفة ، بحيث لا يخوض الطالب في علم حتى يستوفي العلم الذي قبله ،لأن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ،وبعضها يؤدي إلى بعض ،وبهذا المعنى يفسر الغزالي قوله تعالى : ﴿**الذين ءاتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته** ﴾ (البقرة:120) ،أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا(3) .

والأثر الإصلاحي لهذه القاعدة كما يرى الغزالي هو أن لا يحكم على فساد أي علم من العلوم ،أو خطأ فيه إلا بعد نظر وتحقيق وتدقيق ،دون أن يكون النقد مبنيا على مجرد النظر السطحي الظاهري.

---

1 ـ وليس كما زعم الشيخ محمد الشاذلي النيفر من أن سبب ذلك هو تعصبي تعرض وتعاظمه،وذلك عند مقارنته بين المازري المتواضع لأنه سمى كتابه « المعلم » بينما يصف تعرض على كتبه الألقاب الغالية كـ « كيمياء السعادة » و « إحياء علوم الدين » انظر: المازري، معلم بفوائد مسلم ،تحقيق محمد الشاذلي النيفر،تونس : الدار التونسية للنشر،1978م،ج1،ص142.

2 ـ د.عبد الأمير شمس الدين المذهب التربوي عند ابن جماعة ،ط1 ،بيروت: الدار ف ،1404هـ ،1984م،ص13،14.

3 ـ الغزالي،الإحياء ،ج1،ص52.

والغزالي يذكر أمثلة من واقعه الاجتماعي ناقدا لها. منها أن طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ،وطائفة اعتقدوا صحة تشخيص لصواب اتفق لواحد ،وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر . (1).

وبناء على هذه القاعدة انتقد الغزالي المتكلمين أو المحدثين الذين أنكروا على الفلاسفة وغيرهم من الطوائف، دون التمكن من النظر في علومهم ،وفهم أغراضهم،ولهذا كان إفسادهم أكثر من إصلاحهم (2).

وهو يشرح كيفية التدرج في العلوم بأن يبتدئ الطالب بكتاب الله تعالى،ثم بسنة رسوله ﷺ ،ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه ،وكذلك في السنة ،ثم يشتغل بالفروع من الفقه، دون البحث في الخلاف الوارد فيها ،ثم بأصول الفقه.وهكذا إلى بقية العلوم ،دون استغراق العمر في فن واحد منها طلبا للاستقصاء فيه.لأن هذه العلوم آلات ومقدمات ،وليست مطلوبة بعينها ،بل لغيرها (3).

2 ـ **الأصول قبل الفروع** :لأن أصول الشريعة ومبادئها الكبرى مقدمة على الفروع ،يقول الغزالي ـ عند ذكره لآداب المتعلم ـ : « أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ،بل يراعي الترتيب ،ويبتدئ بالأهم ،فإذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه » (4).

وأصل العلوم وأشرفها وأعلاها وأولاها معرفة الله تعالى والسلوك إليه ،أو ما يسميه الغزالي بـ « علم الآخرة » باعتباره الأصل الذي يرتبط بمدى العلم به كل التصرفات السلوكية في الدنيا ،ويرتبط به المصير الأبدي في الآخرة .ولكن أهميته مع ذلك في تصور الغزالي لا تعني النظر بعين الاحتقار إلى سائر العلوم الشرعية أو غيرها،يقول الغزالي : « لا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ،فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين لها والغزاة والمجاهدين في سبيل الله ،منهم المقاتل ،ومنهم الذي يسقيهم الماء،ومنهم الذي يحفظ دوابهم ،ولا ينفك أحد منهم من أجر » (5)،ولذلك فإن

---

1 ـ الغزالي ،الإحياء ،ج1 ،ص52.

2 ـ الغزالي ،المنقذ من الضلال ،ص110.

3 ـ الغزالي،الإحياء ،ج1،ص40.

4 ـ المصدر نفسه ،ج1،ص52.

5 ـ المصدر نفسه،ج1،ص53.

التفاضل بين هذه العلوم نسبي ،ومعرفة الله تعالى التي هي الأصل الأول لكل المعارف لا تحجب عن غيرها من العلوم ،بل إنها ـ كما رأينا من قبل ـ لا تكمل إلا بها ،فكل ما في الكون من أفعال الله وتقديراته ،يقول الغزالي: « من قصد الله تعالى بالعلم ،أي علم كان ،نفعه ورفعه لا محالة » (1).

3 ـ **المتفق عليه قبل المختلف فيه** :لاحظ الغزالي أن هدف الكثير من المدرس في عصره كان متوجها نحو نصرة المذاهب والآراء ،ولذلك احتلت المسائل المختلف فيها الحيز الأكبر من نصيب برامج الدراسة فيها بمختلف المستويات والعلوم ،والتوجه لمثل هذا النوع من العلوم ـ كما يرى الغزالي ـ تضييع لمقاصد العلم ،وإرباك لتفكير المتعلم ،خاصة إذا كان الأستاذ المدرس غير قادر على الاجتهاد للتوفيق بين الآراء المختلفة ،أو الترجيح بينها ،يقول الغزالي عند ذكره لآداب المتعلم : « أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا ،أو من علوم الآخرة،فإن ذلك يدهش عقله ،ويحير ذهنه ،ويفتر رأيه ،ويئيسه عن الإدراك والاطلاع »(2).

هذا مع المتوجهين إلى العلم والمتخصصين فيه ،أما العوام وأهل الحرف والصناعات ،فلا ينبغي أن تصرف هممهم ـ في رأي الغزالي ـ إلا حرفهم وصناعاتهم،ولهذا لا ينبغي أن يلقنوا إلا خلاصة العلم ،وما يتعلق منه بالعمل فقط(3).

4 ـ **الموسوعية العلمية مع التخصص** :وهو أن يكون لطالب العلم نصيب عام من كل علم ، بحيث يطلع على مقاصده وغاياته ومسائله اطلاعا مجملا من غير تخصص فيه ،وبعد ذلك ،وانطلاقا منه يمكنه التخصص فيما يراه مناسبا له،وهذا لأن العلوم ـ كما يرى الغزالي ـ متعاونة ،و بعضها مرتبط ببعض،زيادة على أن النظر في كل العلوم يكسب صاحبه سعة صدر تجعله يتخلص من العداوة غير الموضوعية لها ،لأن الناس أعداء ما جهلوا ،أو كما قال تعالى حاكيا عن حال الكفار : ﴿**وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾ (الأحقاف:10)(4).

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص52.

2 ـ المصدر نفسه،ج1،ص51.

3 ـ الغزالي،إلجام العوام عن علم الكلام،ص63.

4 ـ الغزالي،الإحياء،ج1،ص51،52.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذا الرأي يرجع إلى دعوة الغزالي الدائمة إلى احترام كل العلوم ،ومحاولة الاستفادة منها ،ولو حوى ظاهرها بعض البطلان ،ولكنه مع ذلك يضع بعض الضوابط لهذا الطلب الموسوعي ،وهي أن يتجنب طالب العلم كل العلوم التي تضر به أو بغيره ،كتعلم السحر والطلسمات ،وهو تعلم ليس مذموما في حد ذاته ،وإنما لما يرتبط به من إضرار بالخلق ،يقول الغزالي: « ومعرفة هذه الأسباب من حيث أنها معرفة ليست مذمومة ،ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق ،والوسيلة إلى الشر شر » (1).

ومنها علم التنجيم ،وقد كان يشمل في عصر الغزالي جانبين ،جانب علمي، وهو ما يدرسه علم الفلك ،وهو ــ كما يرى الغزالي ــ علم شريف نطق القرآن به ،كما قال تعالى :﴿ **الشمسُ والقمَرُ بحُسْبَان** ﴾ (الرحمن:3)،وجانب تخميني لا فائدة فيه، وهو استنباط العلاقة بين مواقع النجوم وحياة الناس، وضرره كبير على اعتقادات الناس، حيث ينسبون تلك الأحكام إلى النجوم لا إلى التدبيرات الإلهية ،يقول الغزالي : « إنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة،وأنها الآلهة المدبرة ،لأنها جواهر شريفة سماوية ،ويعظم وقعها في القلوب،فيبقى القلب ملتفتا إليها» (2).

ومنها طلب دقيق العلوم قبل جليلها ،وخفيها قبل جليها ،أو البحث في الأسرار الإلهية،ويضرب الغزالي مثلا على إضرار هذه العلوم بأصحابها بالضرر الذي تحدثه اللحوم أو الحلوى للصبي الرضيع ،وهو يوجه هذه النصيحة لمن يشتغل بهذه العلوم المذمومة، التي هي ظنون وتخمينات لا دليل عليها يلحقها بالعلم ،ولا أثر لها في السلوك بقوله : « لا تكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ،ولازم الاقتداء بالصحابة ﷺ ،واقتصر على اتباع السنة فالسلامة في الاتباع ،والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ،ولا تكثر اللجاج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه » (3).

هذه بعض القواعد التربوية التي ذكرها الغزالي،وآثارها الإصلاحية كبيرة،فالعلم النافع يقتضي السبيل الصالح والوسيلة الصحيحة.

---

1 ــ الغزالي،الإحياء، ج1،ص59.

2 ــ المصدر نفسه، ج1،ص29.

3 ــ المصدر نفسه، ج1،ص30.

ب ـ **برامج التعليم:**

يقسم الغزالي العلوم بحسب وجوبها الفقهي إلى قسمين :فروض عينية،وفروض كفائية .

أما الفروض العينية ،فهي العلوم المتعلقة بمعرفة الضروري من العقائد، ومعرفة كيفية العمل الواجب دون الخوض في تفاصيل ذلك،وهو يختلف باختلاف حال الشخص ووقته ،فمن كان له مال لزمه تعلم ما يجب عليه من زكاة ،وإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل ،وهكذا في كل الأفعال والأحوال ،فلا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ،ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ،ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن (1).

والغزالي يرى وجوب بذل هذا النوع من العلم على نطاق واسع بين العامة لارتباطه بالعمل ،أما تفاصيل ذلك فهي من الفروض الكفائية التي يتعلق وجوبها بمن تعرض لها من طلبة العلم ،ويقسمها بحسب أهميتها وأولويتها إلى أربعة أنواع :

1 ــ **الأصول** :وهي مصادر التشريع الكبرى من كتاب وسنة وإجماع وآثار عن الصحابة ﷺ .

2 ــ **الفروع** :وهو ما استنبط من المصادر السابقة بطريق التلميح والإشارة وغيرها ،وهو إما متعلق بمصالح دنيوية ،ويتكفل به علم الفقه ،أو بمصالح الآخرة، وهو علم السلوك.

3 ــ **المقدمات** :وهي العلوم الآلية التي تستعمل في فهم المصادر الأصلية من لغة ونحو وغيرها.

4 ــ **المتممات**:وهي العلوم المتممة والخادمة للمصادر الأصلية ،والتي دعت إليها الضرورة ،كتعلم مخارج الحروف والقراءات والعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم، والعلم بالجرح والتعديل، وغيرها من العلوم التي يختلف حكمها باختلاف الحاجة إليها(2) .

والغزالي يدعو إلى الاقتصار على ما تمس إليه الحاجة من هذه العلوم ،دون الغلو في التفريع والتفاصيل ،بل إنه يرى أن بعض العلوم استنفذت أغراضها،فلذلك لا ضرورة تدعو إلى بذل الجهد فيها ،كحفظ أسامي الرجال

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج1،ص15.

2 ــ المصدر نفسه،ج1،ص16،17.

« فقد كفيت عنه بما تحمله عنك من قبلك » (1).

ونحب أن ننبه هنا إلى دعوة الغزالي الدائمة إلى العلوم الكونية والعملية،فقد كان من أكبر الأخطاء التي أصابت النظام التعليمي في المجتمعات الإسلامية هو ذاك التفريق بين علوم الدين وعلوم الدنيا ،وانشغالهم بعلوم الدين، وخاصة الفقه أو الكلام مع ترك الكثير من العلوم الضرورية كالطب ونحوه،ويعبر الغزالي على ذلك متأسفا على هذا التفريق بقوله : « فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ،ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ،ثم لا نرى أحدا يشتغل به ،ويتهاترون على علم الفقه ،ولا سيما الخلافيات والجدليات ،والبلد مشحون من الفقهاء » (2).

ولذلك دعا الغزالي إلى هذه العلوم العملية باعتبارها من الفروض الكفائية المضيعة ،ولأن هذا الكلام غريب في عصر حرف فيه معنى العلم قال الغزالي : « فلا يتعجب من قولنا :إن الطب والحساب من فروض الكفايات ،فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات ،كالفلاحة والحياكة والسياسة ،بل الحجامة والخياطة،فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم ،وحرجوا بتعريض أنفسهم للهلاك » (3) .

ولأجل هذا نرى كتب الغزالي مشحونة بالإشارات العلمية ،بحيث لا يخلو كتاب من كتبه منها ،ولعل ما يبرز عقليته العلمية هو تجنبه لكثير من الأخطاء العلمية المنتشرة في عصره والمعتبرة من البديهيات في ذلك العصر ،وخاصة في المراجع العلمية التي استفاد منها الغزالي تلك الإشارات .

هذه إشارة مختصرة لأهم ما اقترحه الغزالي من برامج لإصلاح نظام التعليم،باعتباره خطوة أساسية في الطريق إلى الإصلاح العام،فإنه كما يقول عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ: « إذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم،ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم ،فالتعليم هو الذي يطبع شخصية المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته ،وما يستقبل من عمل لنفسه وغيره ؛فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم » (4) .

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج1،ص40

2 ــ المصدر نفسه،ج1،ص21.

3 ــ المصدر نفسه،ج1،ص16.

4 ــ ابن باديس، الشهاب ،ج11،م10 ،عدد أكتوبر ،سنة1934،ص381.

ثالثا _ التزكية

يعتبر الغزالي تزكية النفس وتطهيرها من الأمراض التي تصيبها أساسا من أسس البناء الاجتماعي ،لأن المجتمع الصالح لا يقوم إلا على الأفراد الصالحين،والصلاح لا يتحقق إلا بالتزكية،فلذلك جعل الغزالي تعلم التزكية فرضا من الفروض العينية متعلقا بكل المكلفين ،يقول الغزالي : « وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب ،إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت، وترادفت العلل وتظاهرت » (1).

وقد كانت كتابة الغزالي في هذا الشأن من أروع الكتابات وأدقها وأجمعها ، بحيث صارت مرجعا نسج على منواله المتأخرون،ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى استفادته من كتب الصوفية ،وخاصة كتب الحارث المحاسبي الذي أولى هذا الجانب اهتماما كبيرا ،زيادة على تجربته الروحية التي مر بها أثناء عزلته ،إضافة إلى اقتباسه من الفلسفة وغيرها ما رآه مناسبا لذلك.وسنحاول في هذا المبحث استخلاص تصور الغزالي لحقيقة التزكية ،ثم لمنهجها وثمراتها.

1 _ مفهوم التزكية:

ـ **لغة:** تتوارد على مادة « زكا » في اللغة العربية المعاني التالية:

-النمو والبركة ،ومنه قول الشاعر :

والمال يزكو بك مستكبرا ... يختال قد أشرق للناظر

-الصلاح والتقوى ،يقال :رجل زكي ، أي تقي صالح.

-الطهارة ،ومنه زكاة المال أي طهارته (2).

- **اصطلاحا:**يعرف الغزالي التزكية (3) بأنها تطهير القلب عما لا يحبه الله ﷻ (4) ،وهي بذلك تشكل شطر الإيمان كما نص الرسول ﷺ على ذلك بقوله: « **الطهور شطر الإيمان** » (5)،وهو ينفي أن يكون المراد بالحديث مجرد

---

1 ـ الغزالي ، الإحياء، ج3 ،ص49.

2 ـ ابن منظور ، لسان العرب ، [مادة زكا] ،ج14،ص358،رقم9023.

3 ـ يطلق عليها الغزالي كعادته في التكثير من المصطلحات « رياضة النفس » و « تهذيب الأخلاق » و « معالجة أمراض القلب » ،انظر: الغزالي، الإحياء ، ج3،ص48.

4 ـ الغزالي ، الأربعين في أصول الدين ،ص78.

5 ـ مسلم ،الجامع الصحيح،[كتاب الطهارة]،ج1،ص203،رقم:223.

تطهير الظواهر وتنظيفها بإفاضة الماء وإلقائه،مع تخريب الباطن وبقائه مشحونا بالخبائث والأقذار،بل إن المراد بالتطهير في الحديث ــ كما يفهمه الغزالي ــ يشمل أربع مراتب تشكل بمجموعها حقيقة التزكية الشاملة ،وتلك المراتب هي:

ــ تطهير **الظاهر** عن الأحداث والأخباث والفضلات،كما نصت على ذلك الأحكام الفقهية والسنن الشرعية .

ــ تطهير **الجوارح** عن الجرائم والآثام والمعاصي الظاهرة.

ــ تطهير **القلب** عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة والصفات المهلكة.

ــ تطهير **السر** عما سوى الله ﷻ(1).

وكل هذه المراتب تشكل شطر العمل أو الصفة التي تتعلق بها،فهي البذور للثمار الناتجة عنها،فلا تصح الصلاة إلا بالطهارة الحسية،ولا تعمر الظواهر بالأخلاق والآداب إلا بعد تطهيرها من المعاصي والآثام،ولا يتحلى القلب بحلة التقوى إلا بعد تهذيبه وصقله من أخلاقه المذمومة،ولا ينكشف جلال الله وعظمته إلا بعد تطهير السر عما سواه ﷻ وهذه المراتب كلها تكوّن مقامات الإيمان التي يتدرج في سلوكها المؤمن ،ولكل مقام طبقة، ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا بمجاوزة الطبقة السافلة، « فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة، وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم، وعمارته بالخلق المحمود» (2)، فالتزكية إذا ،وبهذا الاعتبار ، **هي تدرج في مراتب الكمال الإنساني،بتطهيره من كل ما يسيء إلى حقيقته وفطرته التي جبل عليها .**

وفطرة القلب الإنساني وخاصيته تكمن ــ كما يرى الغزالي ــ في استعداده من حيث جوهره لمعرفة الله تعالى،وهذه المعرفة تتعلق بالقلب لا بالجوارح « فالقلب هو العالم بالله،وهو المتقرب إلى الله ،وهو العامل لله،وهو الساعي إلى الله،وهو المكاشف بما عند الله ولديه ...هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله،وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله » (3).

ولكن ، لماذا احتاج القلب الإنساني إلى هذا التطهير؟ ولم كان هذا التطهير

---

1 ،2 ــ الغزالي، الإحياء، ج1،ص126.

3 ــ المصدر نفسه، ج3،ص2.

مقدمة للتعرف علـــى الله ؟.

يجيب الغزالي عن هذا السؤال بـــأن ازدواج الـــتركيب الإنســـاني مـــن جسـم مظلم كثيف مركب ،ومـــن نفـــس جوهريـــة مفـــردة لا تشـــابه هـــذا العـــالم (1) استدعى وجود قوى حيوانية تتعلق بلطيفتـــه الروحانيـــة الربانيـــة ،وتلـــك القـــوى نوعـــان :

ـــ **القوى المحركة** :وهي القوى الباعثة أو العاملـــة لأي فعـــل ،**والباعثـــة** إمـــا أن تبعث إلى جذب نفـــع أو دفـــع ضـــر ،فالباعثـــة إلى جلـــب النفـــع تســـمى « شهوة»،والباعثة إلى دفع الضـــرر تســـمى « الغضـــب »، **والعاملـــة** هـــي المحركـــة والمطبقة لما تمليه الإرادة؛فإن كـــانت الإرادة جازمـــة انبعثـــت وإن كـــانت مـــترددة ترددت ،والإرادة تتبع القوة الثانية من القـــوى الإنســـانية، وهـــي قوتـــه الإدراكيـــة العلمية،يقول الغزالي :« الإرادة لا تنهض من مكانها ،ولا تخـــرج مـــن مكامنـــها مـــا لم يأت إليها رسول العلم،فإذا أتـــى وجـــزم الحكـــم انبعثـــت الإرادة،وإذا جزمـــت الإرادة الحكم انبعثت القدرة بتحريك الأعضاء، فـــلا تجـــد محيصـــا وخلاصـــا مـــن الامتثال والارتسام بموجب رسمها، وإذا جزمت القدرة الحكـــم تحركـــت الأعضـــاء، بحيث لا تجد محيصا من الحركـــة » (2) .

ـــ **القوى المدركة** : وهي القوى المتعرفة علـــى العـــالم الخـــارجي،ويقســـمها الغزالي إلى مدركات ظاهرة هي الحواس الخمس ،وباطنة هي قـــوة الخيـــال والحفـــظ والحس المشترك والتفكر والتذكـــر (3).

وبما أن أعيان هذه القوى مستعدة لكل ما يحل بها ســـواء كـــان في مصلحتـــها أو مضرتها احتاجت إلى حسن عناية وتأديب، كمـــا احتـــاجت الحركـــات النباتيـــة إلى تشذيب، والحركـــات الحيوانيـــة إلى تهذيـــب،وذلـــك التـــأديب لا يتحقـــق إلا بالتأييد والتسديد والتعريف ، أما **التأييد** فهو اختيار الخـــير مـــن الحركـــات الفعليـــة دون الشر ؛وأما **التسديد** فاختيار الصدق مـــن الحركـــات القوليـــة دون الكـــذب؛ وأما **التعريف** فاختيار الحق من الحركات الفكريـــة دون البـــاطل(4).

ولكن هذه الأعمال الثلاثـــة لا تتحقـــق إلا بوجـــود قـــوى تفـــوق القـــوى

---

1 ـــ الغزالي، الرسالة اللدنيـــة،ص101.

2 ـــ الغزالي، معارج القـــدس،ص38.

3 ـــ الغزالي، إحياء علـــوم الديـــن،ج3،ص 6.

4 ـــ الغزالي، معارج القـــدس ،ص39.

الحيوانية.ولذلك أيد القلب الإنساني بجند رباني يعينه على تأديب تلك القوى.وتلك الجنود هي : « العلم والحكمة والتفكر » (1).فإذا استعان الإنسان بذلك الجند حصلت التزكية ،ونال ثمارها ،وكان من أهل قوله تعالى: « **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا** » (الشمس :9).وإذا أهملها كان من أهل قوله تعالى :« **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْهَا** » (الشمس:10) » (2).

و لتوضيح ضرورة التزكية و أثرها في المحافظة على حقيقة الإنسان وتوازنه يضرب الغزالي أمثلة كثيرة عن علاقة قلب الإنسان بالقوى المودعة فيه.ومن تلك الأمثلة تشبيه العقل ،وهو الجند الرباني، بالصياد، وتشبيه الشهوة بالفرس،والغضب بكلب الصيد ،فإن كان الصياد حاذقا، وفرسه مروضا، وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح « أما إن كان هو في نفسه أحمق ،وكان الفرس جموحا والكلب عقورا ، فلا فرسه ينبعث تحته منقادا،ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا،فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب »(3).ثم يشرح هذا المثال بأن خرق الفارس هو جهله وقلة حكمته وضعف بصيرته،وجماح الفرس هو غلبة الشهوة ،وعقر الكلب هو غلبة الغضب واستيلائه.

ولعل الغزالي يقصد بالصيد في هذا المثال هو تلك المعارف الإلهية .لأنها المقصد الأصلي من السلوك التطهيري،وللغزالي في ذلك مثال يكثر من استعماله. هو تشبيه القلب الإنساني بالمرآة ،وبما أن من أسباب عدم انكشاف الصور في المرآة الكدورة والخبث والصدأ العالق بها،فكذلك قلب الإنسان لا تتجلى فيه صور الحق ما دام ملطخا بأرجاس المعاصي والذنوب .يقول الغزالي : « فالقلب في حكم المرآة ،قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه.أما الآثار المحمودة فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا حتى يتلألأ فيه حلية الحق.وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين،وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب.ولا يزال يتراكم عليه إلى أن يسود ويظلم ،ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى » (4).

ويمكن تلخيص تصور الغزالي للتزكية ـ انطلاقا مما سبق ـ بأنها **الطريق**

---

1 ـ الغزالي، الإحياء،ج3،ص6.

2 ـ المصدر نفسه،ج3،ص49.

3 ـ المصدر نفسه،ج3،ص7.

4 ـ المصدر نفسه،ج3،ص12.

الذي يسلكه المؤمن لتحقيق الكمال المطاق،وذلك الطريق كما يراد الغزالي صعب ومجهد ، فكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه، وبعدت غايته. وكثرت عقباته(1).

2 ـ منهج التزكية:

ينحصر منهج التزكية عند الغزالي في سبيلين ،لا تتحقق التزكية إلا باجتماعهما معا،هما كما يعبر الغزالي: « معجون العلم والعمل » (2) ،لا يغني أحدهما عن الآخر .

أ ـ **المنهج العلمي** :بناء على إدراكنا لتصور الغزالي للنفس الإنسانية ،فإن الصراع فيها على الصعيد الفكري دائم بين الحق والباطل ،فقلب الإنسان كما يصوره الغزالي مثل قبة مضروبة تنصب إليها الأحوال من كل باب، أو هو كهدف ترمى عليه السهام من كل جانب،وبالنسبة لمثال المرآة ،هو كمرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة،فتتراءى فيها صورة بعد صورة،ولا تخلو عنها الصور أبدا(3)،وبما أن القوة المحركة ـ كما عرفنا من قبل ـ تخضع لتأثير القوى المدركة،فإن لتلك الصور والآثار دورها السلوكي ،فالخيالات الحاصلة في النفس ـ مثلا ـ تبقى ،وينتقل الخيال من شيء إلى شيء،وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر.

ولكن أهم تلك الآثار وأخطرها في نفس الوقت هي « **الخواطر** » ،ويعني بها الغزالي ما تدركه النفس، إما على سبيل التجدد ،أو على سبيل التذكر،فالخاطر هو الذي يحرك الرغبة ،والرغبة تحرك العزم ،والعزم يحرك النية(4).

وتلك الخواطر تنقسم إلى ما يدعو للخير والصدق والحق ،وتسمى **إلهاما**،ويسمى الداعي إليها ملكا،ويسمى اللطف الرباني الذي يتهيأ به القلب لذلك توفيقا ،أو إلى ما يدعو إلى الشر والكذب والباطل ،ويسمى **وسواسا**،ويسمى الداعي إليه شيطانا ،ويسمى الاستعداد له إغواء وخذلانا،والغزالي يستند في تصويره للتنازع الدائم بين الإلهام والوسواس لقوله

---

1 ـ الغزالي،الإحياء، ج1،ص126.

2 ـ الغزالي، الأربعين في أصول الدين ،ص94.

3 ـ الغزالي، الإحياء، ج3،ص26.

4 ـ المصدر نفسه، ج3،ص27.

تعالى : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:267) ،وقوله ﷺ :« **قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء** » (1).

وهذا التجاذب دائم في النفس الإنسانية، وباعتبار ميلها إلى جانب من الجوانب يكون ترقيها أو تدنيها،وتكون زكاتها أو تدنسها ،والنفس الفطرية مستعدة لقبول كل ذلك قبولا متساويا لا يترجح أحدهما على الآخر(2)،وترجيح الإلهام ترجيحا كليا ينفي الخواطر السيئة والوساوس الرديئة هو ما عبر عنه الشارع بـ « **النفس المطمئنة** » (3)،وهي بداية تحقق الكمال الإنساني .

وأهم المرجحات المعرفية لجانب الإلهام هي معرفة الإنسان لنفسه،باعتبار التزكية متعلقة بها ،وتلك المعرفة هي **اجتماع العلم بالكمالات الممكنة ،مع الاطلاع على النقص الموجود**،وبالازدواج بين هاتين المعرفتين تتحقق التزكية .

أما المعرفة الأولى ،فهي علم الإنسان بنفسه وخصائصها الجبلية ،وما فطرت عليه من طباع ،وما مكنت منه من قوى؛فإن ذلك كله حاث على النهوض به من كبوته ،والترفع من أن يسقط في « أسفل سافلين » بعد أن رفعه الله إلى « أحسن تقويم » .يقول الغزالي مبينا قيمة هذه المعرفة : « من عرف نفسه فقد عرف ربه، وعرف صفاته وأفعاله ،وعرف مراتب العالم ومبدعاته ومكوناته ،وعرف الملائكة ومراتبهم ،وعرف لمة الملك ولمة الشيطان والتوفيق والخذلان ،وعرف الرسالة والنبوة » (4)،وقد ألف الغزالي في هذا النوع من المعرفة مجموعة كتب منها : « **معارج القدس في مدارج معرفة النفس** » و « **معراج السالكين** » و «**كيمياء السعادة** » ،بالإضافة إلى كتابين في الإحياء صدر بهما ربع المهلكات هما : « **شرح عجائب القلب** » و « **رياضة النفس** » .

أما المعرفة الثانية فهي المنطلق السلوكي الأول ،فعجب الإنسان بنفسه

---

1 ــ الترمذي،السنن،[كتاب القدر]،ج 4 ،ص 498 ،رقم:2066.

2 ــ الغزالي، الإحياء،ج3،ص27.

3 ــ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبدي وادخلي جنتي** ﴾ (الفجر:30 ــ 32).انظر: الغزالي ،الرسالة اللدنية،ص103.

4 ــ الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس ،ص7.

وشعوره بكماله هو الحجاب الأكبر الحائل بين الإنسان والتحقق بالكمالات المتهيئ لها،ولذلك قال ابن مسعود ﷺ : « الهلاك في اثنتين :القنوط والعجب » (1)،و قد علق الغزالي على هذا الجمع بينهما بقوله: « السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر ،والقانط لا يسعى ولا يطلب ،والمعجب يعتقد أنه قد سعد، وقد ظفر بمراده » (2)،فالموجود لا يطلب لوجوده ،والمحال لا يطلب لاستحالته .

ولهذا، فإن أول درجات العلاج هي تلك اليقظة الروحية التي تحصل لصاحبها فتريه حقيقة نفسه، « وإذا أراد الله بعبده خيرا بصره بعيوب نفسه » (3) ،ولكن البصيرة إن لم تكن نافذة، وكان النظر إلى العيوب ضعيفا احتاج ذلك إلى أطراف خارجية تبصره بتلك العيوب ،ويرى الغزالي لذلك أربعة أطراف هي :

_ **الشيخ المربي** :وهو ضروري سواء للدلالة على عيوب النفس أو الإرشاد إلى طرق علاجها ،وهو في رأي الغزالي أشد ضرورة من التلميذ إلى الأستاذ، لأن العلوم قد يظفر بها بالذكاء والمذاكرة ،ولكن عيوب النفس ودقائق آفاتها لا ينتبه لها إلا من خبر ذلك ومارسه ،والغزالي يرى ندرته كما يرى ضرورته فهو « نور من أنوار النبي ﷺ نادر أعز من الكبريت الأحمر » (4) .

وقد اتفق على اشتراط الشيخ المربي كل من تحدث في التزكية ،سواء كان من الصوفية أو غيرهم ،ولا بأس أن ننقل هنا نصا جميلا لـ « عبد الوهاب الشعراني » يحدثنا فيه عن نفسه كشاهد لضرورة الشيخ،يقول في « **لطائف المنن** » :« وكانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ أني كنت أطالع كتب القوم ،كرسالة القشيري و عوارف المعارف والقوت والإحياء ،ونحو ذلك،وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم ،ثم بعد مدة يبدو لي خلاف ذلك،فأترك الأمر الأول ،وأعمل بالثاني ...وهكذا ،فكنت كالذي يدخل دربا، لا يدري هل ينفذ أم لا؟فهذا مثال من لا شيخ له ،فإن فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد » (5).

---

1 ،2 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص369.

3 ــ المصدر نفسه،ج3،ص64.

4 ــ الغزالي،رسالة « أيها الولد » ،ص134.

5 ــ عبد الوهاب الشعراني، لطائف المنن والأخلاق،مصر :المطبعة الميمنية،1321ه،ج1،ص48ــ49.

وإذا كان الطب الحديث يحذر من علاج الإنسان لنفسه بنفسه ،ولو قرأ كتب الطب ،و يلح على ضرورة الطبيب الذي يكشف خفايا العلل ويطلع على ما دق من الأمراض ، « فإن الأمراض القلبية والعلل النفسية أشد احتياجا للطبيب المزكي، لأنها أعظم خطرا، وأشد خفاء، وأكثر دقة » (1).

وقد وضح الغزالي الآداب التي بها يستطيع مريد التزكية الاستفادة من الشيخ المربي ،ومن تلك الآداب أن لا يجادله أو يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة، لأن ذلك قد يدعوه إلى إساءة الأدب معه ،وهو حائل بينه وبين إمكانية الاستفادة منه ،وأن يعمل ما يأمره به من العمل قدر وسعه وطاقته،ولو لم يفهم مراد الشيخ من ذلك ،لأن وظيفة الشيخ هي وظيفة الطبيب ،والمريض لا يسأل طبيبه ــ ما دام يثق في كفاءته ــ عن أسرار وظيفته (2).

وينبه الغزالي هذا الشيخ الذي يعالج قلوب المريدين بأن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص ،وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ،ولذلك ينبغي « أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ،ويبني على ذلك رياضته » (3).

ويضرب الغزالي الأمثلة الكثيرة على نماذج علاج المشايخ ،ومن ذلك أن المريد إذا كان مبتدئا جاهلا بحدود الشرع ،فعليه أن يعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات،وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية يأمره أولا بتركها ، « فإذا تزين ظاهره بالعبادات ، وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليفطن لأخلاقه وأمراض قلبه » (4)،ثم يعالجه ــ انطلاقا من ذلك ــ بما يراه مناسبا لحاله.

ــ **الصحبة الصالحة** :ولها دور كبير في التنبيه للعيوب ، أو في المذاكرة للتطهر منها ،وقد عبر الغزالي عن ذلك بقوله : « ... أن يطلب صديقا متدينا بصيرا ،فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كرد من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه » (5).

---

1 ــ عبد القادر عيسى،حقائق عن التصوف ،ط4،عمان: المطبعة الوطنية، 1401هـ ــ1981م،ص48.

2 ــ الغزالي،رسالة « أيها الولد » ،ص135.

3،4 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص61.

5 ــ المصدر نفسه،ج3،ص64.

فليست هذه الصحبة التربوية صحبة مداهنة أو تغاض عن العيوب ،وإنما هي صحبة تنظيف وتطهير وإصلاح ،والغزالي يحدد للصاحب الصالح خمس خصال، وهي: « أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريصا على الدنيا » (1)،فمثل هذا الصاحب هو الذي يمكن الاستفادة منه في هذا المجال.

ـ **الأعداء** : لأن العدو يبحث عن عيوب عدوه وينبهه إليها ،ومع أن ذلك من العدو شماتة أو حسد ،وفيها من المبالغة والتضخيم ما فيها إلا أن الساعي لإصلاح نفسه لا يلتفت إلى ذلك، وإنما ينظر إلى صدق ما قيل في حقه،لأن مساوئ الأخلاق « حيات وعقارب ،فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به ،واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها دون الالتفات إلى كونه صديقا أو عدوا » (2).

ـ **المخالطة** : وهي طريق للعلم بالعيوب من جهتين :

ـ أن كثيرا من العيوب لا تظهر إلا بالمخالطة، « فكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه » ،ويشبه الغزالي ذلك بالدمل الممتلئ بالصديد، قد لا يحس صاحبه بألم ما لم يتحرك، أو يمسه غيره ،فإن لم يكن له يد تمسه ،أو عين تبصر صورته،ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة (3).

ـ أن يرى من عيوب غيره عيوب نفسه ،فيكون قصده من رؤية عيوب غيره الاستفادة ،لا الشماتة أو التكبر ،فلو ترك الناس ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب،ويروي الغزالي في ذلك عن عيسى عليه السلام قوله ـ عندما سئل من أدبك ؟ ـ: « ما أدبني أحد ،رأيت جهل الجاهل شين فاجتنبته » (4).

2 ـ المنهج العملي :

العمل هو الركن الثاني في العلاج النفسي ،وهو نتيجة طبيعية لاستقرار معاني العلم في النفس والتأثر بها والانفعال لمتطلباتها .

ولا نستطيع ـ هنا ـ أن نحصي كل الأعمال التي يقوم بها طالب

---

1 ـ الغزالي،الإحياء، ج2،ص171.

2 ـ المصدر نفسه، ج3،ص64.

3 ـ المصدر نفسه ،ج2،ص241.

4 ـ المصدر نفسه ،ج2،ص242.

التزكية،فإن لكل مرض علاجه الخاص به ،والربع الثالث من الإحياء قد حوى كل ذلك ،وبتفصيل شديد ،ولكن جملة ذلك تعود إلى ما يمكن التعبير عنه بـ « **مضادة الصفات** » ،وهي معالجة كل صفة نفسية بضدها، فيعالج مرض الجهل بالتعلم،ومرض البخل بالتسخي،ومرض الكبر بالتواضع،وهكذا(1).

وهو يقدم لذلك بتشبيه العلل الباطنة بالعلل الظاهرة ،فعالم الشهادة عنده إسقاط ونموذج من عالم الغيب ،يقول الغزالي: « كما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ،فإن كانت من حرارة فبالبرودة ،وإن كانت من برودة فبالحرارة،فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها » (2) .

وهو يطبق هذه القاعدة على كل الأمراض ،فالعلاج العملي للحسد أن يعرف طالب التزكية حكم الحسد، وما يتقاضاه من قول وفعل، فيخالفه ويعمل بنقيضه؛فيثني على المحسود، ويظهر الفرح بنعمته ،ويتواضع له ،وبذلك يعود المحسود صديقا له ،فيزول عنه الحسد، ويتخلص من الإثم والألم (3)،والعلاج العملي للرياء أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ،كما يغلقها على الفواحش حتى يقنع بعلم الله واطلاعه،ولا تتشوف نفسه لغير الله (4).

وهذه الأعمال التي يقترحها الغزالي لمعالجة العلل الباطنة صعبة، والصبر عليها شاق ،ولكن دون الشفاء مرارة الدواء (5).

وهو يذكر الأمثلة الواقعية الكثيرة على ذلك تنشيطا للهمم، وحثا للإرادة،فقد حكي عن بعضهم أنه كان لأجل تعويد نفسه على الحلم يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس، ويكلف نفسه الصبر،ويكظم غيظه، حتى صار مضرب المثل في الحلم ،وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن، فأراد أن يحصل خلق الشجاعة ،فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج (6)،وهذا يذكرنا بـ « **ديموستين** » (7) خطيب أثينا الكبير الذي شيدت له التماثيل

1،2 ــ الغزالي، الإحياء،ج3،ص61.

3 ــ الغزالي، الأربعين في أصول الدين ، ص95.

4 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص312.

5 ــ المصدر نفسه،ج3،ص61.

6 ــ المصدر نفسه،ج3،ص62.

7 ــ هو ديموستين [384 ــ 322 ق.م]،سياسي وخطيب يوناني،حرض أثينا على مقاومة فليبس المقدوني ،انظر: منير البعلبكي،معجم أعلام المورد،ص197.

تعظيما له مع أنه ولد عييا ضعيف الجسد لا يقوى على الكلام ،ولكنه كان يعمل للتغلب على ما فيه من نقص طبيعي ؛فكان يخاطب البحر، وفمه مملوء بالحصباء ،أو يخطب، وهو يصعد الجبل ،وكان يعيد خطبه مرارا على نفسه أمام المرآة(1).

وهنا يفند الغزالي شبهة قد تعري النفس فتمنعها من المجاهدة التي ترهقها وتحول بينها وبين ملذاتها قائلا :« إذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه ،فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة ،والتزمت المواظبة عليه » (2)، وذلك لأن ميل النفس إلى المعاصي خارج عن الطبع ،أما ميلها إلى الحكمة،فهو مقتضى الفطرة،وهو كالميل إلى الطعام والشراب .

وهو لذلك ينقل من غرائب طباع النفس وشذوذاتها الأمثلة الكثيرة ،مبينا كيف أصبحت نتيجة الممارسة مستلذة لدى أصحابها حتى أنه « يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء » (3).

ويساعد على العناء الحاصل من هذه المجاهدة مشاهدة أصحاب الفعال الجميلة، فهم قرناء الخير، وإخوان الصلاح ، « إذ الطبع يسرق من الطبع الخير والشر جميعا » (4).

وبالإضافة إلى الأعمال السابقة المتعلقة بالجوارح ، يرى الغزالي ضرورة تأييدها وتأسيسها على عمل العقل ،وهو **التفكير** ،فليست ثمرة التفكير العلوم وحدها،بل إن جميع الأعمال والأحوال من ثمراته ،وذلك لأن العلم إذا استقر في القلب تغير بالضرورة حاله ،ولذلك يستخدم الغزالي هذا العلاج العملي في كل أمراض النفس :

فعلاج الغيبة أن يتفكر في الوعيد الوارد فيها « فينظر في قلة حسناته وكثرة غيبته ،وأنه ينتهي إلى إفلاسه على القرب ، فإن كان فيه عيب ،فيشتغل بنفسه عن غيره » (5)،وعلاج العجب أن يتفكر ،ويقول في نفسه: « إنما أعمل ببدني

---

1 ــ انظر:أحمد حسين،الطاقة الإنسانية ،ط3،بيروت:المكتبة العصرية،1970،ص249. وفي هذا الكتاب النماذج الكثيرة عما تفعله الإرادة الإنسانية إذا ما وجهت توجيها قويا نحو غاية معينة، بحيث تكاد تأتي بالمعجزات.

2 ،3 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص59.

4 ــ المصدر نفسه،ج3،ص60.

5 ــ الغزالي، الأربعين في أصول الدين ،ص89.

وجارحتي ،وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي ،وإنما هو من خلق الله وفضله علي ،فكيف أعجب بعملي ونفسي ؟ » (1)،وهكذا في علاج كل الأمراض النفسية .

وقد كتب الغزالي خطابا طويلا في توبيخ النفس حوى الكثير من مجاري التفكير ضمنه كتاب « **المراقبة والمحاسبة** » من الإحياء (2)،وهو في منتهى البلاغة والجمال الأدبي يجعلنا نؤيد ما عبر عنه د. زكي مبارك بقوله: « والذي يعبر بنظره كتاب الإحياء والأربعين وكتاب المنهاج يرى البدائع الفنية وألوان البيان في طرق الترغيب والترهيب،وهو يجيد في التخييل حتى يغلب القارئ على أمره،ويشككه في نفسه ،ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد» (3) ، ولكنه يعقب على ذلك بقوله : » وهذا وجه الخطر في مؤلفات الغزالي » (4)، وهو تعقيب غير موضوعي لأن دراسة الإنسان لنفسه ومراجعة أفكاره وأعماله هي السبيل الوحيد للوصول إلى الكمال الإنساني المنشود ، ولذا فإنا نردد بدل ذلك ما قاله سعيد حوى : « إن الذين كتبوا في هذه الشؤون من أمثال حجة الإسلام الغزالي كتبوا في الحقيقة في أرقى الأمور وأعلاها على الإطلاق ، وإنه لخسارة للبشرية كلها ألا تقرأ ما كتب أمثال هؤلاء » (5).

3 ـ ثمار التزكية:

لعل أهم ثمار التزكية التي يشير إليها الغزالي ،ويتفق عليها كل الصوفية،بل كل من تحدث في التزكية هي « **معرفة الله** » والأحوال الناتجة عنها،وبما أن الحديث عن ذلك سبق في مبحث التصوف(6)،فإنا سنقتصر هنا ـ على الثمار العملية للتزكية،وخصوصا ما يتعلق منها بالجانب الاجتماعي.

أ ـ **الأخلاق** :يعرف الغزالي الخلق بأنه « هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية،فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا،وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة خلقا سيئا » (7).

---

1 ـ الغزالي، الإحياء، ج4،ص430.

2 ـ المصدر نفسه، ج4،ص416 ـ 422.

3،4 ـ د. زكي مبارك،الأخلاق عند الغزالي، صيدا،بيروت: المكتبة العصرية،ص102.

5 ـ سعيد حوى،تربيتنا الروحية ،ص120.

6 ـ راجع هذه الرسالة،ص116 ـ119.

7 ـ الغزالي،الإحياء، ج3،ص53.

ويرد الغزالي على من قصر الخلق على الأفعال بأن الجوارح المؤدية لتلك الأفعال تستوي عندها كل التصرفات سواء كانت حسنة أو قبيحة ،ومن ثم فقد تبرز عنها بعض التصرفات الحسنة على سبيل الندرة، أو بباعث الرياء والسمعة،وذلك مناقض للخلق الحسن ،ويضرب مثالا على ذلك بالسخاء،فرب شخص خلقه السخاء ،ولا يبذل بسبب فقد المال أو لمانع ،وآخر خلقه البخل،وهو يبذل بباعث من رياء أو غيره (1) .

ومن هنا ،فإن الظروف المحيطة مهما تعقدت لا تؤثر في صاحب الخلق الحسن ،لأن خلقه هيئة راسخة في نفسه،وقد وصف الله تعالى المؤمنين بذلك في قوله تعالى :﴿ **الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ** ﴾ (الأحزاب :39)،وقوله تعالى: ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾(المائدة:56).

وعدم القدرة على تصور الأساس الإيماني للخلق الذي جر الغزالي إلى التعامل النفسي معه هو الذي دفع البارون كارادوفو إلى قوله: « إن علم الأخلاق عند الغزالي هو علم نفسي خلقي على الخصوص ،ومن الجلي أنه مدين لعلم الأخلاق لدى اليونان قليلا،ولا يكاد يكون أقل من هذا على الراجح اقتباسه شكلا بالتعليم الخلقي المتداول لدى النصارى في ذلك الحين » (2)،ومع أنه يقر بعدم وجود الدليل الذي يكشف له هذه المنابع إلا أنه يمضي كسائر المستشرقين ينسب كل منقبة في الإسلام إلى أصل يوناني أو نصراني .

انطلاقا من تصور الغزالي للخلق يحلل الصورة الباطنة التي هي مصدر السلوكيات الظاهرة إلى مكوناتها الأساسية مسقطا كعادته الباطن على الظاهر،يقول الغزالي : « وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ،بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر،فكذلك للباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق » (3)،وهذه الأركان الأربعة هي: قوة العلم وقوة الغضب ،وقوة الشهوة،وقوة العدل بين هذه القوى الثلاثة.

وأمهات الأخلاق وأصولها الصادرة عن تهذيب تلك القوى الأربعة هي

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج3،ص53.

2 ــ البارون كارادوفو ، الغزالي،ص130.

3 ــ الغزالي، الإحياء،ج3،ص53.

الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، « ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ ،والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه ،فكل من قرب منه في هذه الأخلاق ،فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ » (1).

ب ـ **الآداب** :والغزالي يقسمها إلى نوعين :

ـ **الآداب الظاهرة**:ويعرفها بأنها « ضبط الحركات بموازين المعاني » (2)،والربط بين الحركات والمعاني عند الغزالي ـ هنا ـ هو نفسه الربط بين الظاهر والباطن في كل القضايا التي يبحث فيها سواء كانت عقدية أو نفسية أو صوفية ،فإن الظاهر هو عنوان الباطن ؛والباطن ـ هنا ـ هو تلك المعاني التي تعبر عن أرواحها أجسام الحركات ،وهنا تختلف الآداب عن الأخلاق ،فالأخلاق تظهر عن طريق الأفعال المبينة للهيئة الراسخة ،وهي تختلف من حالة إلى حالة،أما الآداب فأفعالها مضبوطة ومقيدة بموازين خاصة ،هي موازين المعاني .

وبما أن الناس يختلفون في إدراك تلك المعاني ،وعامتهم لا يدركها أصلا . والعلماء أيضا يختلفون في ذلك ،فالعقول مختلفة ،واعتبارات النظر مختلفة،فلذلك لابد من ضابط واحد يوحد الحركات ،وذلك الضابط هو « النبي المعصوم » لعلمه الكامل بموازين المعاني ،ولذلك فإن الآداب الظاهرة عند الغزالي لا تتحقق إلا بالاقتداء التام بالرسول ﷺ في جميع الحركات ،يقول الغزالي: « اعلم أن العالم لا يكون وارثا للنبي ﷺ إلا إذا اطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا درجة واحدة هي درجة النبوة ،وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث » (3).

وقد جمع الغزالي الكثير من الآداب الظاهرة في بعض رسائله وكتبه .ولعل أهمها وأصلحها للعامة بحكم صغر حجمها وسهولة أسلوبها : « **بداية الهداية** » و « **الأدب في الدين** » ،أما إحياء علوم الدين فمليء بتفاصيل الآداب : آداب الأكل والشرب والسفر والزواج والعزلة والخلطة وطلب العلم والتجارة والتكسب ... حتى آداب من سرق متاعه ،أو ضاعت ضالته ،وكل أدب منها مرفوق بالنصوص الحاثة والآثار الباعثة ممتزجة بتوجيهات الغزالي وعظاته، مما يجعل حركات الإنسان جميعا مقيدة بالموازين الشرعية ،فبذلك التقييد يتحقق الكمال الإنساني ،فـ « الاسترسال مهملا كما يتفق سجية البهائم » (4).

---

1 ـ الغزالي، الإحياء، ج3،ص55.

2،3،4 ـ المصدر نفسه، ج1،ص142.

ولكن هذا التحديد الذي لم يكن دور الغزالي فيه إلا استنباطه من الشريعة و إخراجه للناس لم يعجب زكي نجيب محمود الذي يقول : « قل ما شئت عن الإمام الغزالي في قوة حجته، وفي قدرته القادرة على التحليل ،وفي سعة أفقه وغزارة علمه وحضور بديهته،وفي عقلانية نظرته فلن تجاوز الحق ،ولكن ذلك كله لا ينفي عنه أنه استخدم تلك القوة والقدرة والرسوخ في أن رسم صورة تفصيلية للمسلم، كيف ينبغي له أن يعيش ليساير ما يقتضيه الشرع ... فكان كأنما وضع لحياة المسلم قالبا من حديد لم يعد بعدها قادرا على أن يتحرك بتلقائية الإنسان المفكر الحر » (1)،مع أن الالتزام بتلك الآداب والتقيد بها هو الذي أخرج العباقرة الذين يشهد لهم زكي نجيب محمود نفسه، وأما الاسترسال مهملا ـ كما نعيش الآن ـ فمن أخرج لنا ؟!

ـ **الآداب الباطنة** :ويقصد بها الغزالي ما تستشعره النفس عند أدائها لأي عمل سواء كان عبادة أو غيرها ،لأن القصد من تلك الظواهر المؤداة انسجام النفس معها والتحقق بها ،وكما عبرنا في الآداب الظاهرة من الحركات إلى معانيها ،فالعبور هنا من الباطن أو الروح أو المعنى إلى الظاهر أو الجوارح أو الحس ،وفي كل ذلك يتوحد الإنسان بتوحد سلوكه وتوجهه واهتمامه ،وفي ذلك التوحد يتحقق معنى الإسلام.

والغزالي يفصل الآداب الباطنة ،وما ينبغي أن تستشعره النفس المؤمنة في كل تصرفاتها ،ويأتي في ذلك أحيانا بالغرائب ،فمن آداب المتصدق مثلا أن يعتبر الفقير محسنا إليه لقبوله صدقته ،وعلامة ذلك « أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية ،أو مالأ عدوا له عليه مثلا ،هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق؟ »(2)،وقد ألف زيادة على ما في الإحياء من دقائق الآداب الباطنة رسالة خصها بها سماها « **منهاج العارفين** » بين فيها ما ينبغي استشعاره عند كل سلوك عادي ، فعند اللبس مثلا « اذكر محبة الله الستر على عباده ، فلا تفضح أحدا من خلقه بعيب تعلمه منه ، واشتغل بعيب نفسك ، فاسترده بدوام الاضطرار إلى الله تعالى في تطهيره » (3)،وهكذا في كل حركة من الحركات العادية .

---

1 ـ د. زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري،ط3،بيروت ،القاهرة:دار الشروق،1401ه ـ 1981م،ص345.

2 ـ الغزالي،الإحياء، ج1،ص217.

3 ـ الغزالي، منهاج العارفين،[ضمن القصور العوالي]،ص85.

رابعا ــ الروابط الاجتماعية

تعرضنا في الأسس السابقة إلى كيفية بناء الفرد بناءا سليما ليكون لبنة صالحة في صرح البناء الاجتماعي ، ولكن بناء المجتمع مع ذلك يظل محتاجا إلى روابط توثق صلات أفراده وتقويها ،فالمسلمون « **كالبنيان يشد بعضه بعضا** » (1).

وتنطلق هذه الروابط في تصور الغزالي من أسس نفسية ،وتتفرع إلى ظواهر سلوكية، وكلاهما ركن في تنمية الروابط وشدها وتوثيقها ، وسنرى ذلك في هذا المبحث.

1 ــ الأسس النفسية للروابط الاجتماعية :

الظاهر عند الغزالي ــ كما عرفنا سابقا ــ عنوان الباطن ، فكل سلوك ظاهري ينبع من حالة نفسية ،ويستمد قيمته منها .وهذا الأمر ينطبق على الروابط الاجتماعية ، فإنها تقوم على أسس نفسية، عليها يتوقف صدق العلاقات الاجتماعية ومثاليات الظواهر السلوكية، والغزالي يقسم الأسس النفسية الرابطة بين أفراد المجتمع إلى قسمين :

ــ **الروابط المادية** : وهي الروابط المتعلقة بأغراض دنيوية محضة ، فيكون التوجه في هذه العلاقات مرتبطا بالأغراض المادية يدوم بدوامها وينفصم بانقطاعها ، والغزالي يشبه المحبة الناشئة عن أمثال هذه العلاقات بحب الناس للذهب والفضة ، فهي علاقات تجارية تحكمها المصلحة، وتحدد سلوكياتها المنافع، ولكن حكمها مع ذلك يتراوح بين الذم والإباحة ، فما كان المقصد منه مذموما كمحبة الأستاذ الذي ينال به الطالب رتبة العلم ، وكان مقصده من العلم تولي الولايات التي لا يطلبها إلا لأغراض دنيئة محرمة ، كطلب الجاه أو حيازة أموال اليتامى أو ظلم الناس ... فإن ذلك المقصد محرم مذموم ، وأما إن كان المقصد مباحا، فإن تلك الرابطة تأخذ حكمه ، فـ « إنما تكتسب الوسيلة والصفة من المقصد المتوصل إليه ، فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها » (2).

ومع ذم الغزالي الشديد للدنيا واعتبارها الحجاب الأعظم الحائل بين العباد وربهم (3) إلا أنه يجيز اجتماع محبتين في قلب العبد : محبة الله ومحبة الدنيا،

---

1 ــ البخاري،الجامع الصحيح،[كتاب الأدب]،ج1 ،ص150 ،رقم:459.

2 ــ الغزالي،الإحياء،ج2 ،ص161.

3 ــ المصدر نفسه،ص201.

فإذا أحب مثل هذا الشخص آخر لأنه يتوصل به إلى رضوان الله وإلى الكفاف في أمور الدنيا « فهو من المحبين في الله » (1).

ويستدل الغزالي لذلك بأن حب الدنيا مطبوع في القلوب لا يمكن الانفكاك عنه ،والشرع لم يأمرنا بذلك كما قال تعالى مخبرا عن دعاء المؤمنين: ﴿ **رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾ (البقرة:199)،وينقل دعاء المسيح عليه السلام: « اللهم لاتشمت بي عدوي، ولاتسؤ بي صديقي ،ولا تجعل مصيبتي لديني ، ولاتجعل الدنيا أكبر همي » ،ويعقب عليه بقوله :« فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا ، ولم يقل : ولا تجعل الدنيا أصلا من همي ، بل قال: ولا تجعلها أكبر همي » (2).

ويستدل كذلك بطلب كل مؤمن السعادة في الآخرة، ورغبته في تحقيق مقاصده فيها ،ومالدنيا والآخرة إلا حالتان إحداهما أقرب من الأخرى ، فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ،ولايحبها اليوم ؟ .

أما ما ورد في ذم الدنيا فإن المقصود به كما يرى الغزال الحظوظ التي تنافي حظوظ الآخرة وتمنع منها ، أما الحظوظ غير المنافية كالزواج الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك ، فليس فيها أي منافاة أو تضاد مع حظوظ الآخرة ، فلذلك لو أحب الرجل زوجته لحظوظه الدنيوية والأخروية كان حبه في الله (3).

ولا بأس من الإشارة هنا إلى قضية جوهرية في المنهج التصنيفي للغزالي أسيء بسبب الغفلة عنها تفهم مواقفه ، وهي ما عبر عنه بقوله :« من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى ، وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومئ عند الجاهل أن المطلوب مضادة مايقتضيه الطبع بغاية الإمكان .والعالم يدرك أن المقصود وسط » (4)، ولذلك فإن الغزالي بعد ذكره للطوائف المغالية في حب الدنيا و نقيضتها المغالية في بغضها ذكر الموقف الحقيقي نحوها ،وهو « ماكان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وهو أن لايترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية .أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ،وأما الشهوات فيقمع منها ما خرج عن طاعة الشرع والعقل ،ولا يتبع كل شهوة ،ولا يترك كل شهوة » (5)

---

1 ،2،3 ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص202.

4 ــ المصدر نفسه، ج3،ص96.

5 ــ المصدر نفسه، ج3،ص230.

ـ **الروابط الروحية** : وهي العلاقة التي سماها الشارع بـ « **الحب في الله**» وهو كما يعرفه الغزالي « كل حب لا يتصور دون الإيمان بالله واليوم الآخر » (1) .وهو ينقسم بحسب ذلك إلى محبة عامة ،وهي المحبة المطلوب بها نصيبا من المحبوب يوصل إلى الاخرة ، وهي عند الغزالي درجة عموم المؤمنين ، وأما الخاصة من المؤمنين ،فمحبتهم في الله ولله، دون أي حظ أو غرض .

وفي كلتا الدرجتين تكون علاقة الفرد بالمجتمع محكومة بضابط هذا الحظ الإيماني ،وهو لا يتصور إلا لمن امتلأ قلبه بحب الله وذكر الآخرة ،وصارت جوارحه تابعة لقلبه في همته ،فتكون كل تصرفاته وسلوكياته وعلاقاته ومواقفه ناتجة عن همته،فإذا أحب التلميذ أستاذه ـ مثلا ـ لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ،وكان مقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهو من المحبين في الله،وكذلك إذا أحب الأستاذ تلميذه لأنه بسببه ينال شرف التعليم وجزاءه المعد له في الآخرة ،وهكذا الذي يتصدق بأمواله لله ،ويجمع الضيوف ويهيء لهم أصناف الأطعمة تقربا إلى الله « فأحب طباخا لحسن صنعته في الطبخ،فهو من جملة المحبين في الله » (2).

وهذا الحب هو أقوى الروبط ،وهو الذي وردت الآثار الكثيرة في فضله والثناء على أهله ،وتتفاوت درجات هذا الحب بتفاوت العلاقة الوجدانية بين العبد وربه،ولذلك لا يحيل الغزالي وجود مثل هذا الحب، ولو في عوام المؤمنين،فإنه « ما من محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين،أحدهما عالم عابد،والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد ،ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته ،وبحسب ضعف حبه لله وقوته » (3) .

وذلك الميل النفسي هو المحبة نفسها ،فالحب عند الغزالي هو « ميل الطبع إلى الشيء الملذ » (4) ، وهو تابع للادراك مرتبط به ،وثمرة من ثمار المعرفة،،فلذلك كانت الروابط بين المؤمنين عند الغزالي مرتبطة بالمعرفة والسلوك،فبقدر تزكية الإنسان لنفسه بقدر تحققه بالمحبة للمؤمنين ،فهي علامة

---

1 ـ الغزالي، الأربعين في أصول الدين،ص64.

2 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص202.

3 ـ المصدر نفسه، ج2،ص165.

4 ـ المصدر نفسه، ج4،ص296.

الصفاء النفسي والقرب من الله تعـــالى.

ومثل هذه العلاقات لا تنطوي على أي أمـــراض تخـــرب المجتمعـــات أو تشـــيع فيها المظاهر الفاسدة ،فليس فيها الحسد ولا الكبر ولا الحقـــد ولا مـــا ينشـــأ عنـــها من سلوكيات مدمرة لنفس الإنسان ومجتمعه ،بـــل إن الفـــرد في علاقـــة « المحبـــة في الله » كما يصوره الغـــزالي يـــذوب في وســـط إخوانـــه ذوبانـــا لا يمحـــوه، وإنمـــا يرفعه،ولا يذله ،وإنما يعزه ،والغزالي يستشهد لذلك بأفعـــال الســـلف الصـــالح مـــن الصحابة ومن بعدهم الذين ضربوا أروع الأمثلة في المحبـــة، والتعـــامل المثـــالي علـــى أساســـها .

وكما تساهم « المحبـــة في الله » كأســـاس نفســـي في الربـــط بـــين المؤمنـــين وتوثيق الصلات الصادقة بين أفراد المجتمع وحمايته من كـــل الآثـــار الســـلبية الناتجـــة عن الاجتماع ،فإن « **البغض في الله**» ،وهو ثمرة أخرى مـــن ثمـــار المعرفـــة الإيمانيـــة يؤدي نفس الغرض، وإن اختلف مظهر كليـــهما ،فـــ « البغـــض في الله » ضـــرورة ناتجـــة عـــن « المحبـــة في الله » ،لأن « مـــن أحـــب بســـبب فبـــالضرورة يبغـــض لضده،وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عـــن الآخـــر » (1).

ويفرق الغزالي بين البغض الذي هو مظهر لمرض نفسي مـــن حســـد أو حقـــد أو غيرها ،وبين « البغض في الله » الناتج عـــن ولاء المـــرء التـــام لله ،فيحـــب مـــن أحب الله، ويبغض من أبغضه، ولو كان أقرب الناس إليـــه ،ولهـــذا يمكـــن أن يجتمـــع في القلب الواحد نحو شخص واحد محبة وبغض ،فالمسلم العـــاصي يحـــب لإســـلامه ويبغض لمعصيته، فالبغض أو المحبة لا تتعلقان بالذات ،وإنمـــا بـــالعمل ،فـــإن حســـن ازدادت علاقة المحبة وثوقا ،وإن ساء ازداد البغض رســـوخا ،وهـــذا ـ كمـــا يـــرى الغزالي ـ ممكن في العادات ،بل هكذا يتعـــامل النـــاس فيمـــا بينـــهم فـــإن « مـــن وافقك على غرض وخالفك في آخـــر [تكـــون معـــه] في حالـــة متوســـطة بـــين الانقباض والاسترسال ،وبين الاقبال والاعـــراض ،وبـــين التـــودد إليـــه والتوحـــش عنـــه » (2).

وبتأمل آراء الغزالي في « البغض في الله » نجد أنهـــا تســـاهم مســـاهمة كبـــيرة في تحويل الصلات بين المؤمنين إلى صلات إيمانية تربويـــة ،لا مجـــرد علاقـــات وجدانيـــة عاطفية ليس لها آثار إصلاحية ،فـــإن جميـــع مظـــاهر البغـــض في الله الـــتي ذكرهـــا الغزالي ترتبط بمدى إمكانية التأثير في العاصي الذي أبغـــض بســـبب معصيتـــه.

---

1 ــ الغزالي،الإحيـــاء، ج2،ص166.

2 ــ المصدر نفســـه، ج2،ص167.

فمن تلك المظاهر مثلا قطع المعونة عن العاصي وترك نصرته ،وهذا قد يبدو مظهرا سلبيا ربما يساهم في قطع الصلات بين المؤمنين والتفريق بينهم،ولكن الغزال يعقب على ذلك بقوله : « وليس يجب تركها [أي المعونة]،إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحك ،فهذا حسن ،وإن لم يظهر لك ،ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه ،فذلك ليس بممنوع ،بل **هو الأحسن** » (1)،ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **و لَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غفور رحِيم** ﴾ (النور:22)،فقد نزلت هذه الآية في أبي بكر ﷺ حين حلف أن يقطع معونته عن « **مصطح بن أثاثة** » (2) حين وقع منه ما وقع في حادثة الإفك (3) .

ويعقب الغزالي على هذه الحادثة ،وموقف أبي بكر ﷺ فيها،بأنه كان كالمحي عليه في نفسه بتلك الواقعة ،فلذلك عفا وأحسن ، « وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك ،فأما من ظلم غيرك، وعصى الله به ،فلا يحسن إحسانك لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم ،وحق المظلوم أولى بالمراعاة » (4).

وهذا الموقف المتعلق بالمعاصي المتعدية متفق عليه عند السلف ــ كما ينقل الغزالي ــ وإنما الخلاف في المعاصي غير المتعدية، فقد اختلف موقف السلف الصالح من أصحابها ،فمنهم من نظر إليهم بعين الرحمة ،ومنهم من شدد في الإنكار عليهم، واختار المهاجرة ،ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل الذي هجر كثيرا من الأكابر في مسائل بسيطة ،فقد هجر الحارث المحاسبي لرده على المعتزلة وإيراد شبههم في تصانيفه ، وهجر « يحي بن معين » (5) في قوله : « إني لا

---

1 ــ الغزالي،الإحياء، ج2،ص 167

2 ــ هو مسطح بن أثاثة بن عباد القرشي المطلبي،شهد بدرا،وكان ممن خاض في الافك.فجلده النبي ﷺ ،توفي سنة 34 هـ،انظر:ابن الأثير،أسد الغابة في معرفة الصحابة،بيروت:دار إحياء التراث العربي، ج4،ص354.

3،4 ــ الغزالي،الإحياء، ج2،ص167 ــ168.

5 ــ هوأبو زكريا يحي بن معين[158 ــ233 هـ]،من كبار حفاظ الحديث،روى عنه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم ،انظر:الذهبي،تذكرة الحفاظ، ج2،ص431.

أسأل أحدا شيئا ،ولو حمل السلطان إلي شيئا أخذته » (1).

و يرى الغزالي أن ذلك يختلف باختلاف النية ،وهي تختلف باختلاف الحال،فإن كان الغالب على القلب النظر إلى مقادير الله الجارية على الخلق نظر إليهم بعين الرحمة، وإن كان الغالب عليه رؤية جرمهم وجرأتهم على الله كان حاله هو الإنكار والتشدد عليهم ،ولكن هذا النظر بنوعيه قد يختلط بأغراض شخصية تدعوه إلى المداهنة ومراعاة القلوب أو الإنكار والتشدد ،ولذلك يضع الغزالي معيارا لمعرفة صدق القصد ،وهو أن يقدر أن تلك المعصية تتعلق بحقوقه فـ « إن كان يغتاض عند الجناية على حقه ،ويسترحم عند الجناية على حق الله،فهذا مداهن مغرور بمكيدة من مكايد الشيطان » (2) .

وبما أن طريقة التعامل مع العصاة تختلف بحسب درجة معاصيهم،والمعاصي إما أن تتعلق بالاعتقاد أو العمل فإن الغزالي يقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام :

ـ **الكافر** : وهو إما أن يكون محاربا أو ذميا ،فإن كان محاربا فإن الشارع أمر بقتاله وأسره ،وفي ذلك أبلغ الإهانة لكفره ،وأما إن كان ذميا ،فإن إيذاءه محرم بحرمة معاهدته وصلحه ،ولكن مع ذلك لا ينبغي أن يوالى ويتودد معه كما يوالى المؤمنون ويتودد إليهم ،قال تعالى:﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ** ﴾ (المجادلة:22) ،وقال تعالى :﴿ **يَأَيُّهَا الَذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** ﴾ (الممتحنة:1).

وربما يظهر مبدئيا بعض التطرف في موقف الغزالي من الذميين حيث يرى أن « يكف عن مخالطتهم ومعاملتهم ومواكلتهم والانبساط معهم والاسترسال إليهم كما يسترسل إلى الأصدقاء » (3) ولكن دراسة التاريخ الإسلامي وما حصل للمسلمين بسبب تسرب الجواسيس أو انتشار الأفكار المضللة على أيدي من يستغل حرمة الذمية والمعاهدة ترينا قيمة آراء الغزالي في ذلك ،خاصة إذا علمنا أن الغزالي لا يرى التعامل معهم بتلك الصورة في حالة رجاء إسلامهم أو تأليف قلوبهم ،بل إن ذلك مما تستحب فيه المخالطة لأنه من الدعوة الواجب تبليغها .

---

1 ،2 ـ الغزالي،الإحياء، ج2،ص168.

3 ـ المصدر نفسه، ج2،ص169.

ـ **المبتدع** :ويختلف التعامل معه بحسب خطر بدعته أو تحمسه لها ودعوته إليها ،فإن كانت البدعة مما يكفر به ،ومع ذلك يدعو لها، فإن أمره أشد من الذمي ،فهو لا يقر بجزية ،ولا يسامح بعقد ذمة ،وإن كانت مما لا يكفر به ، فإنه ،وإن كان أمره أخف من الكافر بينه وبين الله ﷻ إلا أن الإنكار يكون عليه أشد ،لأن شر الكافر غير متعد ،فالمسلمون معتقدون لكفره بخلاف المبتدع الداعي إلى بدعته ،ولذلك يرى الغزالي « استحباب إظهار بغضه ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه » (1) .

والغرض من هذا الموقف تقبيح البدعة في أعين الناس وتنفيرهم عنها، زيادة على كونها إنكارا على المبتدع، وتوجيها لنظره إلى قبح بدعته ،وقد علمنا من قبل أن هذا المبتدع يناظر في بدعته ،ويبيَّن له قبحها ،فيضاف إلى ذلك الموقف العلمي الذي قد لا ينجح بصده عن بدعته إلى هذا الموقف العملي الذي، وإن لم يفلح في ذلك، يمكنه حماية باقي أفراد المجتمع من سريان البدع .

ولعل هذا السلوك ،وإن بدا مضادا للحرية العقدية في المجتمع إلا أن له دورا كبيرا في حماية العامة وأشباههم من تسرب الأفكار الدخيلة ،والخفاض مع ذلك على صفاء الإسلام ونقائه في وجه كل التيارات التي تحاول التأثير فيه .

أما إن كان المبتدع عاميا ،وهو الذي لا يقدر على الدعوة إلى بدعته، ولا يخاف الإقتداء به ،فالأولى في معاملة هذا الصنف التلطف في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب ،فإن لم ينفع، وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه استحب الإعراض ،وإن لم يؤثر فيه ذلك ،وخيف من تسرب البدع إلى المجتمع أعرض عنه « لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق ،وعم فسادها » (2).

ـ **العاصي** : ويختلف التعامل معه بحسب نوع معصيته ،فإن كانت مما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة وغيرها،فالمستحب في حق هؤلاء الإعراض عنهم بعد نهيهم والإنكار عليهم خاصة إذا علم تأثير ذلك الإعراض في زجرهم أو زجر غيرهم .

أما الذي لا يتعدى فسقه لغيره ،فإن الغزالي يرى مراعاة الأفضل في ذلك،فإن « تحقق أن نصحه يمنعه عن العودة وجب نصحه ،وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو ،فالأفضل النصح والزجر بالتلطف، أو بالتغليظ إن كان هو

---

1 ،2 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص169.

الأنفع » (1)،ولكن لا ينبغي أن يتعدى ذلك إلى الإعراض غير المشروع ،كما ينقل الغزالي أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله ﷺ وهو يعود إلى شربه،فقال أحد الصحابة : « لعنه الله ما أكثر ما يشرب » فقال ﷺ : « لا تكن عونا للشيطان على أخيك » (2)،ويعقب الغزالي على هذا الحديث بقوله : « وكأن هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ » (3)

2 ــ الظواهر السلوكية :

إن المظاهر السلوكية نتيجة حتمية للأسس النفسية ترقى برقيها ،وتتزل بتزولها ،وسنكتفي بالحديث هنا على خمسة سلوكيات اجتماعية يدعو الغزالي بأساليب مختلفة إلى رعايتها،وهي :

أ ــ التناصح :

بما أن العلاقة بين المؤمنين هي علاقة الأخوة في الله فإن التناصح هو المظهر الأول لهذه العلاقة ،فالمؤمنون يجتمعون بالله ،ويتفرقون عليه ،وينقل الغزالي في هذا المعنى عن **ذي النون المصري** (4) قوله : « لاتصحب مع الله إلا بالموافقة،ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة » (5)، وليس في هذا السلوك أي وحشة أو نفرة قلب، بل هو عين الشفقة والرحمة، لأن « من ينبهك إلى صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك ،وقد هممت بإهلاكك،فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك » (6)،ولكن الغزالي يفرق بين المناصحة التي تتعلق بالمصالح الدينية أو الدنيوية ،وبين المناصحة التي هي عتاب على التقصير في الحقوق الأخوية ،فإن الأفضل في الحالة الثانية هو الاحتمال والعفو والصفح والتعامي إلا إذا أدى استمرار ذلك إلى القطيعة ،فحينذاك

---

1 ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص170.

2 ــ أبو داود، السنن، ط1،بيروت:دار الجنان،1409ه ــ 1988م،[كتاب الحدود]، ج2،ص568،رقم:4477.

3 ــ الغزالي، الإحياء، ج2،ص170.

4 ــ هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، من كبار الصوفية المتقدمين ،مشهور بحكاياته في الحب الإلهي ،توفي سنة 140هـ ،انظر:ابن الجوزي،صفة الصفوة، ج2،ص460.

5 ــ الغزالي،الإحياء، ج2،ص182.

6 ــ المصدر نفسه، ج2،ص183.

يكـــون « العتـــاب في الســـر خـــير مـــن القطيعـــة ،والتعريـــض خـــير مـــن التصريح،والمكاتبة خير من المشافهة ،والاحتمال خير مـــن الكـــل » (1).

وذلك لأن الغزالي يـــرى في دوام اتصـــال العلاقـــة بـــين المؤمنـــين المصلحـــة الكبرى التي ينبغي المحافظة عليها، ولو بتحمل بعض المفاســـد الفرعيـــة الناجمـــة عـــن هذه العلاقة إذا أدى إصلاحها إلى ضرر على وجود العلاقـــة أو دوامـــها.

وبناء على هذا الأصل، يدعـــو الغـــزالي إلى الأخـــذ بـــآداب النصيحـــة ؛فـــلا يكون الباعث عليها إلا الشفقة والرحمة بـــالمنصوح ،ثم انتـــهاج الأســـاليب المناســـبة لذلك ،بأن « تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه، وتخوفـــه بمـــا يكرهـــه في الدنيـــا والآخرة ليترجر عنه ،وتنبهه إلى عيوبه ،وتقبح القبيـــح في عينـــه، وتحســـن الحســـن » (2)،وذلك كله في السر ،فالنصيحة في العلن فضيحة ،وينقل الغـــزالي عـــن الشـــافعي في ذلك قوله : « من وعظ أخاه في السر فقد نصحه وزانـــه ،ومـــن وعظـــه علانيـــة فقد فضحه وشـــانه » (3).

ولا يلزم الناصح أسلوبا واحدا لا يتعداه ،بـــل يتلطـــف في النصـــح بـــاختلاف أساليبه ،فينصح بالتعريض مرة، وبالتصريح أخـــرى ،لكنـــه إن علـــم أن النصـــح لا يؤثر فيه ، « وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليـــه ؛فالســـكوت عنـــه أولى »(4).

وهنا يفرق الغزالي بين **المداراة** المشروعة باعتبارهـــا مصـــدرا لـــدوام العلاقـــة بين المؤمنين ،وبين **المداهنة** المذمومة ،ويعبر عن هذا التفريـــق بقولـــه : « إن أرضيتـــه لسلامة دينك ،ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء ،فـــأنت مـــدار،و إن أغضيـــت لحظ نفسك، واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك، فـــأنت مداهـــن » (5) .

وكما تتعلق المناصحة بالقول تتعدى إلى الفعل ،**فالتاجر النصـــوح** هـــو الـــذي يعامل زبائنه بالمناصحة وعدم الغش ،يقول الغزالي ذاكـــرا بعـــض آداب التـــاجر : « أن يظهر جميع عيوب المبيـــع خفيـــها وجليـــها، ولا يكتـــم منـــها شـــيئا، فذلـــك واجب،وإن أخفاه كان ظالما غاشا، وكـــان تاركـــا للنصـــح في المعاملـــة ،والنصـــح واجـــب » (6).

---

1 ــ الغزالي،الإحيـــاء، ج2،ص183.

2،3 ــ المصدر نفســـه، ج2،ص182.

4 ــ المصدر نفســـه، ج2،ص183.

5 ــ المصدر نفســـه، ج2،ص182.

6 ــ المصدر نفســـه، ج2،ص75.

و هو يطيل في تفصيل كيفية النصح في التجارة والمعاملات المالية، لما لها من آثار في العلاقات الاجتماعية ،وفي تيسير حياة الناس ،وله فيها كتاب خاص في الإحياء سماه « **آداب الكسب والمعاش** » ،ومن تلك الآداب: ترك الثناء على السلعة بما ليس فيها، وأن لا يجلس في طريق المسلمين ،فيضيق عليهم ،وأن لا يبخس في كيله، ولا ينقص في وزنه،وإذا وقف عليه شريف أكرمه ،أو جار فضله ،أو ضعيف رحمه ،أو غير هؤلاء أنصفه (1).

والحاكم النصوح هو الذي يرفق برعيته ويترك التعنيف والتكبر عليهم،ويتودد إليهم ،مع مزج الرهبة لهم رحمة بهم (2)،ولا يكتفي برفع يده عن الظلم ،بل يأمر نوابه وعماله بذلك ،ويتشدد عليهم فيه ،فإنه يسأل عن ظلمهم، كما يسأل عن ظلم نفسه (3).

والمعلم النصوح هو الذي يبدأ بصلاح نفسه، باعتباره قدوة لتلاميذه،ويلزم الصمت في جلسته ،ويكون معظم تأديبه بالرهبة ،ولا يحادثهم فيجترئون عليه،ولا يدعهم يتحدثون و ينبسطون بين يديه ،ولا يمازح بين أيديهم أحدا،ويتزه عما يعطونه(4) .

والقاضي النصوح هو الذي يمنع الحاشية من الفساد والطغيان ،ويرفق بالأرامل ،ويحتاط للأيتام ،ويتوقف في الجواب ،ويرفق بالخصوم ،ولا يميل إلى أحد المتخاصمين (5).

وهكذا يختلف مظهر التناصح باختلاف الوظيفة ،وكل فرد في المجتمع قائم على مصلحة من مصالح المسلمين ،وتلك المصلحة هي التي تفرض عليه السلوك الخاص بها ،والضابط الكلي لذلك ــ كما ينص عليه الغزالي ــ هو « أن لا يحب لأخيه إلا ما يحبه لنفسه ،فكل ما لو عومل به شق عليه ،وثقل على قلبه،فينبغي أن لا يعامل غيره به » (6).

ب ــ **التآلف** : ويشمل كل الآداب الشرعية المؤلفة بين قلوب

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج2،ص74 ــ79.

2 ــ الغزالي، الأدب في الدين،[مجموعة المنقذ من الضلال]،بيروت: المكتبة الثقافية،ص133.

3 ــ الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك،[على هامش:سراج الملوك للطرطوشي]،ط1،مصر: المطبعة الخيرية،1306هـ،ص22.

4 ــ الغزالي، الأدب في الدين، ص111.

5 ــ المصدر نفسه،ص133.

6 ــ الغزالي،الإحياء،ج2،ص75.

المؤمنين،و الموثقة لعرى المودة بينهم ،كما قال تعالى : ﴿ **لو أَنْفَقْتَ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الأنفال:63) ،والغزالي يجمع الكثير من تلك الآداب من النصوص الشرعية ويقيس عليها غيرها،وسنلخص هنا ما أمكن من تلك الآداب :

فمنها ما يسميه بـ « **السكوت** » ،وهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته ،بل يتجاهل عنه ،ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ،ولا بماريه، ولا يناقشه ،وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله إذا ما علم أن ذلك لا يرضيه ،و إذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره وموارده ،ولا يسأله عنه، لأنه ربما يثقل عليه ذكره ،أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ،ولا يبثها إلى غيره البتة ،ولو إلى أخص أصدقائه ،ولا يكشف شيئا منها ،ولو بعد القطيعة ،وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده،وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه (1).

ومنها التماس ما يزيد أواصر المحبة الأخوية ،وأولها إخبار الأخ بالمحبة لقوله ﷺ: « **إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره** » (2) ،ويعقب الغزالي على هذا الحديث بقوله : « إنما أمرنا بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب ،فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة ،فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف » (3).

ومنها أن يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره ،ويثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله ،بل يثني على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخلقه وشعره وجميع ما يفرح به ،وذلك من غير كذب وإفراط ،وأن يبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح ،فإن إخفاء ذلك جسد،وأن يشكره على صنيعه في حقه ،ويذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء، أو تعرض لعرضه بتصريح أو تلميح .

ويجعل الغزالي الحد الجامع لهذه المظاهر وغيرها هو « **الإخلاص في الصحبة** » ،ويفسره باستواء الغيب والشهادة، واللسان والقلب، والسر والعلانية، والجماعة والخلوة ،ويعتبر ضده نفاقا ،وينصح من كان كذلك

---

1 ــ الغزالي،الإحياء، ج2،ص176 ــ 180.

2 ــ الترمذي ،السنن،[كتاب الزهد]، ج4،ص599،رقم:2395.

3 ــ الغزالي،الإحياء، ج2،ص181.

بالانقطاع والعزلة لأن « حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق ،فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق »(1).

ومن علامات هذا الإخلاص الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله، وكل ما يتعلق به ،وينقل الغزالي عن **محمد بن يوسف الأصبهاني** (2) هذه الصورة الجميلة للأخ المؤمن : « أين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ، ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد لحزنك، مهتم بما قدمت وما صرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى (3) .

ج ـ **التسامح** : كما أن الجانب الإيماني من الأخوة يحفظ بالتناصح،وجانب الترابط وتوثيق العلاقة يوطد بالتآلف ،فإن دوام الأخوة يقتضي التسامح والعفو وسعة الصدر فيما يعرض للأخوة من أزمات تريد فك أواصرها،ويذكر الغزالي لذلك موقفين كلاهما يساهم في تحقيق معنى التسامح بين المؤمنين ،هما :

ـ الاحتمال وسعة الصدر والتماس الأعذار القريبة أو البعيدة ،وينقل الغزالي في هذا المعنى قول بعضهم : « ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرا،فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ،فتقول لقلبك ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا ، فلا تقبله،فأنت المعيب لا أخوك » (4).

ـ قبول الاعتذار من الأخ مع عدم تعنيفه ؛فإن لم يتحقق بذلك فقد ورد الوعيد الشديد في بيان إثم ذلك،زيادة على دلالته على قساوة القلب ،فإن القلوب المؤمنة رقيقة سمحة لا تحمل الأحقاد.

ولا يتعلق التسامح عند الغزالي بجانب العلاقة الأخوية فقط ،بل يتعداه إلى الجانب الديني نفسه الذي قامت على أساسه الأخوة ،فالغزالي يرى أن عقد الأخوة بين المؤمنين يترل منزلة القرابة ،فإذا انعقدت تأكد الحق ،ووجب الوفاء بموجب العقد ،ومن الوفاء أن لا يهمل أخاه أيام حاجته وفقره،وفقر الدين أخطر من فقر المال (5) .

---

1 ـ الغزالي،الإحياء، ج2،ص182.

2 ـ هو أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء،كان من المتدينين الأتقياء،كتب الحديث،توفي سنة 286هـ،انظر:ابن الجوزي،صفة الصفوة،ج2،ص294.

3 ـ الغزالي، الإحياء، ج2،ص186.

4 ـ المصدر نفسه، ج2،ص185.

5 ـ المصدر نفسه، ج2،ص184.

زيادة على ذلك يؤكد الغزالي معنى إصلاحيا يتسامح به صاحب تقيا،وهو ينظر إلى خوفه ومداومته ،فإن ذلك يؤثر فيه،ويستحيي من الإصرار (1)،فلذا لا ينبغي أن يحجر على مخالطة الفسقة في رأي الغزالي والتفريق بين المؤمنين بسبب ذلك ،بل يخالط تقيهم فاجرهم ،ويتلطف لإصلاحه بما أطاق (2)،والغزالي ينقل ـ هنا ـ الخلاف الواقع بين السلف الصالح في ذلك،فقد ذهب أبو ذر ﷺ (3) إلى أن الانقطاع عنه أولى ،وقال في ذلك : « إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته » (4)،وذهب أبو الدرداء ﷺ (5) وجماعة من الصحابة ﷺ إلى خلافه ،قال أبو الدرداء ﷺ : « إذا تغير أخوك ،وحال عما كان عليه ،فلا تدعه لأجل ذلك ،فإن أخاك يعوج مرة ،ويستقيم أخرى » (6).

والغزالي ينتصر للرأي الثاني و يقويه بالآثار الكثيرة الدالة على ذلك، أما البعض الذي أمرنا الشرع به فيتعلق بأعمال العاصي لا بذاته، ولذلك قال تعالى :« **فإن عَصَوْكَ فَقُلِ انِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** » (الشعراء:216)،قال الغزالي: « و لم يقل: إني بريء منكم ،مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب » (7).

د ـ **التكافل**:وهو من أهم المظاهر السلوكية الدالة على صدق التآخي بين المؤمنين ،ولا يقصد الغزالي بالتكافل ـ هنا ـ ما شرعه الله تعالى من زكاة أو صدقات أو تطوعات،فإن ذلك قد يسد بعض الحاجات ،ولكنه يقصر عن الكثير منها وإنما يقصد قيام علاقات أخوية خاصة بين المؤمنين تجعل كل واحد منهم يشعر

---

1 ـ الغزالي، الإحياء، ج1،ص286.

2 ـ يفرق الغزالي في المخالطة بين تقي تغير حاله ،فينصح بالدوام على مخالطته والتلطف بنصحه ،وبين الفاسق ابتداء المصر على ذلك المجاهر به ،فيرى أن الانقطاع عنه أولى « لأن مشاهدة الفسق و العمل هو أمر المعصية على القلب،وتبطل نفرة القلب عنها » ،انظر :الغزالي ،الإحياء ،ج2،ص172 .

3 ـ هو جندب بن جنادة الغفاري،من كبار الصحابة ،اشتهر بزهده ،وكان له مذهب خاص في المال أودى بسببه،توفي بالربذة 32هـ،انظر :ابن الجوزي،صفة الصفوة،ج1،ص252.

4 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص183.

5 ـ هو عويمر بن زيد ،حكيم الصحابة ،كان زاهدا عابدا له حكم كثيرة،تولى بدمشق سنة 32هـ،انظر :ابن الجوزي،صفة الصفوة،ج1،ص264.

6 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص183.

7 ـ المصدر نفسه،ج2،ص184.

بالمسؤولية نحو أخيه في كل شؤونه المالية وغيرها ،بحيث يقضي حاجياته بشعور أدائه واجبا لا نافلة أو تطوع ،فعقد الأخوة كما يراه الغزالي مثل عقد القرابة وعقد النكاح وسائر العقود الشرعية يقتضي حقوقا يجب الوفاء بها .

ويضع الغزالي للتكافل المالي بين الإخوة ثلاث مراتب تتدرج بحسب الدرجة الإيمانية للمسلم ،وأدنى تلك المراتب أن يترل الأخ أخاه مترلة خادمه ،فيقوم بحاجته من فضل ماله دون انتظار سؤاله ،وأعلى منها أن يترله مترلة نفسه ،فيرضى بمشاركته إياه في ماله، يأخذ منه ما يشاء ،ويدع ما يشاء ،وأعلاها أن يؤثره على نفسه،ويقدم حاجته على حاجته ،وهذه الرتبة كما يرى الغزالي هي مرتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين (1).

وهي الدرجة التي كان عليها الصحابة والسلف الصالح ﷺ ،والتي ضربت أروع الأمثلة في الإيثار، والغزالي ينقل عنهم النماذج الكثيرة في ذلك ،ومنها أنه أهدي لرجل من الصحابة رأس شاة فقال:أخي فلان أحوج مني إليه ،فبعث به إليه ، فبعثه ذلك الصحابي إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة (2) ،وقال أبو **سليمان الداراني** (3) :« لو أن الدنيا كلها لي،فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له ،وقال أيضا :« إني لألقم اللقمة أخا من إخواني، فأجد طعمها في حلقي » (4) .

وهذه المعاملة المثالية لا تتعلق بالمال فقط ،بل تتعداه إلى قضاء حاجاته والاهتمام بها، سواء كانت جليلة أو دقيقة ،ويروي الغزالي في ذلك عن بعض السلف أنه كان يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجتهم،ويتردد كل يوم إليهم ،ويمولهم من ماله ،فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ،وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه،ويسألهم :هل لكم زيت ؟ هل لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ (5) .

وينصح الغزالي أن لا تتخذ هذه الخصلة الشرعية سلما للمطامع الشخصية ،فلا

---

1 ــ الغزالي،الإحياء،ج2،ص173.

2 ــ المصدر نفسه،ج2،ص174.

3 ــ هو عبد الرحمان بن أحمد بن عطية العنسي،من كبار التابعين من أهل الكوفة ،توفي سنة 205هـ،انظر:ابن الجوزي، صفة الصفوة،ج2،ص394.

4 ــ الغزالي،الإحياء،ج2،ص174.

5 ــ المصدر نفسه،ج2،ص175.

ينبغي أن يكلف الأخ أخاه ما يشق عليه ؛فلا يحمله من أعبائه إلا ما لم يطق منها،ولا يستمد منه جاها ولا مالا،بل« لا يقصد بمحبته إلى الله تعالى تبركا بدعائه، واستئناسا بلقائه، واستعانة به على دينه ،وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤونته» (1).

وهكذا ،بتوفر التكافل والعفة ترتقي الأخوة بين المؤمنين إلى أعلى درجات الصدق والإخلاص والوفاء .

هـ ـ **التواصل**:يعتبر الغزالي التواصل بين المسلمين وحسن الصحبة معهم ركنا من أركان الدين، وأصلا من أصوله التي لا يستغنى عنها ،لأن الدين سفر إلى الله تعالى ،ومن أركان السفر حسن الصحبة مع المسافرين (2).

وهذا المبدأ السلوكي العام يختلف باختلاف المصاحبين لأن الشارع فرق بين درجات الناس في المودة والمعاملة ،يقول الغزالي : « وكل مخالط ،ففي مخالطته أدب،والأدب على قدر حقه ،وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة (3) ،وبناء على ما اعتبره الشارع من روابط يقسم الغزالي درجات التواصل ويرتبها كما يلي :

ـ **القرابة** :وقد أوجب الشرع وصلها واحترامها ،وعلق الكثير من الأحكام بها باعتبارها المجتمع الأصغر الذي يتوقف على مدى تماسكه تماسك المجتمع الأكبر.

وأخص من حق القرابة « **حق الوالدين** » ،ومن الآداب التي ذكرها الغزالي نحوهما : « أن يسمع كلامهما ،ويقوم لقيامهما ،ويمتثل أمرهما ،ويلبي دعوتهما ويخفض لهما جناح الذل من الرحمة ،ولا يبرهما بالإلحاح ،ولا يمن عليهما بالبر لهما ،ولا بالقيام بأمرهما ،ولا ينظر إليهما شزرا ،ولا يعصي لهما أمرا » (4).

ومن آداب الوالد على أولاده أن يعينهم على بره ،ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم ،ولا يلح عليهم في وقت ضجرهم ،ولا يمن عليهم بتربيته (5).

والغزالي يعتبر تربية الأولاد من أعظم الواجبات على الآباء باعتبارها أساسا لكل السلوكيات التي تظهر على ذلك الابن في صغره أو كبره ، « فالصبي أمانة عند والديه ،وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص188.

2 ـ الغزالي، الأربعين في أصول الدين،ص56.

3 ـ الغزالي، الإحياء،ج2،ص193.

4 ،5 ـ الغزالي، الأدب في الدين،ص132.

نفس وصورة ،وهو قابل لكل ما تقتضيه ،ومائل إلى كل ما يمثل له ليه .
(1).وهذا وضع فصلا مهما في كتاب « **رياضة النفس** » لكيفية تربيته لأولاده، وهو فصل في غاية الأهمية و لاشكار كان لمعرفة لسبق فيه إلى الاهتداء إلى الكثير من الجوانب النفسية للطفل ،وكيفية التعامل معه على أساسها (2).

ـ **الزوجية** :وهي من العلاقات التي اعتبرها الشارع وسماها « **مِيثَاقًا غَلِيظًا** » (النساء:21)،وسمى الزوجة على أساسها « **الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** » (النساء:36)،وقد ذكر الغزالي الآداب الكثيرة الواصلة لحبل المودة بين الزوجين،**ومن آداب الرجل مع زوجته** لطافة الكلمة، وإظهار المودة ،والبسط في الخلوة والتغافل عن الزلة،وإقالة العثرة، وصيانة العرض ،وقلة المجادلة. وبذل المؤونة ،وإكرام أهلها، وشدة الغيرة عليها (3).

ولما لغيرة الزوج من تأثيرات سلبية على كيان الأسرة ،فإن الغزالي ينصح للاعتدال فيها.وهو أن لا يتغافل الزوج عن مبادئ الأمور التي يخشى غوائلها،دون مبالغة في إساءة الظن وتجسس البواطن ،يقول الغزالي : « أما الغيرة التي يحبها الله ،فالغيرة في الريبة،والغيرة التي يبغضها الله ،فالغيرة في غير ريبة »(4).

ومن آداب المرأة نحو زوجها دوام الحياء منه ،وقلة المجادلة له ،ولزوم الطاعة لأمره، والسكوت عند كلامه ،والخفض له في غيبته ،وترك الخيانة في ماله،وطيب الرائحة،ونظافة الثياب ،وإظهار القناعة ،واستعمال الشفقة ،ودوام الزينة ،وإكرام أهله وقرابته ،ورؤية حاله بالفضل ،وقبول فعله بالشكر ،وإظهار الحب له عند القرب منه ،وإظهار السرور عند رؤيته (5).

وهذه الآداب وغيرها تحول بيت الزوجية الذي هو المجتمع الأصغر إلى مستقر مودة وسكينة ورحمة .

ـ **الجوار** :وهو من العلاقات التي أوجبت الشريعة وصلها ،فلذلك يقتضي حقوقا زائدة على حقوق المسلمين العامة ،كما قال ﷺ: « **من كان**

---

1 ـ الغزالي،الإحياء،ج3،ص72.

2 ـ د. محمود قاسم،دراسات فلسفية،ص103.

3 ـ الغزالي،الأدب في الدين،ص128.

4 ـ الغزالي،الإحياء،ج2،ص46.

5 ـ الغزالي،الأدب في الدين،ص129.

يؤمن بالله واليوم ... ر فليكرم جاره » (1)،ومن الآداب التي ذكرها الغزالي لحقوق الجوار أن يبدأه بالسلام ولا يطيل معه الكلام ،ولا يكثر عن حاله السؤال ،ويعوده في المرض ،ويعزيه في المصيبة ... (2)

ـ **عامة المسلمين** :ووصلهم يكون بمقتضى حق الإيمان،وحقوقه كثيرة منها :إفشاء السلام ،وإجابة الدعوة ،وتشميت العاطس ،وشهود الجنازة ،وبر القسم ،والنصيحة ،والدعاء له بظهر الغيب ،والإخلاص في محبته (3)،وأهمها وأولها عدم إيذاء أي أحد من المسلمين ،فقد قال ﷺ: « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » (4)،وهذا الإيذاء يعم كل التصرفات الجارحة،ولو كانت مباحة في حد ذاتها.

وبهذا التواصل بين المؤمنين يترسخ عقد الأخوة الرابطة بينهم ،ويجعل من المجتمع الإسلامي بناء واحدا متكاملا متينا .

هذه هي الأسس التي يضعها الغزالي لبناء المجتمع الصالح ،وهي أسس متسلسلة مترابطة تبدأ بالفرد كلبنة أساسية في المجتمع ،ثم تكون من الأفراد الأقوياء الصالحين المجتمع القوي الصالح.

---

1 ـ مسلم، الجامع الصحيح،[كتاب الإيمان]، ج1،ص68،رقم:67.

2 ـ الغزالي،الإحياء، ج2،ص213،وانظر:الغزالي ،الأدب في الدين،ص132

3 ـ البخاري،الجامع الصحيح،[كتاب الإيمان]، ج1،ص9،رقم،9.

4 ـ الغزالي،الإحياء، ج2،ص195.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد حاولنا في هذا البحث أن نبرز جانبا هاما من فكر الغزالي،هو جانب الإصلاح الاجتماعي ،و الذي رأينا أنه كان هدفا أساسيا ملحوظا في جميع أعماله وتآليفه ومواقفه،ولأجل الغفلة عنه أسيء فهم الكثير من آرائه،ولعل أهم ما يبرز هذه الناحية من توجه الغزالي الفكري ما يلي:

1 ــ أن الغزالي قام بضبط فقهي تأصيلي لمنهج الإصلاح الاجتماعي يقوم على مقاصد الشريعة الكلية، و تغليبها على الآراء الفقهية المجردة عن الأدلة القطعية،مع إعطاء قواعد عامة لذلك،حتى يحفظ أسلوب الإصلاح ووسائله وأهدافه ــ بوصفها عملا شرعيا ــ من تحكم الأهواء والعقول.

وبناء على ذلك قال بوجوب إيجاد علماء يجمعون بين العلم والتزكية تكون مهمتهم الخروج للعامة ودعوتهم وإصلاحهم ،لا المكوث في المدارس والانشغال بالفروع الفقهية والكلامية أو المناظرات الجدلية ،مع وجوب التكوين المتكامل لهؤلاء العلماء تربويا وعلميا.

وإيجاد مثل هؤلاء العلماء يستدعي إصلاح نظام التعليم باعتباره ركنا أساسيا في الإصلاح الاجتماعي ؛ والذي غلبت عليه في عصر الغزالي الحرفية والجزئية والتقليد ،وذلك بنظام متكامل يشمل الجوانب الشرعية والواقعية،ويعيد لفروض الكفاية الغائبة قيمتها .

وهذه الشروط تبين العلاقة التي ينبغي قيامها بين العلم والإصلاح،فالإصلاح الشرعي الكامل ثمرة للعلم الصحيح، وهو كالشعائر التعبدية لا ينتقل المؤمن فيها من ركن إلى ركن إلا بناء على حكم شرعي،فالمصلح مقتد وتابع، لا مشرّعا.

واعتبار العلم ركنا أساسيا في منظومة الغزالي الإصلاحية يمكن إدراكه بسهولة،فقد قضى معظم حياته مدرسا،وبنى في آخر حياته مدرسة،وسمى كتابه الذي ضمنه آراءه الإصلاحية « **إحياء علوم الدين** » ،وابتدأ أول جزء منه **بكتاب العلم**،معتبرا العلم الصحيح الخطوة الأولى للمجتمع الصالح.

2 ــ أنه دعا إلى تعميق التعامل مع الكتاب والسنة بالفهم الصحيح،والتدبر الواعي ، والتأثر الحي لما فيهما من الحقائق الكبرى ،لا مجرد الانشغال بظاهر التفسير والاكتفاء بعلم الرواية. فالكتاب والسنة ـ وإن لم يخل من الرجوع إليهما جيل من أجيال المسلمين ـ إلا أن طريقة التعامل معهما هي المختلفة ،وهو ما يتفق فيه مع الكثير من المصلحين المحدثين.

3 ــ أن الغ ال يرى أن العقيدة الإسلامية هي منطلق الإصلاح الاجتماعي،فبدو لا يكون صلاح ولا إصلاح،وقد انتقد الطريقة الجافة في تبليغ العقيدة للناس، والتي غلب عليها في عصره الطابع الكلامي والمنطقي،ودعا بدل ذلك إلى الإيمان المؤثر الذي ينطلق من العقل والقلب ليغطي جميع مناحي الحياة،ورأى لحفظ العقيدة من الشبه والأهواء ضرورة تطور علم الكلام في كل عصر بحسب ما يجدُّ فيه من الفتن .

4 ــ اختار الغزالي التصوف منهجا للتربية الإصلاحية ،باعتبار الصوفية ورثة للسلف الصالح في علم السلوك ،وقد حاول إنقاذ التصوف من البدع والخرافات والفلسفات التي حاولت الالتصاق به،بحيث أصبح « **التصوف السني**» علما على تصوف الغزالي ومدرسته ،وفي نفس الوقت بسط الغزالي المفاهيم المعقدة لكثير من قضايا التصوف ،والتي كانت محل إنكار من الفقهاء،وقد كان لذلك دور كبير في جعله أكثر شعبية، وهو ما يفسر لنا انتشار التصوف في المجتمع الإسلامي بعده بقوة.

5 ــ أنه اعتبر تزكية النفس وتخليصها من باطن الإثم أساسا من أسس الإصلاح،لما لأمراض النفوس من أثر سلبي خطير في تدهور المجتمعات و تفككها،وقد كان للغزالي دور كبير في إعطاء العلاج المناسب لتلك الأمراض،والذي لا تزال الحاجة ماسة إلى الاطلاع عليه، والاستفادة منه.

6 ــ جعل الغزالي قدوته فيما دعا له من إصلاح اجتماعي السلف الصالح، لما كانوا عليه من كمال أخلاقي إيماني ،ونضج عقلي ،وتدين حقيقي، ولذلك اعتبرهم مرجعا للسلوكات التي دعا لها ،وامتلأت تصانيفه بأخبارهم والثناء عليهم.

7 ــ أنه يرى أن على الحكام القيام بالإصلاح و إعانة المصلحين، باعتبارهم ركنا أساسيا في الإصلاح الكامل الشامل ،أما العلماء فإن الأولى لهم في رأي الغزالي هو الابتعاد عن أبوابهم ،والاستغناء قدر الإمكان عن هباتهم حفظا لعزتهم وكرامتهم،وهذا ما يبرر لنا قيام الأوقاف في العصور المتأخرة بمصاريف العلماء مما ساهم في استقلالية التعليم والدعوة عن السلطة.

8 ــ انتقد الغزالي الكثير من الظواهر التي تسببت في تفكك وحدة المجتمع الإسلامي كالتعصب المذهبي أو الغلو في التكفير ،و قد وضع البديل لذلك بالقول بصحة المذاهب الفقهية جميعا ما دامت تستمد من أصل واحد،وتضييق دائرة الكفر وضبط حدودها ،وإشاعة مظاهر الترابط الاجتماعي من تكافل وتواصل وتآلف وغيرها،فالأخوة هي المظهر الكامل للعلاقة بين المؤمنين مهما

اختلفت مذاهبهم وأعرافهم .

وقد لاحظنا أن الدراسات المهتمة بفكر الغزالي اختلفت نظراتها له بسبب عدم مراعاتها لبعد الإصلاح الاجتماعي في تفكيره ومواقفه ،وهذا باستثناء بعضها كدراسة الدكتور سليمان دنيا عن « **الحقيقة في نظر الغزالي** »،فإن الصفة التي اجتمعت فيها شخصية الغزالي الفقيه والصوفي والمتكلم والفيلسوف هي الإصلاح، فلذا اختلفت آراؤه ،أو بدت متعارضة تؤلّب عليه الخصوم،وتحيرهم في حقيقة مواقفه.

وهذا يفسر لنا ـ أيضا ـ الأسلوب الذي اختاره للتعبير عن أفكاره من كثرة التكرار في كتبه ،و غوصه أحيانا إلى أعماق غامضة يصعب إدراكها،ونزوله أحيانا في تبسيطه إلى حد السطحية والسذاجة،واستعماله الكثير للأمثلة والشواهد،أو الأحاديث الصعيفة والقصص...فهو يحاول أن يخاطب عامة الناس وخاصتهم، كل واحد بما يليق به من الأساليب.

ونرى هذا التنوع في أسلوب الطرح وموضوعه يكشف عن شخصية إصلاحية عميقة،لاعن شخصية قلقة محتارة ـ كما يزعم بعض الباحثين ـ لأن المصلح الاجتماعي يعالج أمراض مجتمعه،وهي مختلفة معقدة متشعبة،ولذا يظهر بمظهرها مختلفا ومعقدا ومتشعبا .

ولهذا نرى الغزالي الفيلسوف هو الذي ينقد الفلسفة ،وينجح في الحد من غلوائها، ولو نقدها متكلما أو فقيها ما أثر فيها ذلك التأثير،فهو يدرك أن لكل مرض دواؤه الخاص به ،وقد يصبح الدواء سما إذا لم يعط بالجرعات المناسبة.

وقد ظهر لنا الغزالي في هذه الرسالة بهذا المظهر :إنسان مؤمن حزين لما أصاب الدين في عصره،وما أصاب ممثليه من العلماء ،فهو لذلك يمارس دوره في جميع الميادين: **في العقيدة** بتنقيتها من الأهواء والبدع والانحرافات،**وفي التصوف** بتبيين محاسنه ومساوئه ،**وفي سلوكات الناس** بالبحث عن جذورها العميقة،**وفي الملل والنحل** بالرد عليها، والكشف عن أباطيلها... وهو أثناء ذلك قد ينقل عن صوفي أو فقيه أو فيلسوف من المعاني ما يراه مناسبا،فلذلك اتهم بالنقل،ورمي بالفلسفة،وشنع عليه بالتكرار والمبالغة.

وقد حاولنا أن نبين إمكانية الاستفادة من آراء الغزالي في إصلاح واقعنا الاجتماعي الذي يكاد يمر بنفس الظروف التي مر بها عصر الغزالي من ضعف إيماني وانهيار خلقي وتشتت في الوحدة الاجتماعية وغفلة عن القضايا الأساسية. ولعل أهم نتيجة لذلك نطرحها ـ هنا ـ هي الدعوة إلى الاهتمام بتراث العلماء

والاستفادة من تجاربهم في إثراء فقه الدعوة ،ونبذ التعصب الذي يبعث على تتبع عثرات العلماء وزلاتهم دون الاهتمام بما قدموا من خدمات للإسلام والمسلمين.

وكذلك دعوة المهتمين بالعمل الإسلامي إلى تركيز الجهود في العمل الاجتماعي بدل الغرق في المتاهات السياسية،فإصلاح المجتمع هو القاعدة التي ينطلق منها الإصلاح في كافة مجالاته ،وما مر بهذه الأمة من تجارب ،وما حاق بها من هزائم يثبت ذلك.

وفي الأخير، نأمل أن تؤدي هذه الرسالة بعض ما سعت له من أهداف،وأن تكون مساهمة طيبة في البحوث المتعلقة بالإصلاح الاجتماعي الذي يهتم بدراسة آراء العلماء والمصلحين وتجاربهم،و الاستفادة منها ،بدلاً التفكير العقيم الذي يعزل مواريث الأمة وخبراتها؛فالأمة التي لا تستفيد من رجالها أمة لا حذور لها، ولا قيام لأمرها.

نسأل الله تعالى في نهاية هذا البحث أن يتجاوز لنا عن كل تقصير ،وأن يغفر لنا كل زلة ،وأن يهبنا من الفهم ويلقننا من الحكمة ما نعتصم به من كل تقول أو دعوى.

والحمد لله رب العالمين.

جمعية الإمام عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس العامة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية

1 ـ سورة البقرة

الآية	رقم الآية	الصفحة
أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم	43	53
وأتوا البيوت من أبوابها	86	70
وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم	93	85
الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته	121	160
ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة	195	57
ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة	201	182
واذكروا نعمة الله عليكم	231	91
ربي الذي يحيي ويميت	257	66
فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب	257	66، 128
الشيطان يعدكم الفقر	267	171
ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا	269	83
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها	286	57

2 ـ سورة آل عمران

قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني	31	100، 1019
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا	103	72
ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا	105	72
إن في خلق السماوات والأرض	190	96

3 ـ سورة النساء

ولا تؤتوا السفهاء أموالكم	5	65
ميثاقا غليظا	21	196
الصاحب بالجنب	36	196
فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد	41	91
لعلمه الذين يستنبطونه منهم	83	85

4 ـ سورة المائدة

يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم	54	178

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

5 ـ سورة الأنعام

وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم 83 128
وما قدروا الله حق قدره 91 129
يخرج الحي من الميت 95 84
سبحانه وتعالى عما يصفون 99 94
بديع السموات والأرض 100 94
وذروا ظاهر الإثم وباطنه 120 75
قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين 162 115

6 ـ سورة الأعراف

سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق 146 88
فاقصص القصص لعلهم يتفكرون 176 77
يسألونك كأنك حفي عنها 187 86

7 ـ سورة الأنفال

لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم 63 191

8 ـ سورة يوسف

ألر 1 84

9 ـ سورة النحل

أدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة 125 62

10 ـ سورة الإسراء

ولا تقف ما ليس لك به علم 36 103
وآتينا ثمود الناقة مبصرة 59 85
إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات 75 85

11 ـ سورة مريم

يا يحي خذ الكتاب بقوة 12 89

12 ـ سورة طه

ولو لا كلمة سبقت من ربك 127 86

13 ـ سورة الأنبياء

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا 22 130
أف لكم ولما تعبدون من دون الله 66 78

14 ـ سورة النور

ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة..... 22 185

ولا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا 27 70

15 ـ سورة الشعراء

فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون..... 216 193

16 ـ سورة العنكبوت

ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون 1 40

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ..... 69..... 120

17 ـ سورة الروم

فطرة الله التي فطر الناس عليها..... 30 124

18 ـ سورة لقمان

وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه..... 12 77

19 ـ سورة الأحزاب

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة 21 110

الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه..... 39 178

20 ـ سورة سبأ

قل من يرزقكم من السموات والأرض..... 24..... 130

21 ـ سورة فاطر

ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا..... 43 ،44 24

22 ـ سورة الصافات

سلام على آل ياسين..... 130..... 85

23 ـ سورة الزمر

إنما يتذكر أولو الألباب ..... 9..... 88

24 ـ سورة غافر

وما يتذكر إلا من ينيب 13 88

25 ـ سورة الشورى

ليس كمثله شيء ..... 11..... 94،95

26 ـ سورة الأحقاف

وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم..... 11 162

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

27 ـ سورة محمد

ويدخلهم الجنة عرفها لهم 6 47

28 ـ سورة الحجرات

ولا تجسسوا .....12.....70

29 ـ سورة ق

تبصرة وذكرى لكل عبد منيب..... 8 88

وقال قرينه هذا ما لدي عتيد 23 86

ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ..... 24.....86

قال قرينه ربنا ما أطغيته 27 86

30 ـ سورة النجم

لا ينطق عن الهوى..... 4 109

31 ـ سورة الرحمان

والسماء رفعها ووضع الميزان.....7 ـــ 1 9.....127

32 ـ سورة الواقعة

أفر أيتم ما تمنون.....61.....90

33 ـ سورة الحديد

لقد أرسلنا رسلنا بالبينات .....25..... 127

34 ـ سورة المجادلة

لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر 22 186

35 ـ سورة الحشر

وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا 7 100

36 ـ سورة الممتحنة

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء 1 186

37 ـ سورة الصف

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون 3 53

38 ـ سورة القلم

يوم يكشف عن ساق .....42.....152

39 ـ سورة الأعلى

قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ..... 15،14 97

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

40 ـ سورة الفجر

يا أيتها النفس المطمئنة ..... 27 ـــ 30 171

41 ـ سورة الشمس

قد أفلح من زكاها 9 169

42 ـ سورة الإخلاص

قل هو الله أحد ..... 1 ـــ 4 94

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات	46
إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره	191
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا	8 10
أمر ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن	91
إن الله ليؤيد هذا الدين	55
إن لله تسعة وتسعين اسما	147
إن من أعظم الجهاد كلمة عدل	59
تسحروا ففي السحور بركة	108
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	116
الطهور شطر الإيمان	166
قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله	171
لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن	101
لا تكن عونا للشيطان على أخيك	188
لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون	120
اللهم فقهه في الدين	84
المؤمن للمؤمن كالبنيان	181
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده	197
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه	109
مررت ليلة أسري بي	53
من أهان سلطان الله في أرضه	60
من رأى منكم منكرا فليغيره	51
من رآني في المنام فسيراني في اليقظة	151
من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار	83
من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ	83
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره	196
من كتم علما نافعا	65
من كذب علي متعمدا فليتبوأ	86، 102

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

العلم **الصفحة**

الآمدي 100
إبراهيم أيوب 17
إبراهيم بسيوني 26
ابراهيم عكاشة 91
إبراهيم النخعي 111
ابن الأثير ..... 9،12،13،19،20،185
ابن باديس،عبد الحميد 165
ابن جماعة 200
ابن جزي ..... 53،70
ابن حجر 152
ابن الجوزي ..... 11،18،21،29،30،54،90،102،152،155،156،158
ابن خلدون ..... 10،14،15
ابن خلكان ..... 9،11،14،15، 29، 39،188،192،193
ابن رشد ..... 123،133،137
ابن سينا 9
ابن الصلاح 102
ابن طفيل 68
ابن عباس 83
ابن عجيبة الحسني 112
ابن عطاء الله السكندري ..... 92،117
ابن عقيل ،أبو الوفاء علي 30
ابن العماد 36
ابن عماد الحنبلي 26
ابن العميد 9
ابن قيم الجوزية ..... 77،100
ابن كثير ..... 8،9، 10، 11، 12، 14، 15،20، 22،
25،30،38،39، 102، 104
ابن ماجة ..... 65،109
ابن المبارك 118
ابن منظور ..... 41، 47،48،64،81،93،105،132،163
ابن هشام 61
ابن يمين الدولة 10

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أبو إسحاق الشيرازي 22
أبو الأعلى المودودي 159
أبو بكر بن العربي الإشبيلي ..... 36، 131، 136، 137، 159
أبو بكر الصديق ..... 156، 185
أبو الحسن الشاذلي ..... 112، 117
أبو حنيفة 117
أبو حيان التوحيدي 133
أبو الخطاب، محفوظ بن أحمد 30
أبو داود السجستاني 188
أبو الدرداء، عمير بن زيد 193
أبو ذر الغفاري 193
أبو سليمان الداراني، عبد الرحمان بن أحمد 194
أبو سعيد النيسابوري 21
أبو طالب المكي 114
أبو علي الدقاق، الحسن بن محمد 26
أبو مسلم الخولاني 156
أبو المظفر الأبيوردي ..... 13، 19
أبو محمد، والد أبي بكر بن العربي 159
أبو نصر الإسماعيلي، إسماعيل بن مسعدة 28
أبو نعيم 32
أبو هريرة 155
أحمد أمين ..... 18، 18، 21
أحمد بن حنبل ..... 53، 84، 100
أحمد حسين 176
أحمد مختار العبادي 8
أحمد الغزالي، أخو أبي حامد ..... 28، 33، 39
أحمد بن محمد الراذكاني 28
إحسان عباس 9
أرسطو ..... 24، 25
إسماعيل بن جعفر الصادق 23
الأشعري، أبو الحسن علي ..... 26، 95، 149
الأعمش، سليمان بن مهران 42
أفلاطون 25
ألب أرسلان، سلطان عالم بن داود ..... 11، 12، 19
إلياس، النبي 85
أنور الجندي ..... 8، 24

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ ب ـ

بابك الخرمي 23

البارون كارادوفو ..... 144، 145، 178

الباقلاني، محمد بن الطيب ..... 25، 95، 117، 152

البخاري ..... 56، 86، 91، 110، 151، 181، 125، 197

بركياروق بن ملكشاه ..... 13، 16

البساسيري، أرسلان بن عبد الله 11

البسطامي، طيفور بن عيسى ..... 32، 122

بشر بن الحارث الحافي 158

بكري شيخ أمين 83

بيبرس، الظاهر ..... 8، 18

ـ ت ـ

تاج الدين السبكي ..... 16، 26 ـ 30، 34، 35، 7، 39

الترمذي ..... 59، 83، 109، 116، 120، 147، 171، 191

ـ ج ـ

الجرجاني، عبد القاهر ..... 43، 81، 120، 125

جعفر الصادق 93

جلال الدين السيوطي 100

جمال الدين القاسمي ..... 102، 103

جميل صليبا 68

الجنيد بن محمد ..... 32، 118

جهم بن صفوان 146

جولد تسيهر 2

الجويني، عبد الملك بن عبد الله ..... 22، 25، 26، 29

ـ ح ـ

الحارث الأشعري 158

الحارث بن أسد المحاسبي ..... 32، 100، 114

الحاكم النيسابوري 104

حسن إبراهيم حسن ..... 16، 18

الحسن البصري ..... 108، 109، 111، 155

الحسن بن الصباح ..... 18، 19

حسن السقاف 151

حسين مروة 138

ـ خ ـ

الخطيب البغدادي 104

الخوارزمي 9

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ د ـ

ديموستين 175

ـ ذ ـ

الذهبي ..... 30،158،185

ذو النون المصري..... 188

ـ ر ـ

الراغب الأصفهاني 20

الرضا،الإمام 27

ـ ز ـ

الزبيدي ..... 33 ـ 35 ،91،110،151

الزركلي..... 26،101،101،111

زكي مبارك 177

زكي نجيب محمود..... 33،180

ـ س ـ

سعيد بن جبير..... 54

سعيد حوى ..... 115،177

السهر وردي،عمر بن محمد ..... 21،88

سلجوق بن نفاق..... 8،9

سليمان دنيا..... 133

ـ ش ـ

الشاطبي 98

الشبلي..... 32،118

الشعبي ..... 8،10

شمس الدين المقدسي 28

الشهرستاني ..... 23،24

ـ ص ـ

صبحي الصالح 103

صلاح الدين الأيوبي 15

صلاح الدين عبد اللطيف 33

ـ ط ـ

الطرطوشي 190

طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق 9

ـ ع ـ

عادل زعيتر 145

عبادة بن الصامت..... 156

عباس محمود العقاد..... 136

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عبد الأمير الأعسم 30
عبد الأمير شمس الدين 160
عبد الجليل الدهستاني..... 16
عبد الحليم محمود 117
عبد الرحمان الأوزاعي 158
عبد الرحمان بدوي..... 11،19،22،23،26
عبد الرحمان بن مهدي 104
عبد العزيز الدباغ 118
عبد الغافر الفارسي ..... 30،34،35،39
عبد الفتاح البزم 92
عبد القادر بن شيخ العيدروس 114
عبد القادر عيسى 173
عبد القاهر البغدادي ..... 23،25،146
عبد الكريم زيدان..... 47،56
عبد الله بن عمر..... 110
عبد الله عنان..... 159
عبد الله بن مسعود ..... 89،91
عبد المجيد الشرنوبي 92
عبد الوهاب الشعراني ..... 73،118،172
علي بن أبي طالب 83
علي بن إسماعيل..... 26
علي بن زيد 158
علي سامي النشار..... 127
العماد الأصفهاني ..... 10،12،16،17،19،22،23
عمر بن الخطاب..... 15،43،70،156
عمر فروخ ..... 13،20،33
عمر بن عبد العزيز 158
عمر شفيق 99
عيسى،النبي..... 174،182

ـ ف ـ

فائز الحاج..... 69
الفارابي..... 9
الفارمذي،أبو علي الطوسي 34
فرقد السبخي..... 155
فيكتور سعيد باسيل 129
فيكتور شلحت 45

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفيومي..... 137
فيليبس المقدوني..... 175

ـ ق ـ

القائم بأمر الله..... 9، 21
القادر بالله، الخليفة العباسي..... 25
القرطبي..... 84
القشيري، أبو القاسم عبد الكريم..... 26، 34، 172

ـ ك ـ

كارل بروكلمان..... 17 ـ 19
كامل عياد..... 68
الكرابيسي..... 100
كعب الأحبار..... 156

ـ ل ـ

لافشين، القائد..... 12

ـ م ـ

المازري، محمد بن علي..... 26، 101، 160
مالك بن دينار..... 90
ماني..... 24
محمد أبو زهرة..... 51
محمد بن إسماعيل الصنعاني..... 102، 103
محمد بن عبد الحكيم القاضي..... 45
محمد بن كرام..... 146
محمد بن علي الشوكاني..... 70
محمد بن ملكشاه..... 14، 61
محمد بن يوسف الأصبهاني..... 192
محمد جمال الدين سرور..... 15
محمد جلال شرف..... 141
محمد الحمري..... 27، 29
محمد فركوس..... 52
محمد سيد كيلاني..... 23
محمد عابد الجابري..... 32
محمد عبد المعز نصر..... 61
محمد العمروسي..... 13
محمد علي قطب..... 104
محمد ماهر حمادة..... 14
محمد محي الدين عبد الحميد..... 102

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد يوسف موسى 22
محمود قاسم ..... 122،129،196
مراد وهبة ..... 24،31
مزدك 24
المستظهر بالله،الخليفة العباسي ..... 11،14
المستعلي بالله ،الخليفة العباسي 13
مسطح بن أثاثة 185
مسلم ..... 46،51،101،102،108،166،185،197
مصطفى غلاب 19
معاذ بن جبل 156
معاوية بن أبي سفيان 156
المعتصم،الخليفة العباسي 12
المعز لدين الله الفاطمي ..... 14،15
ملكشاه بن ألب أرسلان ..... 11،101
المهدي الفاطمي 14
المنذري،الحافظ 104
منير البعلبكي ..... 17، 25

ـ ن ـ

نبيه أمين فارس 17
نظام الملك،الحسن بن علي ..... 12،16ـ18،26،29
نور الدين الشهيد 15
النووي ..... 97،105،149

ـ هـ ـ

هارون الرشيد 27
هولاكو 8

ـ و ـ

ولي الله الدهلوي 97
وهبة الزحيلي ..... 101،113
وول ديورنت 33

ـ ي ـ

ياقوت الحموي ..... 15،23،27،28
يحيى بن معين 185
يوسف بن تاشفين ..... 35، 159
يوسف النساج 35
يوسف فرحات 133
يزيد بن أبي مالك 158

فهرس المصادر والمراجع

أولا : مؤلفات أبي حامد الغزالي

1 ــ إحياء علوم الدين ،بيروت:دار المعرفة للطباعة والنشر،1403هـ ــ 1983م.

2 ــ الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية [المضنون الصغير]،[ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

3 ــ الأدب في الدين،[ضمن مجموعة المنقذ من الضلال]،تعليق وتصحيح محمد جابر،بيروت :المكتبة الثقافية.

4 ــ الأربعين في أصول الدين،الجزائر:شركة الشهاب،1989م.

5 ــ الاقتصاد في الاعتقاد،تقديم:د.عادل العوا،ط1،بيروت:دار الأمانة،1388هـ 1969م.

6 ــ إلجام العوام عن علم الكلام،،[ضمن مجموعة الرسائل الفرائد]،مصر:مكتبة الجندي.

7 ــ الإملاء في إشكالات الإحياء ،[ملحق الإحياء]،بيروت:دار المعرفة للطباعة والنشر،1403هـ1983م.

8 ــ رسالة [أيها الولد]،[ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

9 ــ التبر المسبوك في نصيحة الملوك ،[على هامش سراج الملوك للطرطوشي]،ط1،مصر:المطبعة الخيرية،1306هـ.

10 ــ تهافت الفلاسفة، تحقيق موريس بويج ،تصدير ماجد فخري،بيروت:دار المشرق.

11 ــ جواهر القرآن، تحقيق د. محمد رشيد رضا القباني،ط3، البليدة : قصر الكتاب،1989م.

12 ــ الحكمة في مخلوقات الله، تحقيق د. محمد رشيد رضا القباني،ط3،بيروت:دار إحياء العلوم،1406هـ1986م.

13 ــ الرسالة اللدنية، [ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

14 ــ الرسالة الوعظية،[ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

15 ــ روضة الطالبين وعمدة السالكين، بيروت:دار النهضة الحديثة.

16 ــ فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمان بدوي، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر،1383هـ 1964م.

17 ــ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، [ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

18 ــ القسطاس المستقيم ، تحقيق فيكتور شلحت،ط2، بيروت: دار المشرق.

19 ــ القواعد العشرة ،تعليق وتصحيح محمد محمد جابر،بيروت :المكتبة الثقافية.

20 ــ الكشف والتبيين عن غرور الخلق أجمعين،[مجموعة منهاج العابدين]، مصر:مكتبة الجندي،1384هـ1964م.

21 ــ كيمياء السعادة ، تعليق وتصحيح محمد محمد جابر،بيروت :المكتبة الثقافية.

22 ــ مقاصد الفلاسفة ،تحقيق سليمان دنيا، مصر:دار المعارف.

23 ــ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى،تحقيق محمد مصطفى أبو العلا،مصر:مكتبة الجندي.

24 ــ المستصفى من علم الأصول ،ط2، بيروت: دار الكتب العلمية،1324هـ.

25 ــ مشكاة الأنوار،[ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

26 ــ معيار العلم في فن المنطق،ط2،بيروت:دار الأندلس للطباعة والنشر،1978م.

27 ــ معارج القدس في مدارج معرفة النفس ،الجزائر:شركة الشهاب.
28 ــ معراج السالكين ،[ضمن مجموعة الرسائل الفرائض]، مصر:مكتبة الجندي.
29 ــ محك النظر،ط1،مصر:المطبعة الأدبية.
30 ــ المنقذ من الضلال ،تحقيق د. عبد الحليم محمود ، ط2، القاهرة :دار الكتب المصري،بيروت:دار الكتاب اللبناني،1985.
31 ــ منهاج العابدين،مصر:مكتبة الجندي،1384هـ1964م.
32 ــ منهاج العارفين ،[ضمن مجموعة القصور العوالي]،مصر:مكتبة الجندي.

ثانيا : المراجع العربية:

الآمدي (أبو الحسن علي سيف الدين التغلبي،ت 631هـ)
33 ــ الأحكام في أصول الأحكام،حيدر أباد:مطبعة المعارف،1322هـ،1914م.
ابن الأثير (أبو الحسن علي عز الدين ،ت 1234م)
34 ــ الكامل في التاريخ،ط4،بيروت:دار الكتاب العربي،1403هـ،1983م
35 ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة،بيروت:دار إحياء التراث العربي.
ابن جزي(أبو القاسم محمد بن أحمد الغرناطي، ت 741هـ)
36 ــ تقريب الوصول إلى علم الأصول ،تحقيق محمد فركوس ،ط1،الجزائر :دار التراث الإسلامي،1410هـ .
ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان ،ت 1257م)
37 ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم،ط1،حيدر آباد:دار المعارف العثمانية،1359هـ.
38 ــ صفة الصفوة،بيروت:دار الجيل.
39 ــ سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ط1، بيروت:دار الكتب العلمية،1404هـ.
ابن حجر(أحمد بن علي ،ت 852هـ)
40 ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري،ط2،بيروت:دار إحياء التراث العربي،1402هـ.
ابن حنبل (أحمد بن محمد أبو عبد الله الشيباني،ت463هـ)
41 ــ المسند،بيروت:دار الفكر العربي.
ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد شمس الدين ،ت681هـ)
42 ــ وفيات الأعيان،تحقيق إحسان عباس ،بيروت:دار الثقافة.
ابن خلدون(أبو زيد عبد الرحمان ،بن محمد،ت 808هـ)
43 ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر،بيروت:دار الكتاب اللبناني،1983م.
ابن رشد(أبو الوليد محمد بن أحمد،ت 1198م)
44 ــ فصل المقال،تحقيق محمد عمارة،القاهرة:دار المعارف،1965م.
45 ــ تهافت التهافت،تحقيق سليمان دنيا،ط2،القاهرة:دار المعارف،1971م.
ابن طفيل (أبو بكر محمد،ت 1185م)
46 ــ حي بن يقظان،تحقيق جميل صليبا وكامل عياد،دمشق:مطبعة جامعة دمشق،1962م.
ابن عجيبة (أحمد الحسني،ت1224هـ)
47 ــ إيقاظ الهمم ،في شرح الحكم،ط1،بيروت :المكتبة الثقافية.

ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري ،ت543هـ)
48 ـ العواصم من القواصم،تحقيق د.عمار طالبي،الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
ابن عطاء الله(أبو الفضل تاج الدين أحمد لإسكندري،ت709هـ)
49 ـ لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي أبي الحسن،القاهرة:مكتبة القاهرة،1979م.
ابن القيم (شمس الدين محمد ،ت751هـ)
50 ـ مدارج السالكين،تحقيق محمد حامد الفقي،بيروت:دار الكتاب العربي
51 ـ مفتاح دار السعادة،بيروت:دار الكتب العلمية
ابن كثير(أبو الفدا إسماعيل الحافظ،ت 747هـ)
52 ـ البداية والنهاية،ط1،بيروت:دار المعرفة،1996م
ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي،ت 273هـ)
53 ـ السنن ،القاهرة:دار الكتاب المصري،بيروت:دار الكتاب اللبناني.
ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد،ت711هـ)
54 ـ لسان العرب ،بيروت:دار صادر.
أبو داود(سليمان بن الأشعث بن سليمان الأسدي،ت 275هـ)
55 ـ السنن ،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،بيروت:دار الفكر العربي.
أبو طالب(عمر بن عثمان المكي،ت291هـ)
56 ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد،بيروت:دار صادر.
الأصفهاني(الإمام السعد عماد الدين)
57 ـ تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت:دار الآفاق الجديدة ،1978م
الأعسم(د.عبد الأمير)
58 ـ الفيلسوف الغزالي إعادة تقويم لمنحنى تطوره الروحي،ط2،بيروت:دار الأندلس،1981م.
إمام(د.زكريا بشير)
59 ـ الفلسفة النورانية القرآنية عند الغزالي،ط1،الكويت:مكتبة الفلاح،1409هـ،1989م.
أمين(بكري الشيخ)
60 ـ التعبير الفني في القرآن،بيروت:دار الشروق
أمين (أحمد)
61 ـ ظهر الإسلام،ط5،بيروت :دار الكتاب العربي
باسيل(فيكتور سعيد)
62 ـ منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي،بيروت:دار الكتاب اللبناني
البخاري(الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي الحسن إسماعيل،ت 256هـ)
63 ـ الجامع الصحيح ،القاهرة:دار الفكر العربي.
البعلبكي(منير)
64 ـ موسوعة المورد العربي،،ط1،بيروت:داز العلم للملايين ،1990.
65 ـ معجم أعلام المورد،ط1،بيروت:دار العلم للملايين،1992.
البغدادي(عبد القاهر بن طاهر،ت 429هـ)
66 ـ الفرق بين الفرق،ط1،بيروت:دار الآفاق الجديدة،1973م.

البغدادي(الخطيب أبو بكر أحمد بن علي،ت463هـ)
67 ـ الكفاية في علم الرواية،حيدر أباد :دائرة المعارف العثمانية،1375هـ.
بدوي(عبد الرحمان)
68 ـ مذاهب الإسلاميين ،ط3،بيروت:دار العلم للملايين،1983م.
بسيوني (د.إبراهيم)
69 ـ الإمام القشيري :سيرته ـ آثاره ومذهبه في التصوف،ط1،بيروت:منشورات المكتبة العصرية.
دي بور(ت.ج)
70 ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية،ترجمة أبي ريدة،القاهرة:لجنة التأليف والترجمة والنشر،1938م.
ديورنت(ويل)
71 ـ قصة الفلسفة،ترجمة فتح الله المشعشع،ط4،بيروت:مكتبة المعارف،1979م.
الترمذي(أبو عيسى محمد بن سورة ،ت279هـ)
72 ـ الجامع الصحيح (السنن)،ط1،بيروت:دار الكتب العلمية،1987م.
الجابري(محمد عابد)
73 ـ بنية العقل العربي،ط3،بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية،1990م.
الجرجاني(علي بن محمد الشريف،ت1413م)
74 ـ التعريفات ،بيروت:مكتبة لبنان،1978م.
الجندي (أنور)
75 ـ الإسلام وحركة التاريخ،ط8،بيروت:دار الكتاب العربي.
جولد تسيهر (أجناس)
76 ـ العقيدة والشريعة في الإسلام،ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون،ط2،مصر:دارالكتب الحديثة.
الحاكم(الحافظ النيسابوري)
77 ـ المستدرك،حيدر أباد :دار المعارف العثمانية،1334هـ.
حمادة (محمد ماهر)
78 ـ الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية،بيروت:مؤسسة الرسالة.
حسن (إبراهيم حسن)
79 ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،ط1،بيروت:دار الأندلس،1967
حسين(أحمد)
80ـ الطاقة الإنسانية،ط3،بيروت :المكتبة العصرية،1970م.
الحميري(محمد بن عبد المنعم)
81 ـ الروض المعطار في خبر الأقطار،تحقيق إحسان عباس،بيروت :دار القلم،1975م.
حوى(سعيد)
82 ـ تربيتنا الروحية،الجزائر :مكتبة رحاب.
الدباغ(عبد العزيز بن مسعود ،ت 1130هـ)
83 ـ الإبريز،جمع ابن المبارك القاهرة:مكتبة محمد علي صبيح وأولاده.
دنيا(سليمان)
84 ـ الحقيقة في نظر الغزالي ،القاهر:دار المعارف 1965م.
الدهلوي(أحمد بن عبد الرحيم العمري،ت 1776م)

85 ــ حجة الله البالغة،بيروت :دار الثقافة.
الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان ،شمس الدين،ت 748هـ)
86 ــ تذكرة الحفاظ،بيروت:دار الكتب العلمية.
87 ــ سير أعلام النبلاء،تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين،ط1،بيروت:مؤسسة الرسالة،1981م.
الذهبي(محمد حسين،ت 1396هـ)
88 ــ التفسير والمفسرون،ط2،بيروت:دار إحياء التراث العربي،1976م.
زعبوب (عادل)
89 ــ مناهج البحث عند الغزالي،ط1،بيروت:مؤسسة الرسالة،1980م
الزبيدي (أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني،ت 1205هـ)
90 ــ إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ،[بدون بيانات]
91 ــ مختصر صحيح البخاري،تحقيق إبراهيم عكاشة،الجزائر:الشركة الجزائرية.
الزحيلي(د.وهبة)
92 ــ أصول الفقه الإسلامي ،ط1،دمشق:دار الفكر،1406هـ،1986م.
الزركلي (خير الدين) .
93 ــ الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين،ط7،بيروت: دار العلم للملايين 1990
زيدان(د.عبد الكريم)
94 ــ أصول الدعوة، الجزائر:دار الفكر.
السبكي(تاج الدين عبد الوهاب،ت 756هـ)
95 ــ طبقات الشافعية الكبرى،ط1،القاهرة:مطبعة عيسى البابي الحلبي،1965ــ1967م.
سرور(د.محمد جمال الدين)
96 ــ سياسة الفاطميين الخارجية،بيروت :دار الفكر العربي،1386هـ،1967م.
السهروردي(شهاب الدين يحي بن حبش،ت 587هـ)
97 ــ عوارف المعارف،ملحق الإحياء ،ج5،بيروت:دار المعرفة.
السيوطي(جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر،ت911هـ)
98-تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي،طبعة مصر،1307هـ.
الشاطبي(أبو إسحاق إبراهيم بن موسى،ت790هـ)
99 ــ الموافقات في أصول الشريعة،القاهرة:مطبعة المكتبة التجارية.
شرف(د.محمد جلال)
100 ــ الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامي،بيروت:دار النهضة العربية.
الشعراني(أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي،ت 973هـ)
101 ــ الطبقات الكبرى،القاهرة :دار الفكر العربي،1952م.
102 ــ كشف الغمة عن جميع الأمة،ط1،مصر:مكتبة المشهد الحسيني.
103 ــ لطائف المنن والأخلاق،مصر:المطبعة الميمنية،1321هـ.
104 ــ ميزان مذاهب الأئمة الأربعة ، مخطوط بمكتبة الأستاذ عمر محمد عبد الكريم بأولاد جلال
شفيق(د.محمد)
105 ــ البحث العلمي،ط1،الإسكندرية :المكتب الجامعي الحديث،1985م.

شمس الدين: د الأمير)
106 ــ المذهب التربوي عند ابن جماعة،ط1،بيروت:دار اقرأ،1404هـ ــ،1984م.
الشهرستاني(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم،ت 548هـ)
107 ــ الملل والنحل،تحقيق محمد سيد كيلاني،بيروت:دار المعرفة.
الشوكاني(محمد بن علي،ت 1250هـ)
108 ــ إرشاد الفحول في تحقيق الحق من علم الأصول،بيروت:دار المعرفة،1399هـ ،1979م.
الصالح(د.صبحي)
109 ــ علوم الحديث و مصطلحه،ط12،بيروت:دار العلم للملايين،1981.
الصنعاني(محمد بن إسماعيل)
110 ــ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،ط1،طبعة القاهرة.
القاسمي(جمال الدين)
111 ــ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث،دمشق :مطبعة ابن زيدون،1925م.
العبادي (أحمد مختار)
112 ــ في التاريخ العباسي والأندلسي ،بيروت:دار النهضة العربية ،1972
عبد الباقي(محمد فؤاد،ت1968م)
113 ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،بيروت:دار إحياء التراث
العشري(جلال)
114 ــ حقيقة الفلسفات الإسلامية،ط1،القاهرة:الدار المصرية اللبنانية،1402هـ ــ،1991م.
العقاد(عباس محمود)
115 ــ فلسفة الغزالي،[ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته،ط1،بيروت:دارالكتاب اللبناني،1978م،مج9
العمروسي(محمد)
116 ــ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب،بيروت:دار الغرب الإسلامي،1982م.
عنان (عبد الله)
117 ــ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ،ط1،القاهرة:لجنة التأليف والنشر ،1964م.
العيدروس(عبد القادر بن شيخ،ت1038هـ)
118 ــ تعريف الإحياء في فضاء الإحياء،[مجموعة منهاج العابدين]،مصر :مكتبة الجندي.
فروخ (عمر)
119 ــ تاريخ الأدب العربي،ط1،بيروت:دار العلم للملايين 1983م.
قاسم(د.محمود)
120 ــ دراسات في الفلسفة الإسلامية،ط5،القاهرة:دار المعارف.
القرطبي(أبو عبد الله محمد)
121 ــ الجامع لأحكام القرآن،ط1،بيروت:دار الكتب العلمية،1988م.
القشيري(أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن،ت465هـ)
122 ــ الرسالة القشيرية في علم التصوف،بيروت:دار الكتاب العربي.
قمبر(د.محمد)
123 ــ دراسات تراثية في التربية الإسلامية،ط1،الدوحة:دار الثقافة،1413هـ ــ،1993م.
كارادوفو(البارون)

124 ــ الغزالي،ترجمة عادل زعيتر،ط2،بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1984م.
الكلاباذي(أبو بكر محمد،ت380هـ)
125 ــ التعرف لمذهب أهل التصوف ،تحقيق محمد أمين النـــواري ط2،القـــاهرة:مكتبـــة الكليـــات الأزهرية،1400هـ،1980م
المازري(أبو عبد الله محمد بن علي ت 536هـ)
126 ــ المعلم بفوائد مسلم،تحقيق محمد الشاذلي النيفر،تونس:الدار التونسية للنشر،1978م.
مبارك (زكي)
127 ــ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق:بيروت،منشورات المكتبة العصرية
128 ــ الأخلاق عند الغزالي،صيدا،بيروت:المكتبة العصرية
المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب والعلوم الاجتماعية .
129 ــ مهرجان الغزالي، القاهرة:مطابع كونستا توماس وشركاه.
محمود(زكي نجيب محمود)
130 ــ المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري،ط3،بيروت،القاهرة:دار الشروق،1401هـ ،1981م.
مروة(حسين)
131 ــ النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية،بيروت:دار الفارابي،1978م.
مسلم(الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري،ت261هـ)
132 ــ الجامع الصحيح ،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،بيروت:دار إحياء التراث العربي
المقدسي(شمس الدين)
133 ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،نشر م.ج.كواج،مطبعة بريل،1906.
المنذري(الحافظ)
134 ــ الترغيب والترهيب،تحقيق محمد علي قطب،ط1،بيروت:دار القلم،1992م.
الناهي(د.صلاح الدين عبد اللطيف)
135 ــ الخوالـــد مـــن آراء حجـــة الإســـلام الغـــزالي،ط1،بـــيروت:دار الجيـــــل،عمـــــان:دار عمار،1704هـ،1987م.
الندوي (أبو الحسن علي الحسني)
136 ــ ربانية لا رهبانية،ط4،بيروت:مؤسسة الرسالة1986م.
النشار (د.علي سامي)
137 ــ مناهج البحث عند مفكري الإسلام،ط4،القاهرة:دار المعارف،1978.
النووي(يحي بن شرف،ت676هـ)
138 ــ شرح صحيح مسلم،بيروت:دار الكتاب العربي،1987م.
وهبة(مراد)
139 ــ المعجم الفلسفي،ط2،القاهرة:دار الثقافة الجديدة،1971م.
ونسك (د.أ،ي)
140 ــ المعجم الفهرس لألفاظ الحديث النبوي،ليدن:مكتبة بريل،1963م.
ياقوت(شهاب الدين الحموي ت1229م)
141 ــ معجم البلدان،بيروت:دار صادر1957م.

جامعة عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب ــ تعريف الحسبة 48
ج ــ العلاقة بين المصطلحات الثلاثة 50
ثانيا ــ ضوابط الإصلاح الاجتماعي 51
1 ــ القائم بالإصلاح 51
أ ــ العدالة 53
ب ــ إذن السلطة 55
ج ــ القدرة 57
2 ــ المخاطبون بالإصلاح 59
أ ــ وجوب التنقل للمخاطبين 58
ب ــ انتهاج الأساليب المناسبة مع أصناف الناس 58
3 ــ موضوع الإصلاح 65
أ ــ ضوابط المنكر 65
ب ــ نماذج عن نقد الغزالي لواقعه الاجتماعي 71
4 ــ مراتب الإصلاح 72
الفصل الثالث :أصول المنهج الإصلاحي ..... 78 ــ 138
أولا ــ القرآن الكريم ظاهرا وباطنا 82
1 ــ العلاقة بين ظاهر القرآن وباطنه 82
2 ــ مراتب العبور إلى الباطن القرآني 88
3 ــ مقاصد القرآن الكريم 93
أ ــ المقاصد الأصلية 93
ب ــ المقاصد الفرعية 97
ثانيا ــ السنة النبوية علما وعملا 99
1 ــ التثبت من صحة الأحاديث سندا ومتنا 100
أ ــ السند 100
ب ــ الضبط 105
2 ــ تفهم المعاني العميقة للأحاديث النبوية 106
3 ــ تتبع مواضع القدوة من السنن 109
ثالثا ــ التصوف السني سلوكا ومعرفة 109
1 ــ السلوك الصوفي 112
أ ــ السلوك العام 112
ب ــ السلوك الخاص 116

2 ــ المعرفة الصوفية 119
رابعا ــ أحكام العقل والانفتاح الثقافي 123
1 ــ أحكام العقل 123
2 ــ الانفتاح الثقافي 131
أ ــ تيار الرفض 131
ب ــ تيار القبول 132
ج ــ تيار الانتقاء 133
الفصل الرابع:أسس بناء المجتمع ..... 139 ــ 199
أولا ــ الإيمان 140
1 ــ موقف الغزالي من منهج المتكلمين في عرض العقيدة 143
أ ــ التفريق بين المقاصد والغايات في علم الكلام 141
ب ــ تطوير المنهج البرهاني لعلم الكلام 142
ج ــ توسيع ميادين علم الكلام 143
2 ــ تجديد الغزالي في عرض العقيدة 144
أ ــ العلم 144
ب ــ التحقق الذوقي 147
3 ــ موقف الغزالي من ظاهرة التكفير 148
ثانيا ــ العلم 154
1 ــ البعد الإصلاحي للعلم 154
أ ــ ربانية التعليم 154
ب ــ تعميم التعليم 157
2 ــ إصلاح النظام التعليمي 158
أ ــ منهج التعليم 160
ب ــ برامج التعليم 164
ثالثا ــ التزكية 166
1 ــ مفهوم التزكية 166
2 ــ منهج التزكية 170
أ ــ المنهج العلمي 173
ب ــ المنهج العملي 74
3 ــ ثمار التزكية 77
أ ــ الأخلاق 177

ب ــ الآداب 179
رابعــا ــ الروابــط الاجتماعيــة 181
1 ــ الأسس النفســية للروابــط الاجتماعيــة 181
2 ــ الظواهــر الســلوكية 188
أ ــ التنــاصح 188
ب ــ التــآلف 190
ج ــ التســامح 192
د ــ التكــافل 193
هــ ــ التواصل 195
الخاتمــة 198
الفــهارس العامــة ..... 203 ــ 227
فــهرس الآيــات القرآنيــة 204
فــهرس الأحــاديث النبويــة 206
فــهرس الأعــلام 210
فــهرس المصــادر والمراجــع 217
فــهرس الموضوعــات 224

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية